جرمين غرير



المرأة المخصيّة



ترجمة:
هنرييت
عبّودي

دار الطليعة - بيروت

المَرْأةُ المُدَجَّنة

بيـــروت ـ لبنـــان
ص . ب ١١١٨١٣
تلفـــون ٣١٤٦٥٩
٣٠٩٤٧٠

الطبعـــة الاولـــى
تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨١

جرمين غرير

المرأة المدجّنة

ترجمة:

هنريت عبّودي

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

هذه ترجمة كتاب

LA FEMME EUNUQUE

PAR

GERMAINE GREER

EDITIONS ROBERT LAFFONT

PARIS 1971

تمهيـــــد

لقد قدر للمستنخبات القدامى، بعـــد ان عرفــمن شظف السجون، ان يعشن زمنا اشرعت فيه امام النساء تدريجيا ابواب مهن حرة ، فرفضن دخولها، ومنحن فيه حقوقا سياسية ، فابيــن ممارستها، وفتحت امامهن ابواب جامعات فدخلنها وكأنهن يدخلـــن دكاكين يشترين منها ديبلوما قبل الزواج. وقد انكبــت مناضلات العشرينات، بعد ان همدت شعلة العمل المباشر وحماسته ، علـى تدعيم انجازاتهن عن طريق مجموعة من التنظيمات الصغيرة. لكــن الجزء الجوهري والاساسي من نشاطهن تبدد واندثر من جراء ردة الفعل التي شهدتها مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانيــة ، والتي ردت الاعتبار الى الزينة والتبرج، الى المشدات، الـــى الانوثــة التي كانت نزعة العشرينات الليبرالية قد نبذتها وضربت صفحـــا عنها. وعندما بدأ التضليل الجنسي في النصف الثاني من هذاالقرن راحت مطالبهن ترتدي اكثر فاكثر طابع الحياء والوقار. فانحرفت النزعة النضالية عن هدفها وانحطت الى مستوى الشذوذ والغرابة.

لقد تحولت اهدافها وتبدلت . ففي الماضي كانت نســـاء حسنات التربيــة ، منتميات الى الطبقات الوسطى ، يطالبـــن

باصلاحات بصخب والحاح. اما اليوم ، فان نساء الطبقة الوسطى، المتنكرات لتربيتهن الصالحة ، يدعين الى الثورة . وقد تقدمت الرغبة في الثورة ، بالنسبة الى العديدات من بينهن ، على مطلب تحرير المراة . وقد احتضن اليسار الجديد معظم هذه الحركات التي ربط بعضها تحرر المراة بقيام مجتمع لاطبقي وبزوال الدولة . وهذا اختلاف جذري . فقد تلاشى ايمان المستنخبات بالنظام السياسي القائم ، واضمحلت رغبتهن العميقة في احتلال مكانهن داخل هذا النظام . لقد كانت النساء فيما مضى يكررن بالحاح انهن غير متطلعات الى قلب المجتمع راسا على عقب او الى تنحية الآلهة عن عرشها . كانت افعالهن في الواقع تهدد الزواج ، والاسرة ، والملكية الخاصة ، بيد انهن كن يحاولن المستحيل لتهدئة مخاوف المحافظين . وبذلك تكون المستنخبات قد خنّ قضيتهن ومهدن الطريق امام فشل التحرر وهزيمته. وقد بدا هذا الفشل وكأنه قد استتب قبل خمسة اعوام . ففي البرلمان استقر وجود النساء على اعداد ضئيلة للغاية . وفي المهن الحرة ظلت النساء يشكلن اقلية ضئيلة . وقد شغل معظمهن وظائف ثانوية ، هزيلة الاجر . لقد فتح باب القفص اذن ، لكن الكناري رفض التحليق . فاستنتج بعضهم من ذلك انه كان من المستحسن عدم فتح الباب ، وان عصافير الكناري وجدت لتعيش في الاسر . اما اولئك الذين عرضوا عليها الحرية فلم يفعلوا سوى انهم اوقعوها في البلبلة والاسى .

ثمة منظمات نسوية راهنة لا تزال تنادي بالمبادىء الاصلاحية التي حددتها المستنخبات . **فالمنظمة القومية للنساء** ، التي تتزعمها بيتي فريدان ، ممثلة في اللجان المنبثقة عن الكونغرس في الولايات المتحدة ، وعلى الاخص في اللجان المولجة بالقضايا التي تهم المراة بالدرجة الاولى . والنساء اللواتي يعملن في حقل السياسة يدافعن عن المصالح النسائية ، وبوجه خاص عن مصالح المراة التي تتبع الرجل وتخضع له ، والتي يتعين حمايتها

من طلاق سهل المنال او من تجاوزات ازياء النساء . اما منظمة السيدة هنكينز ـ هالينان ، **جماعة النقاط الست** ، فتشكل كيانا سياسيا محترما . والجديد في الامر الشهرة التي عرفتها تلك المنظمات النسائية ، اذ لا يمضي اسبوع واحد ، بل يوم واحد، دون ان تطرح مسألة تحرير المرأة على بساط البحث في وسائل الاتصال الجماهيري. فقد غدا الجميع ، على حين غرة ، مهتما بهذه المسألة . وحتى الذين ينتقدون الحركات القائمة فانهم يتحمسون لمطالبها . وتشكل الطالبات الدعامة الاساسية لهذه الحركات . والواقع انه امر لا يبعث على العجب ان تتطلع نساء ، لا يحصلن على الاجر الذي هو من حقهن ، لمحاسبة الحكم ومطالبته برفع الغبن عنهن. لكن النساء اللواتي لا يملكن ظاهريا اي دافع للتذمر بدأن بدورهن يرفعن اصواتهن ، معبرات عن احتجاجهن وتذمرهن . فقد قيض لي ان اقابل نساء من الاقاليم ، متأنقات ومؤدبات، فأذهلتني حماستهن لتقبل اكثر الافكار جذرية ، وقسوة انتقاداتهن وشموليتها . ان تمرد المستنخبات لم يرس جذوره الى ذلك العمق الذي بلغته الحركة النسوية الراهنة التي لا تكف عن الامتداد والانتشار .

اما اسباب تجدد هذه الدينامية فهي غير محددة تماما. ربما تخطت خدعة التحرر الجنسي هدفها . وربما لم تؤمن النساء يوما بصورة الانوثة التي فرضها عليهن السيكولوجيون، الكنائس ، والمجلات النسائية ، والرجال . وربما اتاحت لهن التي تم تحقيقها مع الايام، فرصة ادراك اسباب وضعهن. فالنساء اللواتي تحررن من الامومات الفوضوية ومن الاعمال المنزلية المنهكة، وجدن متسعا من الوقت للتأمل والتفكير. هذا ان لم يكن بؤس الاوضاع التي آل اليها مجتمعنا قد غدا من الوضوح والجلاء بحيث فقدت النساء ثقتهن في قدرة الرجال على اصلاح هذه الاوضاع، فعقدن العزم على معالجتها بانفسهن . تلك هي على وجه التحديد

الحجة التي رفعها اعداء المراة ليفسروا تذمرها . والحال ان النساء مدعوات الى اعتبار هذا التذمر نواة مطالبتهن بحقهن في الوجود . وقد بدأن يجاهرن بافكارهن ويناقشنها فيما بينهن. وقد ارتاب الرجال على الدوام من رؤية النساء يتداولن فيما بينهن . اما اليوم فقد باتوا يعتبرون ذلك ضربا من النشاط الهدام المعلن .

ان المناضلات في منظمات تكافح رسميا من اجل تحرر المراة يشكلن اقلية ضئيلة وانما مرموقة . فكلما اثير مطلب نسوي ، برزت الوجوه نفسها . فكان ان اعتبرهن الراي العام موجّهات حركة، خاصيتها الاولى ان لا وجود فيها للتوجيه. فهؤلاء « الموجهات » يفتقرن اليوم ، كما كن افتقرن في الامس ، الى الاستراتيجية الثورية . فعندما تخرج المراة في تظاهرة ، او تدرس الوثائق وتنقب فيها ، او تحتل مكانها في لجنة او هيئة ، فانها لا تعطي بذلك دليلا على حريتها ، ولا سيما اذا ما اقترن نشاطها باعمال منزلية وبحيل ومكايد نسوية. فمفهوم الحرية ، الذي ينطوي عليه مثل هذا التحرر ، خاو من كل معنى . وعندما لا يحدد هذا المفهوم بوضع الرجل، الذي لا ينعم هو الاخر بالحرية ، فانه يظل بلا مضمون في عالم لا يوفر سوى امكانات تفتح محدودة للغاية . وتدافع مناصرات المراة تارة عن مبدأ المساواة الاجتماعية والقانونية والمهنية والاقتصادية والسياسية والاخلاقية ، ويندد بالتمييز بين الرجل والمراة ، وينادين بمبدأ المنافسة والمطالبة ، ويحلمن طورا بحياة افضل، حياة سيحصل عليها الجميع يوما ، بفضل مؤسسات سياسية مناسبة. اما النساء اللواتي لا يؤمن بالطرق والاساليب السياسية الكلاسيكية ، ادستورية كانت ام توتاليتارية أم ثورية ، فانهن لا يعرن اهتماما لاي من الموقفين . فمن حق ربة البيت، التي ترى تحررها مرهونا بقيام ثورة شاملة ، ان تفقد الامل . كما ان السياسة التقليدية تعجز عن اقتراح بديل عن الخلية العائلية القائمة على رجل واحد ، والتي تعتبر شرطا ضروريا

لحسن سير الاقتصاد . ومع ذلك فان ثمة دوافع واعتبارات تحث المراة على العمل وان خلا الافق من كل رؤية طوباوية. فبدلا من ان تبدأ بتغيير العالم ، تستطيع ان تعيد تقييم طاقات تفتحها.

يستحيل على كل مناصر للمراة ان يدافع بنجاح عن قضية تحررها ما لم يعمد في البداية الى تحديد درجة دونيتها او تبعيتها الطبيعية تحديدا دقيقا واكيدا . لهذا السبب راينا ان نستهل هذا الكتاب بدراسة للبدن . فنحن نعرف من نحن ، لكننا لا نعرف ما نستطيع ان نكونه ، او ما كنا سنكون عليه . فالعلم يصور حالتنا الراهنة وكأنها نتيجة حتمية لقوانين بيولوجية . ويتعين على النساء ان يبدأن بالتشكيك بالمعايير الاساسية للانوثة النظرية كيما يظفرن من جديد بامكانات التفتح التي جردهن منها تكييفهن الاجتماعي. سوف نبدأ اذن بدراسة جنس الخلايا . ولن نستطيع في الحقيقة ان نستنتج شيئا يذكر من التفاوتات بين الصبغيات ما لم تتجل في نمو الجهاز العضوي برمته ، وهذا النمو لا يتم في الفراغ. ان جميع الملاحظات التي قد نبديها عن المراة تخضع ، بصورة واعية او غير واعية ، لتأثير الافكار المسبقة التي لا يسعنا الافلات منها، والتي كثيرا ما نعجز عن تحديد هويتها . وقد افترضت، في وصفي للجسم النسائي، ان كل خصائصه قابلة لان تكون مختلفة. ولابراز تأثير التكييف الاجتماعي ذكرت بعض انعكاسات السلوك على الهيكل العظمي . ثم انتقلت من الجهاز العظمي الى تكورات جسم المراة ، التي لا تزال تعتبر ميزة اساسية من ميزات الجنس الانثوي ومن ثم الى الشعر ، الذي يعتبر بدوره سمة جنسية ثانوية .

ان الحياة الجنسية الانثوية كانت ، ولا تزال ، موضع اهتمام كبير . وقد حاولت ان اثبت انها كانت موضع نفي او تشويه من قبل معظم المراقبين ، ولا سيما في ايامنا هذه . لقد اسلفنا ان تكوين المراة الجسدي هو حصيلة عملية تكييف . وهنا

تبرز طبيعة التكييف . فقد اعتبرت المراة موضوعا جنسيا برسم استعمال الرجل وتذوقه . وقد نفيت حياتها الجنسية وشوهت طبيعتها عندما وصفت بالسلبية . وقد اسقط المهبل من صورة الانوثة ، كما جرت محاولات لمحو جميع دلائل استقلالية الجسم الانثوي وقوته. فالميزات التي تعود على المراة بمديح الرجال وعطفهم واستلطافهم هي ميزات الخصاء : الخجل، البدانة ، الذبول ، الرقة ، التصنع . وفي نهاية هذا الجزء المخصص لجسم المراة سنقدم لمحة وجيزة عن التأثير الذي يقال ان وظيفة الانجاب تمارسه على جسم المراة برمته ، وعن مساوىء الرحم التي يزعم انها مصدر للهستيريا، ولاكتئابات الدورة الشهرية، ولوهن يحرّم على المراة القيام باي عمل يقتضي جهدا متواصلا.

يشكل المزيج المكون من هذه السمات الفيزيولوجية ، ومن الخصائص السيكولوجية المستنتجة منها ، ما يسمى **بالانثى الخالدة** . هذا النموذج المقولب للانوثة يطغى على حضارتنا ، فهو المثل الاعلى الذي اليه تهفو النساء . وانطلاقا من الفرضية القائلة ان الهة مجتمعنا الاستهلاكي هي سلعة مصطنعة ومزيفة ، فاننا سنعكف على تحليل اساليب صنع النفس الانثوية. ان العنصر الاساسي في هذه العملية مماثل للخصاء الذي اشرنا اليه بصدد الجسد . فالطاقة الانثوية تلجم او تحوّل عن مجراها . ولسوف نرى ، عند البحث في وضع الطفلة الرضيعة، كيف يختزل الزائد الى ناقص . ثم سنتابع الصراعات التي تخوض البنت الصغيرة غمارها ، بغية التوفيق بين تكوينها المدرسي ، الذكوري الطابع ، وتنشئتها العائلية التي ترمي الى اخضاعها وترويضها ، وهي صراعات تستمر حتى طور البلوغ الذي يضع حدا لهذا الالتباس ، ويحكم على الفتاة ، اذا ما اتصفت عملية تكييفها بالنجع ، بأن تصير اسيرة موقف انثوي بحت . اما في الحالة المعاكسة فان التكييف يستمر بواسطة اجراءات تصحيحية ، يتولاها بشكل خاص السيكولوجيون الذين سناتي

بذكر اطروحاتهم وتوصياتهم .

نظرا الى كثرة النظريات القائلة بوجود تفاوت في الطاقة الفكرية بين الجنسين ، فقد نوهت بفشل جميع المحاولات التي بذلت، منذ نحو خمسين عاما ، لاثبات صحة تلك النظريات . لكن على الرغم من هذا الفشل ظل الناس يعتقدون ان النساء لامنطقيات ، ذاتيات ، وغبيات بوجه عام . وقد اوردت مقتطفات من كتاب اوتو فايننفر **الجنس والطبع** ، الذي يعبر عن مجمل هذه الاحكام المسبقة ، وبينت كيف ان العيوب والمثالب التي يحددها فيه تغدو محاسن وخصالا حميدة اذا ما طرحنا جانبا تصوره للفضيلة وللذكاء واخذنا بتصور وايتهد وآخرين . ويتضمن الفصل المكرس للعمل النسوي عرضا للمساهمة الانثوية في الحياة العملية وللطريقة التي يتم وفقها تقييم هذه المساهمة، وهذا العرض يناقض النظرية الشائعة عن عمل المراة .

لقد تم خصاء النساء بدالة استقطاب المذكر ـ المؤنث الذي احتكر فيه الرجال الطاقة كلها ليحولوها الى سلطة عدوانية واستملاكية ، فخفضوا بذلك العلاقات ما بين الجنسين الى نماذج سادية ـ مازوخية . لقد حرّف تصورنا للحب وشوّه . فبدلا من ان يكون بمثابة المثل الاعلى صار انحرافيا، وانحرافاته الرئيسية هي الغيرية ، والانوية ،والاستحواذ . ونلمس هذه الانحرافات في عدد من الميثولوجيات ، وعلى الاخص في الادب العاطفي الذي تنهل من معينه المراة الخائبة او الباحثة عن تعويض جنسي ، وفي الصور التي يستطيبها الادب الذكوري. ويصف الفصل الذي يبحث في اسطورة الحب والزواج عند الطبقات الوسطى الكيفية التي تتكون بها اكثر الاخاييل شيوعا لدى الرجال والنساء بصدد علاقاتهم الجنسية . اما تصورنا للحياة الطبيعية فسوف نعرضه في الفصل المكرس للاسرة . وينطوي هذا الفصل على نقد شديد للاسرة النووية التي اقترح بعض الحلول البديلة عنها . لكن الهدف الرئيسي لهذا

الفصل هو الابانة عن امكانية ايجاد نمط حياة مختلف وعن ايجابيات هذا النمط . ان انعدام الامن والاستقرار هو فزاعة الذين يتخوفون من الحرية . لذلك عمدت الى الكشف عن الطابع الوهمي والزائف لهذا الامن في عصر الحرب الشاملة ، وتعميم التلوث ، والانفجار السكاني .

لئن سقط الحب في حمأة الانحراف والشذوذ ، فهو يتمخض في كثير من الحالات عن الحقد والكراهية . وقد يولد ، في حالات أسوأ ، النفور والتقزز الناجمين عن السادية ، او عن هاجس الاغواء الجنسي ، او عن الشعور بالذنب . وقد يدفع هذا الاشمئزاز وهذا التقزز ، في بعض الاحيان ، الى اقتراف جرائم نكراء ، بيد انهما بوجه عام لا يحثان الا على تبادل الشتائم البذيئة او الدعابات الفظة . ولئن كان الادب النسوي يحفل بالوصف الذاتي لضروب الغبن اللاحقة بالمراة بصورة فردية ، فقد آثرت ، في هذا الكتاب ، ان اعالج المشكلة من منظور أعم مكتفية بذكر امثلة موضوعية تثبت ان النساء لن يعرفن السعادة حتى عندما يتقبلن حرفيا توصيات الموجهين العاطفيين والعائليين . ومع ان النساء لا يقدمن بشكل عام على افعال عدائية تضاهي اعمال العنف والقهر التي يقترفها الرجال بحقهن ، فان الحقد الانثوي يتجلى في صراعات حادة تأخذ عادة شكل مباراة ، او موقف طقوسي ، يقف عند القشرة ولا يصل الى اللب . والى جانب هذا العداء الثأري اللاشعوري، ثمة تمرد انثوي ، اكثر تنظيما ووضوحا ، يعرف الرجل بأنه خصم لا بد من التصدي له ، او من الحاق الهزيمة به في بعض الاحيان في مجاله الخاص بالذات. وبقدر ما تتوقع مثل هذه الحركات ان يقدم الرجال على اعتاق المراة طوعا، او ترغمهم على هذه الخطوة قسرا، فانها تبقي على عجلة العداء والتطاحن بين الجنسين دائرة .

لن تكون هنالك ثورة ما لم نصحح نظرتنا للامور التي زيفتها

افكارنا المسبقة حول الانوثة ، والحياة الجنسية ، والحب ، والمجتمع . فمن المفروض الا تظل الجنسية SEXUALITE تمثل علاقة سيد بعبد ، علاقة رجل فاعل بامراة منفعلة ، وانما ان تتحول الى اتصال بين شخصين متساويين في ديناميتهما وحسن استعدادهما . لقد كان من الطبيعي ان يعارض الرجال انعتاق النساء لان هذا الانعتاق يهدد اسس النرجسية الفالوسية (١) . لكن ثمة دلائل تلوح في الافق وتشير الى رغبة الرجل ذاته في الاضطلاع بدور ابعث على الرضى . ان النساء بتحررهن يحررن مضطهديهن ايضا . وان للرجال ، باعتبارهم اصحاب الطاقة الجنسية وحماة النساء والاطفال ، اسبابا تحملهم على الاعتقاد بانهم حققوا المستحيل ،ولا سيما في ايامنا هذه حيث ابتدعت عبقريتهم الخلاّقة ، وانما الضالة ، السلاح النووي . وقد دللوا ، عندما وافقوا على اقتحام المراة مجالات كانت فيما مضى وقفا عليهم ، على استعدادهم لتقاسم مسؤولياتهم مع النساء، وان لم يقابل عرضهم بالموافقة والترحاب. ولئن لم تبد النساء عن حماسة تذكر في تلبية دعوة الرجال الى مشاطرتهم عبء الورطة التي تسببوا في خلقها ، فليس في ذلك ما يدعو الى الاستغراب . واذا ما ادركت النساء ان الحضارة لن ترتقي الى حد الكمال ما لم تشارك فيها المراة بحصة كاملة، فقد ينظرن عندئذ الى المستقبل بمزيد من التفاؤل. وربما تكون الازمة الروحية التي نجتازها ضربا من آلام النمو .

لا يقترح الفصل المكرس للثورة سوى صورة اولية عنها ، مؤكدا على واجب النساء في رفض الالتزام بالعلاقات التي يقرها المجتمع ويكرسها ، وعلى حقهن المطلق في فسخ مثل هذه العلاقات اذا ما سبق لهن ان ارتبطن بها دون ان يجدن فيها المتعة والرضى . ويتعين على النساء في كل الاحوال ان يكن قادرات

---

(١) نسبة الى فالوس وهو عضو الذكورة عند الاغريق . (م) .

على تأمين سبل عيشهن ، وان يمتنعن عن علاقات التبعية وغيرها من اشكال التعايش العصابي . وقد يعتبر بعضهم المبادرات التي دعوت اليها ضربا من اللامسؤولية ، بيد انها لا تعدو كونها في نظري مجازفة صغرى في صراع يتمحور الرهان فيه حول الحق في الوجود والحرية ، صراع لن تخوض المراة غماره ما لم تسترد اولا رغبتها في الحياة . فقبل مئة عام تقريبا تساءلت نورا في **بيت الدمية** ، موجهة كلامها الى هلمير ، حول اكثر واجباتها قدسية. فاجابها هذا الاخير ان على راس واجباتها المقدسة يأتي واجبها نحو زوجها واولادها . لكن نورا اجابته قائلة :

« عليّ واجب آخر ، لا يقل قدسية . . انه واجبي ازاء نفسي. فانا قبل اي شيء آخر كائن بشري ، شانك انت تماما . . . او بودي على الاقل ان اسعى الى ان اصبح كذلك . اعلم جيدا ان معظم الناس يؤيدونك يا تورفالد ، وان ما جاء في الكتب يدعم اقوالك . لكن لم اعد قادرة على الاكتفاء بما يقال وبما يكتب. اشعر بحاجة الى التفكير شخصيا كيما ارى الامور بمزيد من الوضوح » (٢) .

ان مجتمعنا لا يعترف الا بالعلاقات القسرية ،التعايشية، المحددة اقتصاديا . واكثر العلاقات عفوية وعطاء وحنانا **تنحط** الى مستوى المواضعات متى ما حاولت ان تتكيء على الدعائم التقليدية ، كالشرعية ، والاستقرار ، والاستمرار . ان الزواج ليس مهنة اجتماعية . ولا يجوز ان يكون وضع المراة في **المجتمع** تابعا لقدرتها على اغواء الرجل ، وعلى الايقاع به . وعندما تدرك المراة انها مقيدة بألف قيد متناه في الصغر ، وانه حكم عليها بالعجز والحقد تحت قناع من الصفاء والحب ، فانها لن تجد ، اذا ما رفضت الانحراف او الهلاك ، من خيار سوى الهرب . صحيح ان الحرية توحي بالخوف ، لكنها تحفز

---

(٢) ابسن ، بيت الدمية ، الفصل الثالث .

ايضـا على العمل . ولا ريب في ان الحياة ليست لا اسهـل ولا امتع بالنسبة الى اتراب نورا ، اللواتي اخترن السير وحيـدات على درب الوعي والصحـو الفكري . لكنهـا بالمقابل اكثر اثـارة للاهتمـام ، بـل اعظـم نبـلا ايضا . وقد يقول قائل ان في مثل هذا الكلام تشجيعـا على اللامسؤوليـة . والحال ان المراة التي تقبل بنمط حياة لـم تختره عن وعي ، وانمـا تحت ضغـط مجموعة من الظروف يطلق عليهـا تجاوزا اسم القدر ، هي التي تدل فعـلا على موقف غير مسؤول . فالتخلـي عـن المحاكمـة الشخصية ، والسكـوت على الجرائم المقترفـة بحق البشريـة، وتسليـم الامور باستمرار الى الآخـر ، الى الاب ، الى رئيس الدولة ، هي اللامسؤوليـة بعينهـا . ان الاضطهاد لا يولـد الشعـور بالمسؤوليـة ، وانما الشعور بالذنب .

على المراة الثوريـة ان تعرف كيف تحدد خصومها :الاطباء، واطباء الامراض النفسية ، والمساعِفات الاجتماعيات ، والكهنة ، وموجهي العلاقات الزوجية ، والشرطـة ، والقضـاة ، ودعـاة الاصلاح الهادىء الرزين ، وسائر الاشخـاص المستبديـن والدوغمائيين الذيـن يحاصرونهـا بنصائحهم وتحذيراتهم . كما انه يتعيـن عليهـا تحديد هوية صديقاتهـا ، وشقيقاتها ، وان تكتشف قريناتهـا من بينهـن . فمعهن تستطيع أن تتعلـم التعاون ، والمودة ، والحب .

ان المراة ، بانفصالهـا عـن التقاليـد والمأثورات ، تسلك دربـا مجهولا . ولا يسعنـا منذ الآن معرفة اي شيء عن السلوك الجنسـي للمراة غيـر المخصيـة . ومهمـا نظرنا الى بعيد عجزنا عـن تحديـد مـا سترغب فيه بعـد ان تستكمل تطورهـا . لهذا السبب يستحيل علينـا تحديـد استراتيجيـة نهائية . وحسب الواحدة منـا فـي الوقت الحاضر ان تكون حرة ، وان ننطلق في مسيرتنا ، وان نبحث عـن رفيقات لدربنـا . واول نشاط تمارسه المراة الحرة هـو ابتكـار شكل ثورتهـا الفردية،

الشكل القمين بالتعبير على النحو الامثل عن استقلالها الخاص وعن اصالتها . وبقدر ما تعي المراة الاساليب المتبعة في اضطهادها ، تغدو قادرة على تحديد ردة فعلها تحديدا سليما . وليس من بديل عن المواجهة في الصراع من اجل اكتساب الوعي السياسي . وبديهي ان ثمة متسعا في المجال هنا لخداع النساء باشكال جديدة من الدعوة الى نكران الذات ، ولايقاظ رغبات فيهن مآلها الى الخيبة . لقد سئمت النساء من المعاكسات والضغوط . وقد عانين من التسيير والتوجيه الى حد اصبحن معه مضطرات الى الاعتراف ، شانهن في ذلك شأن الرجال ، بانهن قد ضللن طريقهن وفقدن القدرة على تحديد وجهتهن . وقد تسعى نخبة نسوية الى تعبئة بعض الساذجات من النساء في مشروع كيفي ، محولة اياهن الى فرق انتحارية في معركة مبهمة النتائج ، معركة لا ينبغي ان تخاض اساسا . وحتى لو دارت معركة مواجهة مخطط لها، فان النساء سيخسرنها ، لان ليس الافضل هو الذي يربح عادة . ولا تضمحل نتائج العمل النضالي بمجرد ان يغدو هذا النضال غير ضروري . وان الحرية لسريعة العطب ولا بد من تامين الحماية لها . والتضحية بها ، وان بصورة مؤقتة ، تعني خيانتها . وليس المطلوب ان نقول للنساء ما ينبغي عليهن ان يفعلنه او ان يردنه . بل وضعت هذا الكتاب بأمل ان تكتشف النساء ان لهن ارادة . فبعد ذلك فحسب يستطعن الافصاح عن رغباتهن وعن الطرق التي ينتوين اتباعها لتحقيق هذه الرغبات .

ان الحرية تخيفنا . اننا نسميها سديما او فوضى ، ولهاتين الكلمتين وقع مخيف . والحال اننا نعيش منذ الآن في سديم من السلطات المتناقضة والمتعارضة ، في عصر من الامتثالية بلا تضافر ، ومن التلاصق بلا تواصل . لو كان السديم شرا مجهولا لجاز لنا ارتهابه ، لكننا في الواقع

عرفناه والفناه . ومن غير المتوقع ان تؤدي طرق التحرر، التي ستتبناها النساء بشكل عفوي ، الى نزاعات تضاهي في عنفها وحدتها تلك التي تثيرها الانانية المادية او التعصب، ذلك ان النساء لن يحاولن الغاء جميع الانظمة لصالح نظامهن. ومهما تنوعت حلولهن واختلفت ، فانها لن تكون بالضرورة غير قابلة للتوافق مع غيرها لانها لن تكون استبدادية .

يطمح هذا الكتاب في ان يكون تحريضيا وفي ان يثير اعنف ردود الفعل في سائر الاوساط القادرة على التعبير عن ذاتها . ولا ريب في ان الاخلاقي التقليدي سيحتج على رفض الاسرة ، وعلى التنكر للامومة ، وعلى الايحاء بان النساء لم يفطرن بطبيعتهن على الزواج الاحادي. اما المحافظون فقد يدعون ان هذا الكتاب ، بسعيه الى تحطيم بنى الاستهلاك ـ الذي يعتمد اساسا على ربات البيوت ـ قد يتسبب في تفجير ازمة اقتصادية. وفي هذا الادعاء اعتراف بان اضطهاد المراة ضروري لتأمين حسن سير الاقتصاد ، وتلك هي اطروحتنا على وجه التحديد . واذا كان الانهيار هو الضريبة التي يتعين على نظامنا الاقتصادي الراهن تسديدها كيما يتمكن من سلوك درب التحول والتغيير ، فخير لهذا النظام ان ينهار بأسرع ما يمكن . فالمجتمع الذي يعلن ان كل عمل يستحق اجرا ثم يرفض تسديد اي أجر على الاطلاق لزهاء تسعة عشر مليونا وخمسمئة الف شغيلة من شغيلته، هو مجتمع عاجز عن البقاء . وقد يزعم تلامذة فرويد اني تبنيت موقفا ميتافيزيقيا اذ طعنت بالوصف التقليدي للنفس الانثوية واستبدلته بتصور للمراة لا وجود له في الواقع. والحال ان مذهبهم هو الآخر ميتافيزيقي . وقد يأخذ علي انصار الاصلاح تحقيري لصورة الانوثة بمناداتي بسلوك خارج عن القانون ، الامر الذي من شأنه تعميق الهوة التي تفصل بين النساء وممارسة السلطة . غير ان مراكز السلطة

في ملكوت العقول الالكترونية ما هي الا عروش خاوية . مع ذلك فـان هذا الكتاب لا يحرّم استخدام الآلة السياسية بشرط عدم المغالاة في عقـد الآمال عليهـا . ولا ريب في ان اعنف الانتقادات واقساهـا ستأتي من شقيقاتي اليساريات اللواتي سيهاجمنني لانني قلت باحتمال تفادي طريق الثورة ، والوصول الى الحريـة والاشتراكيـة بدون استراتيجيـة ثوريـة وانضباطية حزبية.
لكن اذا كانت النساء يمثلن البروليتاريـا الحقيقية ـ الغالبيـة المضطهَدة الفعليـة ـ فانهـن لا يستطعـن التعجيل في تفجيـر الثورة الا برفضهـن الاستمرار في دعـم النظام الراسمالي . والسلاح الذي اقترحته عليهـن هو الاكثر تقديرا من قبل العمال، سلاح الانقطاع عـن العمل . مـع اني لا اعتبر ان المصنع هو قلب حضارتنـا ، ولا ان عودة المراة الى الصناعة هي شرط ضروري لتحررهـا . فما لـم تتبدل مفاهيم العمل والاجـر والتعويض تبدلا تامـا ، فان النسـاء سيواظبن على تقديم يد عاملة رخيصة، بـل مجانيـة لصالح ازواج ابرموا معهن على مدى الحياة عقدا حرّرت بنوده وفق مصالحهم .

ان هذا الكتاب لا يعـدو كونه مساهمة ، بيـن جملـة مـن المساهمات ، في قضية تحرر المراة . انـه لا يجيب عن الاسئلة التي تطرحهـا المراة الحائرة امـام العالم ، بل ربمـا يصوغهـا على نحـو اوضح ممـا صيغت به حتى الآن . وان لم ينل نصيبه من التعليقات الساخرة او المجرّحة ، يكـن قـد اخطأ هدفه . وان لم يثر صيحات الاستنكـار المستهجنة من قبل اللواتي عرفن كيف يستغلِـنّ وضعهـن كطفيليات ، يكـن غير ذي قيمة . فالوضع الذي يقبلـن به وضع لا يطاق بالنسبة الى امراة تشعـر بكرامتها وعزة نفسهـا . لقـد ادعى اعداء حق المـراة في الانتخاب ان التحرر سيقـود الى انحلال الزواج ، والاخلاق ، والدولة . وقـد اتسمت ردة فعلهـم ببعـد نظـر وبصيـرة افتقـر اليهمـا التعاطف الضبابي والملتبس لليبراليين والمفكرين الانساني النزعـة

الذين ذهبوا الى الاعتقاد بانه يمكن منح المراة بعض الحريات دون اثارة بلبلة او دون احداث اي انقلاب في نظام الاشياء. ويوم سنحصد ما زرعته المستنخبات بدون علمهن ، فسندرك ان اعداء تحرر المراة كانوا ، في التحليل الاخير ، على صواب .

الجــزء الاول

الجسد

الفصل الاول

النـــــوع

صحيح ان جنس الفرد منقوش في كل خلية من خلايـــا ـ مه. لكننا نجهل تأثير تمايز الخلايا هذا في اداء الاعضـــاء او طائفها. بل لا نستطيع حتى ان نستنتج منه وجود تمايز هـــام على صعيد الانسجة . ان كل اطروحة عن تفوق احد الجنسيـــن او دونيته تصاغ على هذا الاساس، تظل مفتقرة الى الدليـــل والاثبات . ربما عندما سنعرف كيف نفسر تماما دور الخليـــة الاساسية A.D.N (١)، يصبح في مقدورنا تحديد الطبائـــع الوراثية المشتركة لسائر الافراد المنتمين الى الجنـــس الانثـــوي. لكن حتى في هذه الحال لن يكون من السهل الانتقال من المعطيات البيولوجية الى انعكاساتها على السلوك . ان القطبية الجنسيـــة،

---

(١) الاحرف الاولـى من الحامض الاساسي الذي يدخل في تركيب كل خليـة، ويعرف بالانكيزيـة بـ .D.N.A واسمه الكامل بالفرنسية Acide Désoxyrib - Nucléique . «م».

منظورا اليها باعتبارها انقساما ثنائيا معمما في الطبيعة ، تشكل مبدأ اساسيا من مبادىء ايديولوجيتنا. والواقع ان هذا المبدأ، الذي انزل منزلة اليقين، لا يجد ما يبرره، فالحيوانات والنباتات لا تنقسم جميعها الى جنسين، حتى ولو وجدت بينها اشكال مضللة او انماط لامتحددة . فهنالك اجناس محظوظة يؤدي افرادها على التوالي دور الذكر والانثى . كما ان لبعض الفطريات والبرزويات (٢) اكثر من شقين أو جنسين واكثر من طريقة للمزاوجة بينها. ويتراوح التفاوت بين الجنسين من التفصيل الدقيق الذي يكاد لا يقع تحت الادراك الحسي الى التباين الجذري الذي اوقع العلماء في الضلال لفترة طويلة من الزمن فجعلهم يصنفون ضمن صنفين مختلفين الذكر والانثى اللذين من نوع واحد . وقد اكد العلماء الانتروبولوجيون النازيون ان السمات الجنسية الثانوية اكثر نموا عند الاجناس العليا، مع الاشارة الى ان هذه السمات اقل تحديدا ووضوحا عند الزنوج والآسيويين منها عند الآريين (٣).

والواقع ان هنالك الكثير من الكائنات او الاجسام البسيطة التكوين التي تتميز جنسيا على نحو اكثر بروزا ووضوحا من الكائنات البشرية. ومع ذلك فان الاختلاف الجنسي عند الكائنات البشرية يبرر ويغالي فيه . فلماذا ؟

نستطيع ان نلاحظ التمايز الجنسي الاساسي للكائنات

---

(٢) حيوانات احادية الخلية . (م) .

(٣) لقد استقينا الامثلة عن الاحكام الانتروبولوجية والاثنولوجية المسبقة من دراسة هـ.هـ. بلوس وب . بارتلز التي تقع في ثلاثة اجزاء . وقد اتلفت الطبعة الالمانية لهذه الدراسة بامر من هتلر ، لكن البروفسور اريك دينغويل كان قد ترجم الدراسة المذكورة قبل ذلك الى الانكليزية فصدرت عام ١٩٣٥ في لندن تحت عنوان «المرأة» . وعندما نستشهد بيلوس وبارتلز فانما نقصد هذه الدراسة بالذات .

البشرية عندما تكبر خلية من الخلايا الفي مرة تقريبا بحيث نتمكن من فحص الصبغيات . فالخلية الذكرية تحتوي ، الى جانب الصبغيات السبع والاربعين من النمط الشائع، على صبغية متناهية في الصغر يشار اليها بحرف ع. انها ليست بصبغية جنسية، وهي تطرح مشكلات خاصة بسبب انعزالها .

«لما كان التحقق من التحولات التي تطرأ على الصبغية في تركيبات شتى مشروطا بتوزعها الحر عن طريق التصالب، Crossing over ، فان الغاء التصالب يمنع حصول اي تحول في الصبغية ع المطلوب دراستها. ولان التصالب لم يحصل، فان هذه الصبغية لا تتعرض لاي تغيير بنيوي عن طريق تبادل في عناصرها. لذلك تفقد الصبغية ع خلال مسارها كل فعالية في تحديد الجنس وتحل مكانها صبغيات متجانسة Autosomes تتفاعل مع س» (٤) .

والصبغيات المتجانسة تختلف عن الصبغيات س و ع، وعددها ثلاثة وعشرون زوجا. ويتحدد الجنس الانثوي بوجود زوج من الصبغيات المتماثلة في المظهر والمشار اليها بحرفي س. س. اما الرجل فانه الى جانب صبغياته المتماثلة التي يقدر عددها بثلاثة وعشرين زوجا، يملك صبغية غير متماثلة مؤلفة من (س) و (ع). وللصبغية ع وظيفة سلبية. وعندما يخصب حوين منوي حامل لصبغية ع البُيَيضة ، فانه يضعف السمات المميزة التي تؤدي الى تكوين جنين انثوي . ويرث الجنين الذكري عددا من مظاهر الضعف المرتبطة بالجنس لانها تنجم عن جينات غير موجودة في الصبغية ع. ومن هذه التشوهات الغريبة النمو المفرط في الجهاز الشعري، ولا سيما على الاذنين، والجسآت على اليدين والقدمين ، والاستسماك (٥)، وهو ضرب

٤) ف.ا. كرو : تحديد الجنس ، لندن ١٩٥٤ ، ص ٥٤ .

(٥) الاستسماك او السماك ichtyose : مرض جلدي تتقشر فيه البشرة باستمرار . «م» .

آخـر من امراض الجلد، والاقدام الراحية، وكلها تشوهـات وراثيـة مثلهـا مثل داء النعورية (٦) وان لم تكن معروفة مثلـه. وينجم الداء الاخير عن وجود جينة نقالة في الصبغية س تعجـز الصبغية ع عن ابطال مفعولها، الامر الذي يؤدي الى انتقال الـداء عن طريق النساء وان كانت فعاليته لا تتجلى الا عند الرجـل. وتخضع الدلتونية (اي عمى الالوان) للمبدأ نفسه . وهنالك زهـاء ثلاثين علة اخرى تصيب الرجال ولا تظهر الا نادرا عند النسـاء. وقد اتضح بما لا يقبل الجدل ان بنية المرأة اقوى من بنية الرجل. فهي تعمر اكثر منه، وفي جميع فئات الاعمار تكون نسبة وفيات الرجال اعلى من نسبة وفيات النساء، اما بالنسبة الى الولادات فانه يولد من الصبية اكثر مما يولد من الفتيات بنسبة ١٠ الـى ٣٠ بالمئة، علما بان عدد الحوينات المنويـة الذكوريـة والانثويـة متساو تماما . لذلك ينساق المرء الى التساؤل، في سعيه الـى تفسير هذا التفاوت، عما اذا كانت الطبيعة تحاول ان تعـوض بذلك عن وهن الافراد الذين ينتمون الى الجنس الذكري (٧) .

وقد توصل مؤخرا علماء بالاجرام الى ملاحظة مبلبلـة للافكار بصدد الصبغية ع. فقد اكتشفوا بين الرجال المحكوميـن بسبب جرائم عنف عددا من الافراد يحملون تركيبا من س ع ع ، اي صبغية ع اضافية، تبدو مرتبطة بضروب القصور العقلي.

ولا تنفرد الصبغيات في تحديد السمات الجنسية .صحيح ان الصبغيات هي عامل التمايز الاول، لكن نمـو السمـات الجسدية كافة يتم تحت تأثير مجمل النظام الافرازي للغـدد الصماء، وتفاعل الهورمونات فيما بينها. وقد وجه اهتمـام النساء الى الهورمونات بسبب استخدام الهورمونات المنتجـة اصطناعيا في تركيب حبوب منع الحمل. وكالعادة، ادى تعميم

«م»

(٦) او الهيموفيليا : داء النزف .

(٧) اشلي مونتاغو : تفوق النساء الطبيعي ، لندن ١٩٥٤، ص ٧٦ ــ ٨١ .

المعلومات والمعارف بصدد الهورمونات الى وصف تبسيطي للغاية لوظائفها. والواقع ان نشاط الهورمونات برمته لا يزال مجهولا الى حد كبير. وقد اضطر الاطباء الى الاعتراف بأنهم ، في تأثيرهم على التوازن الدقيق والمتبدل دائما للهورمونات النسوية، قد احدثوا تحورات غير متوقعة في وظائف غير جنسية وغير انسالية. ولئن كان يصعب علينا ادراك اوالية الجينات والصبغيات، على بساطتها نسبيا، فكم يتعذر علينا بالمقابل الاحاطة بالعمليات المتعلقة بكيمياء الهورمونات. ان الهورمون الذكوري، التستوسترون، يفعل فعله في نمو السمات الجنسية الذكورية، وهو مرتبط بالهرمون الذكوري الاخر، الاندروسترون، الذي ينشط نمو العضلات والعظام والامعاء. وافراز الاندروجينات والاوستروجينات (٨) يتم ضبطه بواسطة هورمون تفرزه الغدة النخامية. ويفرز الجنسان كلاهما الهورمونين كليهما. وكل ما نعرفه هو اننا عندما نعطي الاوستروجين للرجل فان سماته الجنسية الثانوية تضعف، وكذلك الامر عندما نعطي الاندروجين للمراة . وللافرازات جميعا مفاعيل متكاملة ومتداخلة، وتكشف الابحاث العلمية باستمرار عن مواد كيمياوية جديدة تحمل اسماء جديدة. ومع ان المراة ترغم، منعا للحمل، على تناول كميات هائلة من الهورمونات، فان الاخصائيين لا يزالون ينظرون الى هذه الاخيرة باحترام واندهاش. والبحث ما يزال مستمرا عن اقراص تمنع الحمل ولا تؤثر الا على وظيفة الانسال، ولن تشعر النساء بالطمانينة التامة ما لم يتم أكتشاف هذه الحبوب .

يتحدد جنس الطفل منذ لحظة الحمل به لان كل حوين منوي يحتوي على صبغية ع وصبغية س، في حين ان البُييضة

---

(٨) الاندروجين هورمون منشط للذكورة ، والاوستروجين هورمون منشط للانوثة . «م»

التي اكتمل نضوجها تحتوي على صبغية س فحسب. والصبغية المتخصصة هي التي تحدث الاختلاف الاساسي، لكن تطور السمات الجنسية يبقى مرهونا بالمواد الكيمياوية المتخصصة للصبغيات . ولا تظهر على الجنين، حتى الاسبوع السابع، دلائل تمايز جنسي. وعندما يبدأ النمو الجنسي فانه يحصل وفق تماثل مدهش بين الجنسين. فالبظر وراس القضيب يتشابهان كثيرا في البداية ، كما يبدو الاحليل (٩) وكأنه ثلم لدى الجنسين ويتولد عن التقبب التناسلي كيس الخصيتين عند الصبية والاشفار عند البنات. وعند فحص الانسجة يتضح انها مختلفة. ومع ذلك، فان بعض الانسجة عند المراة مماثلة لانسجة الرجل (١٠) .

ان الطبيعة ذاتها ملتبسة ، فقد يتفق ان يكون بظر الفتاة متطورا الى حد تعتبر معه صبيا. وبالمقابل فان الاعضاء التناسلية لصبيان ناقصي النمو قد تكون شائهة الشكل او متوارية ، فيعتبرون من البنات. وقد يقبل هؤلاء الافراد احيانا بالجنس الذي اسند اليهم، ويتبنون المواقف والمسالك المترتبة عليه، ويؤولون الصراعات الناجمة عن هذا الوضع على انها علائم شذوذ. وفي احيان اخرى تتولد ازمة، بفعل ضرب من الحدس الفطري، تستدعي اجراء فحص دقيق يعين جنس الطفل الفعلي. وقد يتفق ان تعتبر بعض البنات، خطأ، بلا جنس محدد لانهن بلا مهبل. كما قد تعد بعض النساء مفتقرات الى المبيضين لانهن يملكن التركيب س س ع. وفي بعض الاحيان تحل الجراحة هذه الاشكالات، لكن كثيرا ما يتدخل الجراحون لاعتبارات خاصة، حتى حيث لا يكشف فحص بنية الخلايا عن اي شذوذ خلقي. والحق ان الشذوذ الجنسي ينشأ في معظم الاحيان

---

(٩) مجرى البول . «م»

(١٠) غراي : التشريح ، لندن ١٩٥٨ ، ص ٢١٩ — ٢٢٠ .

عن عجز الفرد عن التكيف، مع دوره الجنسي، لذلك لا يجوز اعتباره تكوينيا او مرضيا في اصله. ولا يسمح مفهوم «الشذوذ» بحال من الاحوال للجنسي المثلي بالتعبير عن هذا الرفض، لذلك لا يسعه الا ان يعتبر نفسه مسخا. والحال ان الادوار الجنسية «الطبيعية» التي يلقنوننا اياها منذ طفولتنا ليست اكثر طبيعية من التصرفات الغريبة التي تصدر عن رجل يستطيب التنكر في ثياب امراة. أن الجنسين، في سعيهما الى التقيد بالصورة التي تقدم لهما على انها هي السوية والمطلوبة، يشوهان نفسيهما، ويبرران هذه السيرورة باسم التباين التكويني الجوهري بين الجنسين. لكن ثمة صبغية واحدة فقط تختلف من اساس ثمان واربعين. وعلى هذا الاساس وحده اقمنا تمييزا جذريا بين الرجل والمرأة، حتى لكأن الصبغيات الثماني والاربعين برمتها متباينة. فلنتفحص اذن باديء ذي بدء هذا التشويه المتعمد لجسمنا، وللصورة التي نكونها لانفسنا عنه، لان اجسامنا، ايا ما كنا أو مهما زعمنا اننا كائنون ،هي المحددة بكل تأكيد لهويتنا .

الفصل الثاني

الهيكل العظمي

الى اي حد يمكن للهيكل العظمي ان يكون جنسيا؟ فعندما يؤكد علماء الآثار على نحو قاطع ان قطعة عظم الفخذ التي بين ايديهم تأتي من الهيكل العظمي لامرأة في العشرين من العمر، فاننا نقف مذهولين امام ثقتهم بذاتهم وباقوالهم، ولا سيما ان فرضيتهم غير قابلة للتدقيق او الاثبات. انها تقوم على الاحكام الجنسية المسبقة لعلماء الآثار اكثر مما تقوم على اي اساس آخر. فالانطباع الذي يساورهم ازاء مشهد العظمة هو انها من نموذج نسوي، فيستنتجون من ذلك بانها ولا بد ان تكون عائدة الى هيكل عظمي انثوي. ويستحيل علينا في الواقع الا نتأثر بالنموذج المقولب للانوثة الخاص بمجتمعنا. وقد نجمت عن ذلك في الماضي كما تنجم عن ذلك اليوم، اغرب الاخطاء في تحديد هوية العظام الجنسية.

نميل الى الاعتقاد بصورة عامة بأن الهيكل العظمي صلب، لا يتبدل. فهو يبقى بعد زوال كل شيء، لذا ننقاد الى تصوره

وكأنه هيكل ثابت لا يتبدل، في حين ان عوامل عديدة تؤثر على شكله. والعامل الاول هو فعل العضلات . فبما ان الرجل اقوى من المراة، فان الميازيب العضلية تبدو اكثر تحديدا عنده. واذا ما تعرضت العضلات لضغط، نتيجة تضميد او شد خارجي مستمر، فقد ينجم عن ذلك تحول في تنظيم العظام وترتيبها . فجسم الرجل يتأثر بطبيعة العمل الذي يؤديه وبالنظام الغذائي الذي اتبعه اثناء مرحلة نموه. وكذلك الامر بالنسبة الى جسم المراة الذي يتأثر، علاوة على ذلك، بضغط نير الموضة والجاذبية الجنسية، والذي تبدل على نحو ملحوظ عبر القرون. فتارة كان يفترض في الكتفين ان تكونا مائلتين وطورا مربعتين، تارة منحنيتين الى الامام وطورا مندفعتين الى الوراء . وكانت الثياب والمشدات تتولى المحافظة على هذه الاوضاع الجسمية غير الطبيعية، وكان ضغط العضلات يخل بتوازن العظام الدقيق. اما العمود الفقري فقد كان يفترض فيه تارة ان ينثني الى الامام، ليقلد عارضات الازياء ومشيتهن، أو ان ياخذ طورا شكل حرف السين في اللاتينية S ، على نحو ما حدث في عصر الفن الجديد او النيو لوك (١) New Look . ويزيد الحذاء من حدة الضغط على الطبيعة وقسرها. فالكعب العالي الذي يفسد حركة عضلات الفخذين والحوض، اذ يعطي العمود الفقري شكل زاوية، لا يزال يعتبر في بعض الاوساط شرطا ضروريا للاناقة. وانا ما

---

(١) موضة روج لها الخياط الفرنسي الشهير كريستيان ديور في اواخر الحرب العالمية الثانية وعرفت عندنا باسم «موضة الطويل» . ويقال ان ديور صمم هذه الموضة بالاتفاق مع ملك النسيج الفرنسي انذاك ، بوساك، الذي كان يرغب في تشغيل مصانعه من جهة وتصريف فائض من انتاجه من جهة اخرى على حساب جيوب السيدات : فمع رواج موضة الطويل اضطرت النساء الى التخلي عن فساتينهن القديمة القصيرة، وشراء فساتين جديدة . (م) .

زلت اذكر كيف كانت جدتي تناشد امي ان تضع لي مشدا لانها كانت ترى ان مشيتي المخلعة وانا مراهقة تفتقر لكل جاذبية، ولانها كانت تخشى الا يحتمل ظهري عبء قوامي. ولو وضعت مشدا وانا في الثالثة عشرة فلربما نما قفص صدري على نحو مغاير. كما ان الضغط على حوضي من الاعلى الى الاسفل كان سيزيده عرضا. ان المشد القديم (المعروف باسم «كورسيه») قد فقد اليوم كل رصيد له، لكن العديد من النساء يرفضن بالمقابل التخلي عن المشد المطاطي الجديد الذي يمحو بروز البطن. وحتى الجوارب من نوع الكولان تلتصق بالجسم التصاقا، وقد تؤثر جسمانيا على من ترتديها.

من المتفق عليه بشكل عام ان التمرينات الرياضية التي يمارسها الطفل في مرحلة نموه تؤثر على نمو اطرافه. كانت امي تحاول ان تثنينا عن منافسة السابحات الاوستراليات بانتقادها عرض اكتافهن وضيق اوراكهن الناجمين في رايها عن تدريبهن الشديد والقاسي. ويجمع الناس على الاعتقاد بانه لا بد من تنشئة البنات الصغيرات تنشئة بدنية مختلفة عن تربية الصبيان دون ان يتساءلوا عن مدى اعتماد هذه القناعة على معيار جسدي جزافي. والحكم المسبق عينه هو الذي يحدد فرضياتنا بصدد السمات الجنسية للهيكل العظمي. فاليد الصغيرة والقدم الصغيرة تعتبران انثويتين، علما بان حالات عدم التناسب موجودة عند الجنسين.

يتعلم طلاب الطب التشريح على نماذج ذكورية، اللهم الا عندما ينكبون على دراسة الوظائف التناسلية. ويقال لهم ان هيكل المراة العظمي هو بوجه عام اخف واصغر، وان عظامه اكثر طفولية، وهذه صفة تعمم في كثير من الاحيان على جسم المراة برمته، اذ يقال عنه انه طفلي الشكل في حين ان جسم الرجل شيخي الشكل . هذا لا يعني نقصا او قصورا في النمو الانثوي، بل مزيدا من اللدانة والقدرة على التكيف ولا يسعنا ان نستنتج

اي شيء من ذلك بصدد قوة المراة البدنية او طاقاتها العقلية(٢).

لكن لا يجوز المبالغة في هذا التباين، فهنالك سلم واسع من التنوعات التي لا يسمح لنا اي واحد منها باستنتاج وجود قصور وظيفي. لكن الحاجة الى تبرير التفاوت الاجتماعي بين الرجل والمراة قادتنا، لا الى تضخيم التفاوتات القائمة فحسب، وانما ايضا الى ابتداع نقاط اختلاف وهمية، كالضلع الاضافي الذي لا يزال بعضهم يؤكد وجوده عند المراة. وثمة من يعتقد، على سبيل المثال، ان حوض المراة، حيث يبرز التفاوت بين عظام الجنسين الى اقصى حد، يختلف اختلافا جذريا عن حوض الرجل، في حين ان البنية الاساسية واحدة في الواقع وان التمايز يكمن في النسب وفي زاوية الميل (٣). ان للنساء اللواتي يعشن في رخاء وخمول حوضا اوسع من حوض اللواتي يكددن في عملهن ويعانين من سوء التغذية. وفي هذه الحالة نجد انفسنا امام تمايز جنسي عززته عوامل غير بيولوجية، وبالتحديد اجتماعية. اما الاعتقاد السائد بأن الاحواض الضيقة لا تتلاءم مع الوظيفة الانسالية فعار من الصحة. فالاتساع الزائد للحوض قد يعطل عمل الاعضاء في حدود مماثلة. لكن عامة الناس لا يبتون في هوية الجنس على طريقة علماء الاثار. فعندما تكون الاعضاء الجنسية مستورة، فان جنس الفرد لا ينكشف الا من خلال السمات الظاهرية، الخارجية. وستقتطع مفاتن الانوثة بدورها ضريبتها من هيكل عظمي منكل به ومفترى عليه، فتبرزه تارة وتخفيه طورا، كاشفة عن قساوته المقرّنة او مغرقة اياها في بحر من اللحم الرجراج. لكن هل تستحق هذه العظام ان نقف عندها طويلا ؟

---

(٢) لقد وجد على الدوام من ينوه بشكل المراة الطفلي، فقد ذكر ذلك بيشا على سبيل المثال في كتابه «التشريح العام»، وكذلك بلوس وبارتلز. لكنهم قليلون جدا الذين رجحوا ان يكون ذلك ميزة ايجابية كما فعل و. ي. توماس مثلا في كتابه «الجنس والمجتمع»، لندن ١٩٠٧، ص ١٨، ٥١، واشلي مونتاغو في «تفوق النساء الطبيعي».

(٣) انظر كتاب غراي، التشريح، ص ٤٠٢ — ٤٠٧.

الفصل الثالث

التكورات

عندما يبغي النديم في سهرة او حفلة سمر الاشارة الى امراة جميلة، تراه يموج يديه الاثنتين ويرفق هذه الحركة بغمزة متواطئة من عينه. ولشد ما ارتبطت فكرة التكورات بالرمزية الجنسية، بحيث غدا بعض الناس عاجزين عن امساك ضحكتهم الفاجرة كلما شاهدوا شكلا مدورا حتى ولو كان اشارة من اشارات المرور. وعلى الرغم من مقتضيات صناعة الالبسة، فان الصورة الاكثر رواجا عن المراة لا تزال صورة مخلوقة ناهدة الثديين، بارزة الردفين.

يميل الناس طوعا الى الاعتقاد ان الجسم الانثوي محاط بطبقة عازلة من الشحم تجعل مداعبته امتع بكثير. صحيح ان النساء يرتدين ثيابا اخف وارق من ثياب الرجال، لكن من الصعب الجزم في ما اذا كانت الطبقة الشحمية ناتجة عن استجابة طبيعية تهدف الى حماية المناطق المعرضة للخطر في جسمهن ام عن غزو يشبه غزو الطفيليات. وانه لمن المؤكد ان

العادة التي درج عليها الرجال في تغطية الجزء الاسفل من جسمهم بثياب طويلة قد ادت الى ذبول في الانسجة، وهو ذبول يمكن ملاحظته على الشواطىء البريطانية حيث يعرض الرجال سيقانا اشبه ما تكون بقوائم الدجاج (١) . ان للرجال ايضا طبقة شحمية تحت الجلد، لكن هذه الطبقة تنمو عند النساء في مواضع معينة من جسمهن. هذا لا يعني ان النساء هن بالضرورة اكثر بدانة من الرجال. غير اننا نلاحظ في الواقع، على مدى التاريخ، ان الكسالى والبلداء من الاشخاص المحكوم عليهم بان يعيشوا حياة بطالة وخمول يزدادون سمنة وبدانة. والمعروف عن الخصيان انهم كانوا يسمنون كالثيران. لذا يجب الا نستغرب ان كان الرجال لا يزالون يميلون الى النساء المكتنزات الاجسام(٢).

ان النهدين هما اكثر التكورات نيلا للاستحسان . والغدة التي منها يتكونان عبارة عن جسم محدب الشكل يمتد من الضلع الثاني الى الضلع السادس. اما الشحم الذي يتراكم من حولها ويحدث الثلم الفاصل بين الثديين فهو لا يشكل خاصية جنسية. واذا كان لامراة بعينها صدر نام دون ان تكون لديها طبقة شحمية نامية في اجزاء اخرى من جسمها، فان مرد هذه الظاهرة في العادة الى اضطراب في افراز الغدد الصم. والواقع ان الاهتمام الفائق الذي يحظى به الثديان، والغموض السائد بصدد ما يرتقبه منهما الصنميون الجنسيون، يوقعان النساء في قلق وحيرة سخيفين . فثديهن لا يحظى باستحسانهن في حال من الاحوال. فهو تارة اصغر مما ينبغي وطورا اكبر، تارة غير مطابق المقاييس المنشودة، وطورا متهدل ورخو. علما بانه يستحيل

---

(١) خير وصف للتفاعل بين الجسم والصورة عن الذات والالبسة، وكذلك لانزياح المناطق الشهوية ومواضع تمركز الشحم، نلقاه في كتاب د. بروبي - جوهانسن : الجسم والثياب، لندن ١٩٦٩ .

(٢) صوفي لازارسفلد : ايقاع الحياة، لندن، ١٩٣٤، ص ١٥٨ .

على اي ثدي ان يأتي مطابقا للنموذج المقولب لان هـذا القالب بعيد كل البعد عن الواقع. ومع ذلك يتعين على النساء تقليده بشكل او بآخر سواء اكان ثديهن عظيم النمو ام على العكس بالغ الضمور .

ان الثديين الناهدين اشبه ما يكونان عمليا بحجر رحى تحمله المراة حول جيدها. فهما مثار لشهوة الرجال ما داما لا يذكرانهم بوظيفتهما الاساسية، اي الارضاع . ولكن ما ان يذبلان، او يرتخيان، او يجفان، حتى يغدوا موضع نفورهم. انهما لا يشكلان جزءا من كيان المراة، بل ضربا من زينة قدرها ان تعجن كمعجون سحري او ان تتذوق بتلذذ كقطعة البوظة. وطريق المراة الوحيد للحؤول دون سوء الاستغلال هذا ان ترفض لبس «السوتيان» الذي يديم وهم الثدي المطاطي، وذلك كي ترغم الرجل على ان يعي الواقع. اما الاهتمام الذي باتت تحظى به مؤخرا الحلمة التي لم يكن لها من وجود من قبل في الادب الاباحي الشائع، فهو يأتي في مصلحتها، لان الحلمة معبرة وحساسة. وبفضل التقدم ـ الوئيد ـ الذي حققه انعتاق المراة، تحررت بعض الصدور من درعها التقليدي المصنوع من المطاط والاسلاك. اما الخطوة الجديدة في هذا الاتجاه فتتلخص في تذكير الرجال بأن لهم هم ايضا حلمات حساسة .

ان المنحنى الثاني في تلك المراة، التي تشبه الساعة الرملية، هو الخصر. فهو يخضع للشد والضغط كيما يزيد في بروز تكورات الثديين والردفين. وقد اضطرت النساء، كلما اقتضت الموضة ذلك، الى حمل مشدات قوية اشبه ما تكون بتلك الحلقات النحاسية التي تضعها نساء قبائل البانتو حول اعناقهن والتي تؤدي، مع الايام، الى اطالة العنق. وكانت الغاويات من نساء المجتمع في القرن التاسع عشر يغلون في الشطط الى حد اجراء عملية جراحية لاستئصال ضلوعهن السفلى كيما يتمكن من ربط مشداتهن على نحو اوثق. وفي احدى قبائل غينيا ـ الجديدة

يشد الرجال، اسوة بالنساء، قدودهم بأحزمة قاسية تجعل اللحم ينفر من طرفي الحزام، وهكذا تغدو قامة الرجال ايضا شبيهة بشكل الساعة الرملية. واذا اخذنا بعين الاعتبار المشدات التي فرضت على O (قصة o) (٣) أدركنا ان دقة الخصر ونحوله يضفيان على الجسم الانثوي ظاهرا من الهشاشة ورخاصة عود يدغدغ مخيلة الساديين .

ان صنمية الردفين نادرة في الواقع في مجتمعنا وان كان كينيث تينان قد خصها، قبل فترة ليست ببعيدة ، بمقال نشره في احدى المجلات ودلل فيه على انه ضليع في هذا الامر (٤). والمنشورات الخلاعية المبتذلة لا تزال تتضمن دعايات لمشدات مطاطية محشوة، لكن الارداف الضخمة والمرتعشة التي كانت تمارس جذبا قويا على اجدادنا غدت بالاجمال محاطة بالعار والشنار. فقد بات الرجال يفضلون الارداف الصبيانية المشدودة في البنطال الضيق . ولئن كانت النساء يتحفظن بشكل عام في الكشف عن مؤخراتهن، ويعمدن الى سترها بثياب مناسبة، فكي لا يفضحن بدانتها .

تختلف الاذواق الجنسية من طبقة اجتماعية الى اخرى. فالعمال لايزالون يحبذون السمنة عند المراة، في حين ان الطبقات الوسطى، التي تدعي الاناقة، تشيد بالنحافة، بل بالضمور. ومهما يكن من امر، فان المراة تجد نفسها على الدوام مدعوة الى تطويع شكلها بحسب اذواق الرجال. وهي تعاني، من جراء ذلك، من القلق والاضطراب، كما انها تجد نفسها مشغولة البال باستمرار بسبب مقاييسها. فقد تضطر اضعف النساء واكثرهن

---

(٣) رواية ايروسية حديثة للكاتبة الفرنسية بولين رياج بطلتها ، O ، امراة مازوخية استعبدها الحب . «م» .

(٤) كينيث تينان : «الفتاة التي ادارت قفاها»، مجلة «مايفير»، السنة٤، العدد ٣ ، اذار ١٩٦٩ .

نحولا الى ان تفرض الحمية على نفسها خشية ان تصبح بدينة، او قد تنغص حياتها لانها ضعيفة اكثر من اللزوم ومفتقرة الى التكورات في الامكنة المناسبة . بالمقابل فان المراة الممتلئة تبذل جهدها كيما تنحف، وتستعين الاثنتان بعقاقير، خطيرة بقدر او بآخر، بغية الدنو من مثل اعلى يستحيل بلوغه. انهما ، في كلتا الحالتين، تحاولان ارضاء المستهلك حسب الطلب . وقد يكون الزوج اصعب زبون، اذ انه لن يرغب في زوجته ولن يوافق على الخروج معها ان لم تكن مطابقة للصورة الرائجة عن الانوثة.

والواقع ان لكل جسم بشري وزنا امثل وهيئة خاصة به، ومقياس الوزن السليم هو الصحة والحيوية . وكل مرة نختزل فيها الجسم الانثوي الى موضوع جمالي، وظيفته الاولى والاخيرة انتزاع الاعجاب، نكون قد تعدينا عليه وعلى توازن المراة النفسي.

الفصــــل الرابــع

الشعــــــر

ان التلميذ الذي بعث برسالة الى احدى الصحف التــــي تصدر يوم الاحــد وتساءل فيهـا عن الاسباب التي حدت بمديـر مدرسته الى ان يقيم الدنيـا ويقعدهـا لانه ، اي التلميذ ، امتنع عــن قص شعره وتركه يتهدل على كتفيه ، لم يكـــن في رايي صادقـا ولا مستقميـا . فعندمـا ارسل رجال جيلنـا شعـور رؤوسهم ، لم يفعلوا ذلـك مصادفة ودون مبرر كما ادعوا ذلـك فيمـا بعد . فقـد كـان شعرهم الطويل يرمز الى رفضهم اخلاق البيروقراطيين القصيري الشعور الذيـن انجبوهم . بيـد انهـم بتصرفهم هذا اسقطوا عـن الشعـر مدلوله الجنسي . وكشفوا بذلك زيف الادعاء القائل ان الشعـر الانثوي اكثر كثافـة من شعر الرجل وانه ينمـو بسرعـة اكبر . وقـــد نعت ذوو الشعـور الطويلة بالمنحرفيـن والشاذيـن جنسيا . وقـد اضطرت النساء الى اللجـوء الى « البرّوكـة » والشعـر المستعار لاعادة التوازن المفقود . لكنهن اذ عمدن الى التزين بالشعور والاهداب المستعارة

حرصن مـــن جهة اخرى على ازالة الشعــر كليــا من آباطهـــن واطرافهـــن . ومع قدوم الصيف راح اولئك الشاذون الجنسيون المزعومون يتبخترون في الحدائق العامة بثيابهم الداخلية، فلاحظ الناس قلة الشعر في صدورهم واذرعهم . وبدلا من أن يستنتجوا من ذلــك ان غزارة الشعـــر في الصدر ليست بحد ذاتهـا دليل رجولة ، رأوا بالعكس في هذه الظاهـــرة مــــا يؤكـــد انحــــلال اصحاب الشعـــور الطويلة . افلم يشكك ادموند ويلسون مؤخرا برجولة ارنست همنفواي مدعيــا بأنه كــان يضع شعرا مستعارا ؟

والواقع ان الجهاز الشعري ليس واحدا لدى الرجال كافة، فهـــو لدى بعضهم نـــام اكثـــر مما لدى بعضهم الآخر . وهــــو يختلف باختلاف الاجناس والاعراق . فجسم الزنجي يكــاد ان يكــون خاليــا من الشعر ، مـــع ان الزنجـــي اكثـــر الرجــــــال ذكورة . ولبعض القوقازيات شعـــر اسود غزير على افخاذهـــن وربلات سيقانهن واذرعهن وخدودهن . وانتزاع هذا الشعر عملية مؤلمـــة ، وهي تستغرق وقتا طويـــلا . ومع ذلـــك كلمــا عمـــدت النســاء الى الكشف عـــن اجسامهـــن اكثر ، اضطررن اكثر فأكثر الى ازالـــة شعورهـــن .

اما السبب في هذا التصرف فهو من التفاهة الى حد لا يتصور. فالناس يعتقدون عـــن خطأ ان الجنسية سمة حيوانية مــــع ان الانسان هو انشط الحيوانات جنسيا ، والوحيد الذي لا يخضـــع النشاط الجنسي عنده لغريزة الانجاب او التكاثر . ولما كان الخيال الشعبي يشبه الجهاز الشعري بالفـــرو ، فهو يرى فيه دليـــلا على حيوانيـــة وعدوانيـــة جنسية . ويفاخـــر الرجال بجهازهـــــم الشعري مفاخرتهم بقوتهم الجنسية . اما النساء فيحاولن التستر عليه تسترهن على رغبتهـــن وطاقتهـــن الجنسية . وان كن لا يشعرن من تلقاء انفسهـــن بنفـــور عضوي من شعر جسمهن، فان الاخريـــات سيشجعنهن على ازالته . وفي بعض الحالات القصوى تذهب النساء الى حـــد حلق عاناتهـــن او نزع الشعـــر عنها كيما

يبديـن عديمـات الجنس او طفليـات . لكـن بمـا ان فرويـد نفسه كان يميل الى اعتبار شعـر العانة حجابا وجد بفعل ضرب من الحياء الفيزيولوجي ، فاننـا نستطيع تأويل نزعه على انـه فعل تمرد . وتشكل الجهـود التي تبذلهـا المراة لازالة كل رائحة جسديـة جزءا من هذا القمع لحيوانيـة وهمية . ولم يعد يكفي المراة اليـوم ان تحارب العرق ورائحة الفم الكريهة . فما من مجلة نسائيـة الا وتحذرهـا من بشاعـة الرائحة المهبليـة مؤكدة لهـا انها مقرفـة للغايـة . اما الرجال الذيـن لا يرغبون على الاطـلاق في ان تصبح رفيقاتهم بلا طعم لكثرة ما يلجأن الى مزيلات الروائح والشعـر ، فانهم يقفـون عاجزين امام تقزز النسـاء من اجسـادهن . وبعض الرجـال بالمقابل يفاخرون برائحة جسـدهم وبغزارة شعرهم ويعتبرون موقفهم رفضـا ذكوريـا لتصرفات مرهفة ينعتونهـا بالتخنث . لكـن هنالـك وسطـا صحيحا بيـن جلد كبش قـذر وبشرة دميـة بـلا شعـر ولا رائحة : فالجسم المعتنى بـه بصورة معقولة هو جسم مشتهى ، أجسم امراة كـان ام جسـم رجـل .

الفصل الخامس

الاعضاء الجنسية

ان اعضاء المراة الجنسية محاطة بالاسرار والغموض . وعن معظمها يقال انها داخلية وغامضة. وحتى اجزاؤها الخارجية غير معروفة تمام المعرفة. فعندما تبدا الفتيات الصغيرات في طرح الاسئلة، تعرض عليهن امهن، في افضل الاحوال، رسوما بيانية للجهاز الجنسي لا تحتل فيها اعضاء اللذة سوى حيز صغير، فتكاد تضيع الى جانب المبيضين والمجاري التي تحتل بتعقيدها الجزء الاكبر من الرسم . ولم ادرك شخصيا ان انسجة مهبلي طبيعية تماما الا يوم شاهدت تشريحها الدقيق في كتاب تشريح من القرن الثامن عشر . فالطفلة لا تشجع على تفحص اعضائها الجنسية، ولا على التعرف الى الانسجة التي تدخل في تكوينها ، ولا على فهم اوالية الاثارة والانتعاظ. وبسبب هذا الحياء العجيب، الذي يشمل ايضا عيادة الطبيب الذي يتردد في ان يفحص المراة وفي ان يشرح لها ما كشف عنه الفحص، غدت الرعشة الانثوية Orgasme محاطة بغموض متزايد حتى وان كانت تمجد

كواجب. ان طبيعتها تشكل موضوع تأملات ميتافيزيقية. فالافكار الخاطئة والمضللة لا تزال تروج حول النساء وان كانت قد دحضت وفندت منذ زمن بعيد. وعديدون هم الرجال الذين يرفضون، حتى هذا اليوم، العدول عن فكرة القذف الانثوي الذي لم يوجد في الواقع الا في مخيلة الرجال على الرغم من الاسطورة الطويلة العجيبة التي نسجت حوله.

ان جزءا من هذا الحياء الذي يحيط بالاعضاء الجنسية مرده الى القرف والتقزز. فعندما يريد شخص ان يهين آخر، ينعته بكلمة «فرج». ويتعين على فرج المراة ان يكون صغيرا وغير بارز، بعكس قضيب الرجل. وما من امراة في الواقع ترغب في ان يكون لها فرج مثل «مدخل المترو». ويستبد بالمرأة القلق على الدوام على نظافتها، وتخشى ان تنبعث منها رائحة كريهة، كما انها تخفي بامعان كل ما يمكن ان يشير الى عادتها الشهرية احتراما منها للحشمة الجماعية. علما بان النساء لم يدللن على مدى العصور عن مثل هذا الحياء وهذا التحفظ. فعديدة هي الاهازيج والاناشيد القديمة التي تمتدح فيها النساء اعضاءهن الجنسية ويتغنين بها.

كان الطب النسائي في البداية وقفا على الرجال، وقد وصف بعضهم مهبل المراة بحب عارم له يجعل من مطالعة كتاباتهم بلسما يشفي جروح المراة. ومن بين هؤلاء صاموئيل كولينز (١) الذي اطلق على المهبل اسم «معبد فينوس»، وعلى العانة اسم «وسادة فينوس». واكثر ما يميز وصف صاموئيل للفعل الجنسي الحاحه على دور المراة الايجابي: فالمهبل **يعبر** ويفرز، انه **قوي وصلب**. والواقع ان كولينز ومعاصريه كانوا يعتقدون ان النساء الشابات يسعين وراء العلاقات الجنسية بحمية تفوق حمية الشباب. والتعابير التي يستخدمونها لوصف انسجة الاعضاء التناسلية

---

(١) صاموئيل كولينز: النظام التشريحي، لندن ١٦٨٥، ص ٥٦٤ ـ ٥٦٥.

الانثوية صحيحة وموحية، وان لم تكن علمية. فالمهبل، حسب تعبيرهم، «مفروش بغلالات تشبه تويجات وردة متفتحة» و«التجاعيد تتعاقب فيه» محدثة «المتعة في الجماع». وقد اجمع هؤلاء العلماء على التأكيد على حساسية المهبل. كما ادركوا دور البظر الخاص في الوصول الى المتعة واللذة.

ان الفكرة القائلة بوجود الرعشة المهبلية لدى النساء المتزنات والمتنعمات بصحة جيدة كانت بمثابة تدليس ميتافيزيقي على الملاحظات التجريبية لهؤلاء الرواد. فصحيح ان كولينز كان يعتبر الرعشة البظرية امرا مسلما به، لكنه لم يكن يقلل من اهمية دور المهبل في احداث المتعة. غير اننا تبنينا مع الاسف مع رد الاعتبار الى البظر الذي تنكر له تلامذة فرويد، فكرة سلبية المهبل، بل فقدانه لكل حساسية. وهكذا غدا الحب فنا ذكوريا بحتا تقف النساء منه موقف الحكم، وتتمحور اللغة البذيئة حول فكرة الشوكة : فقضيب الرجل شوكة تنغرس في مهبل المراة السالب. والتعابير التي تشير الى قضيب الرجل هي، في مجملها، اسماء ادوات.

والواقع اننا لو نمينا قدرة المراة على التحكم بعضلاتها، فان العديد من آلامها الحوضية سيزول على الارجح، في حين ان متعتها الجنسية ستزداد بقدر مماثل. ومن نافل القول اننا لن نبلغ ذلك ما لن تتكون لدينا اولا فكرة عن كيفية عمل تلك العضلات ولن تتبلور هذه الفكرة الا بعد ملاحظة ومراقبة. وعلى النساء على كل حال ان يتحملن قسطا من المسؤولية الجنسية، الامر الذي يقتضي منهن قدرا من السيطرة على الذات والرغبة الصريحة في التعاون. وكيما تضمن المراة، ان لم يكن كليا فعلى الاقل في حدود كبيرة، انتصارها في معركة الجنس، فعليها ان تبدأ بتغيير تصورها للعلاقات الجنسية : فتعامل قضيب الرجل بايجابية بدلا من ان تكتفي بتلقيه بسلبية.

ان قشع وهم الرعشة المهبلية هو امر ايجابي في نهاية

المطاف، بيد ان احلال التشنج البظري محل المتعة الجنسية الحقيقية قد يؤدي الى كارثة. وقد تمخضت نظريات ماسترز وجونسون (٢) في الواقع عن نتائج ثانوية غير متوقعة، منها هوس البظر الذي اتسم به كتاب ميت ايلجرسن Mette Eiljersen **اني اتهم**. فالكاتبة التي تسلم بان مداعبة البظر هي التي تتسبب في اثارة الرعشة الانثوية، تدين علماء الجنس الذين يعتبرون هذه المداعبة مجرد مدخل او تمهيد للعلاقات الجنسية ولما يعتبره معظم الرجال الفعل الجنسي الحقيقي، وهو الفعل الذي لا يثير لدى المرأة اي احساس على حد ادعائها . وتضيف قائلة :

«ذلك هو لب المشكلة التي تسترت عليها على مر العصور نساء وضيعات، خجولات، وراضخات» (٣) .

لكن النساء لم يكن جميعا وضيعات وخانعات الى هذا الحد. ومن الحماقة بمكان الادعاء بأن المرأة لا تشعر بشيء عندما يولج الرجل قضيبه في مهبلها. فالرعشة تأتي مختلفة نوعيا عندما يتموج الرحم حول القضيب لا حول فراغ. والتمييز الذي يقام عادة بين متعة الرجل البسيطة والحتمية وردود فعل المرأة المعقدة، هذا التمييز عار من الصحة. فلو كان القذف يكفي بحد ذاته لاشباع الشهوة الذكورية، نظرا الى الافراز المستمر للسائل المنوي وما ينجم عنه من تحفز جنسي، فقد كان سيكون في مقدور الرجال ان يتجامعوا مع اي كائن كان، دون حماسة او خيبة. ولطالما درست العقول الالكترونية وصنفت، بطريقتها اللاانسانية، عملية الفعل الجنسي الذكوري التي وصفها الخبراء بدقة وامعان: فالرجل يبدأ باثارة المناطق الحساسة عند المرأة، الحلمتين والبظر ثم يتجاوز طور الاثارة الاصبعية او اللسانية ليلج بتهذيب في

---

(٢) باحثان اميركيان اثبتا بالتجارب المخبرية ان الرعشة الجنسية عند المرأة هي رعشة بظرية في المقام الاول . «م» .

(٣) ميت ايلجرسن : اني اتهم ، لندن ١٩٦٩، ص ٤٥ .

مهبل المراة، وينتظر اشارة من البظر ليدرك انه غدا مرغوبا فيه.
والواقع ان الفكرة القائلة بوجود نموذج احصائي مثالي للجماع، يضمن على الدوام الاشباع لمن يتقيد بنهجه السليم، هذه الفكرة لا تبعث على الضلال فحسب، وانما ايضا على الضيق والاكتئاب.
فليس هنالك من بديل عن الاثارة الجنسية. وكل تدليك، مهما تفنن، يعجز عن تحقيق المتعة التي هي في صميمها ظاهرة سيكولوجية ـ جنسية لا تخضع لكتلة من الاعصاب المتناهية في الصغر، بل ترتبط بالمشاركة الجنسية الكاملة للشريك في الفعل الجنسي. وقد لاحظ الرجال باندهاش استمرار اللذة الجنسية الشديدة لدى المراة بعد الرعشة. ولا يمكن ان نعزو هذه الظاهرة الى البظر، الذي لا يتجاوب عادة مع الاثارة المطولة، وانما الى تفاعل حواسي عام. فاذا ما حصرنا تجاوب المراة بالبظر، فرضنا عليها نفس الحدود التي ادت الى تشويه التجاوب الجنسي عند الرجل والى حرمانه من المتعة الحقيقية. ان فكرة الذكورة المجردة من العاطفة الحبية محزنة ومؤسفة. والواقع انه عندما يتم التعبير عن الاشباع الجنسي بتعابير آلية، فان الفرد يبحث عنه بصورة آلية ايضا . وهكذا يغدو الفعل الجنسي فعل استمناء، وانما في مهبل .

ان النساء اللواتي قابلن مبادىء ماسترز وجونسون هاتفات «هذا ما كنت اقوله دوما»! او «اني طبيعية اذن» سيصدمن ولا ريب بهذا النقد. فلقد اكتشفن، على ضوء هذه المبادىء، متعة جنسية كن قد حرمن منها. لكن بلوغهن هذه المتعة عن طريق اثارة البظر ينهض حجة تدعم اطروحتي. فهو قرينة على تجريد الجسم من الطابع الجنسي وعلى حصر الحياة الجنسية بالاعضاء التناسلية .

الفصـــل السادس

الرحـــم

لا تختلط الجنسية بوظيفة الانجاب. فالخيط الـذي يربط بينهمـا دقيق للغاية عند الكائنات البشرية التي تستطيع ان تتجامع متى شاءت، وليس فقط عندما تدفعها الغريزة الجنسيـــة او دورة الانجاب الى ذلك. وينجم هذا الاختلاف على الارجح عـــن تمتع الكائنات البشرية بذاكرة، وبارادة، وبادراك للمتعة الجنسيـة تدفعهم الى ان يرغبوا فيها لذاتها. ومع ذلك فان البنات الصغيرات لن يعرفن بوجود اللذة الا بمنـاسبـــة اكتشافهـــن وظيفتهـن الانجابية، وكنتيجة عرضية لهذه الوظيـفـة. ويهتـــم ذووهـــن باطلاعهن المعلومات المفيدة حول الصدمة المرتقبة للعادة الشهـريـة وحول خطر الحمل الذي يترتب على ارتكابهن الاخطاء والحمـاقات وانسياقهن وراء دوافعهن الجنسية، اكثر مما يهتمون بتعليمهـــن ان يستقبلن حياتهن الجنسية كظاهرة ايجابية. وبالنتيجة، تغدو المراهقة مطلعة على رحمها اكثر مما هي مطلعة على اعضـــائهـا

التناسلية، وما تعرفه عن هذا الرحم ليس مما يبعث على العزاء(١).

ان هذه المعرفة نظرية. فمعظم النساء لا يعين نشاط مبيضيهن ورحمهن الا يوم يطرا عليهما عطب، وهذا امر لا بد ان يقع، عاجلا ام آجلا. وكثير من النساء يقضين بسبب مرض الم باعضاء جهلنها عمليا طيلة حياتهن، اي بعنق الرحم او الفرج او المهبل او الرحم، وذلك بعد تشخيص متأخر لاضطراب كان غير ذي اهمية في البداية. ومرد ذلك الى جهل يطلق عليه تجاوزا اسم «الحياء». وتعتبر الرحم ، منذ قديم الزمان، مصدر متاعب وشقاء، وان كان الاطباء لا يبدون كثيرا من الاهتمام ازاء قلق المرأة على هذا العضو السريع العطب، فسبب خوف متوارث الى حد كبير. ان برودة المراة الجنسية تعد ظاهرة شائعة، ناتجة عن قلة الحظ وقلة المهارة. بالمقابل، فان عنة الرجل تولى قدرا كبيرا من الاهتمام . وابسط جرح او خلل في القضيب يحظى بعناية فائقة لتجنيب الرجل جزع عقدة الخصاء. لكن ان لم يحصل نزيف او هبوط عضوي، فان الرحم لن تحظى بالرعاية التي تحتاجها . وقد اهمل مخترعو اقراص منع الحمل النفس الانثوية اهمالا تاما بحيث لم يكتشف الاطباء، الا بعد انقضاء بضع سنوات على رواج هذه الاقراص، ان واحدة من كل ثلاث نساء يتعاطينها تعاني من انهيار مزمن. ان هذا الاهتمام الفائق بالاعضاء الجنسية الذكورية وهذا النفور من الاهتمام الجاد بالرحم ناجمان عن خوف سحيق القدم ، خوف لن يزيله لا العمل السياسي ولا الخطب التي تلقى في الاجتماعات العامة (٢). وينبغي قبل كل شيء ان تبدأ النساء بالتعرف الى

---

(١) نذكر من بين الكتب المعدة لتحضير الفتاة للعادة الشهرية كتاب ارنا رايت: «طمث بلا الم»، لندن ١٩٦٦ . ان رسومه البيانية المنفرة لا تظهر البظر الذي لا ياتي النص اساسا بذكره .

(٢) نجد عرضا للخوف الوراثي من الرحم في «الجنس الخطير : اسطورة الشيطان الانثي»، تاليف هـ.ر. هاين، لندن ١٩٦٦ .

اجسادهن، وبتولي الطب النسائي وفن التوليد، وبالتغلب على احكامهن المسبقة ضد الطبيبات .

لقد كان احدث استيهام انتجته الرحم الوصف الطبي للهيستيريا الذي ظل شائعا في اوروبا حتى مطلع القرن العشرين. ففي البداية كان يطلق على الهيستيريا اسم «الام»، وكان الاعتقاد السائد يقول ان الرحم المتنقلة داخل جسم المراة تجتاح عنقها وتسبب لها الاختناق .

ومع ان علماء التشريح كانوا يدينون ممارسات المشعوذين والساحرات، فقد كانوا يعتقدون رغم ذلك ان الرحم محتقنة بدماء وحوينات منوية ميتة تتسبب في توليد امراض خبيثة، منها الاحتقان الحوضي .

وكان هنالك اعتقاد يقول ان النساء العزباوات والارامل معرضات اكثر من غيرهن للهيستيريا، وانهن لا يحتجن الا لزوج كي يبرأن منها . وكان بعض الاطباء يؤكدون جازمين أن «للرحم دورا في جميع امراض النساء». فالمراة، على حد الاعتقاد الشائع، هي بطبيعتها عبد لرحم لا تعرف الارتواء، وقد حكم عليها بالتالي بأن تكابد من اعراض مرضية لا تظهر عند الرجل الا اذا بالغ في ممارسة الاستمناء. ومع ان اوالية الاضطهاد الجنسي قد وصفت وشرحت اكثر من مرة، فان رد فعل المراة اعتبر في الماضي، ولا يزال يعتبر الى اليوم، حجة تبرر استمرار هذا الاضطهاد. فالنساء كائنات اضعف واوهن عقلا من ان يعهد اليهن بمهمة توجيه دفة حياتهن. وقد عزي انهيار احدى طالباتي، حينما انتابتها نوبة من البكاء والتشنج اثناء امتحان اخر السنة، الى الهيستيريا. ومع ان الاسباب التي دفعتها الى هذا الانهيار كانت واضحة، فان كلمة هيستيريا هي التي طغت على الاذهان .

لم يتم الاعتراف بالوظائف المرعبة للرحم والقبول بها رسميا الا مؤخرا فحسب، عندما ابيح للازواج ان يشاركوا في اسرار الوضع الذي لم يعد علما موقوفا على النساء. ولم تعد الام بحاجة

الـى ان تطهر نفسها او تزور الكنيسة بعد الوضع. وتبذل جهـود لازالة الفكرة القائلة ان آلام الوضع عقاب منزل من السماء بالنساء ولاعادة تثقيف المرأة بحيث تصبح مؤهلة للاضطلاع بدور فعال في مسار تطور حملها. وتم القضاء بنجاح على ادهى خطرين كـانا يتهددان المرأة عند الوضع، وهما حمى النفاس والنزيف المباغت. كما تضاءل على نحو ملحوظ عدد الرجال الذين حكم عليهم بفقدان زوجاتهم بسبب الاجهاض. بيد اننا لم نفلح رغم ذلك في التغلب على الخوف الذي توحي لنا به الرحم. وتتجلى اكثر ترسبات هذا الخوف الوراثي شيوعا في ردة فعلنا على العادة الشهرية.

ان العديد من الاديان تعتبر المرأة غير طاهرة في اثناء الطمث. وكانت الكنيسة الكاثوليكية في العصر الوسيط تحرم على النساء الدخول الى امكنة العبادة اثناء عادتهن الشهرية. وعلى الرغم من التطور البطيء للعقول، فاننا لا نزال نعبر عن نفورنا من الطمث بتسترنا عليه. فلئن عرفت الفوط الصحية المصنعة ذلك الرواج الكبير الذي عرفته، فلأنها سهلة الاخفاء في المقام الاول. ان البلوغ حدث اعظم اهمية من اي ذكرى او عيد اخر، لكن العائلات الانكلو-ساكسونية تتعمد تجاهله وتمعن في اخفائه. وقد ظللت شخصيا طيلة ستة اشهر انقل في محفظتي المدرسية فوطا ودبابيس ترقبا لطمثي الاول. وكانت الفوط في ايام مراهقتي تصنع من قماش غليظ، فكنت اتسلل خلسة الى غرفة الغسيل لاغسلها وانا منحنية فوق دست من الماء القذر، وابتهل الى ربي كيلا يفاجئني شقيقي وانا اؤدي هذه المهمة المحنقة. وليس من المستغرب بالتالي ان كانت الفتيات المهذبات والمعتنيات بانفسهن لا يتقبلن الطمث الا على مضض في مجتمع لا يساعدهن بشيء على تحمل هذه التجربة. فعند القبائل الاصلية التي تعيش على ضفاف البنقاذر في ولاية كوينلاند (٣)، تدفن الفتاة حتى الخصر

(٣) احدى ولايات اوستراليا . «م» .

في الرمل الساخن لتسهيل التقلصات الاولى، وتتولى امها اطعامها والعناية بها في مكان مقدس، ثم تعود بها منتصرة الى مضارب القبيلة حيث يجري الاحتفال بقبولها في صفوف الفتيات المؤهلات للزواج. أن الصدمة التي يحدثها الطمث في مثل هذه الشروط تكون على الارجح اخف وطأة بكثير (٤). ولا تزال النساء، حتى ايامنا هذه، يرتعدن خوفا وتقززا من فكرة اقامة علاقات جنسية اثناء عادتهن الشهرية، والشعور السائد لديهن هو ان الدم الذي يفقدنه اثناء الطمث هو من نوع خاص، مع انه ليس اكثر خصوصية من ذاك الذي كانت تصنع منه الساحرات شراب المحبة ويطلبن من الشيطان مباركته.

يقولون لنا ان الطمث ظاهرة فريدة في سيرورات جسمنا لانه يترافق بنزف. ويقولون كذلك ان الطبيعة معجزة من الحذق والبراعة، وانها لا توجد على الاطلاق ما هو غير مجد، وانها لا تحتاج الى تصحيح، ولا سيما عندما تنفرد النساء في المكابدة من اخطائها. ويستخلصون من ذلك انه من غير المرجح على الاطلاق ان تترافق العادة الشهرية بآلام فعلية. والواقع ان ما من فتاة تفقد دمها عن طريق عضو ظلت تجهل وجوده الى ان بدأ يفرض عليها مضايقاته، ستنزع الى الاعتقاد بأن الطبيعة معصومة عن الخطأ وان كل ما تصنعه هو الصواب بعينه. وعندما يصارحونها قائلين انها مسؤولة عن الالم الذي يرافق هذه الظاهرة البشعة لانها لم تعرف كيف تتكيف مع دورها كأنثى، يتولد لديها شعور بانها ضحية فكاهة سمجة. ان معظم الاطباء يسلمون بتوعك النساء اثناء الطمث، لكن آراءهم تختلف اختلافا كبيرا حول عدد النساء اللواتي يعانين من اوجاع «فعلية». ولا يهم في الحقيقة ان كانت تقلصات الرحم مؤلمة بالمعنى الضيق والحرفي للكلمة او ان كان هذا الالم مجرد وهم يمكن للعلاج النفساني ان يبدده. المهم

(٤) بلوس وبارتلز : عزلة الفتيات في الطمث، ص ٦١١ ـ ٦٣.

هو ان ما من امراة كانت ستقبل بالعادة الشهرية لو لم ترغم عليها. فلماذا لا تثور المراة على عبودية يسبقها ويرافقها ويعقبها توتر عصبي، وتترجم عن نفسها بمضايقات ورائحة كريهة وثياب ملوثة؟ ولا سيما ان هذه العبودية تستأثر بما يقارب من سبع الى خمس حياتها الراشدة حتى سن القعود، وتجعلها خصبة ثلاث عشرة مرة في العام الواحد في حين ان اكثر النساء لا يرغبن في اكثر من طفلين. وهذا ناهيك عن القعود (اي انقطاع الطمث) الذي قد يتسبب، لعدة سنوات، في اضطراب افراز الغدد الصم وفي ضمور تدريجي للاعضاء الجنسية. ان الطبيعة في الحقيقة ليست آية في المهارة، وان كل صراع نخوضه ضد المرض هو تدخل من قبلنا في مسار النظام الطبيعي، وليس هنالك ما يدعونا الى الجزم بان الطمث كما نعرفه امر ضروري وبانه لا يسعنا ان نأمل في تغييره .

كثيرا ما يصار الى التذرع بالطمث للتشكيك في قدرة النساء على ممارسة بعض النشاطات. فعندما يكون الامر متعلقا براحة المراة وتمتعها بالعافية، يصار الى تحجيم نتائج الطمث والى التقليل من اهميتها. وعندما تهدد بالمقابل امتيازات الرجل، يصار الى تضخيمها. والحال ان اثر الطمث على وضع المراة ليس اشد وطأة من اثر الافراط في الكحول، او ارتفاع ضغط الدم، او القرحة، او الخوف من العنة الجنسية، على الرجل. وليس ثمة ضرورة لاعطاء المراة اجازة شهرية بسبب الطمث. وربما ازدادت النزعة الاجرامية عند المراة قبل الطمث واثناءه لكن يبقى ان عدد الجرائم التي ترتكبها النساء هو دون عدد جرائم الرجال بكثير . ان العادة الشهرية لا تجعل منا معتوهات او عاجزات . لكن لو ترك الامر لنا لاستغنينا عنها بكل طيبة خاطر .

الجــزء الثــانـــي

النفس

الفصل السابع

النمـوذج المقولـب

ان النموذج المقولب للانوثة قد راى النور عند ذلك الحـد الغامض الذي يلتقي فيه الجسم بالنفس. انه جسدي اكثر منـه روحيا، وروحي اكثر منه فكريا. ان الجمال بأسره وقف عـلى المراة، بل ان الجمال هو المراة .

فالشمس لا تسطع الا لتذهّب شعرها وتلفـح بشرتهـا. والريح لا تعصف الا لتورد وجنتيها . والبحر يشتاق الى غسلها. والزهور تموت طوعا كيما يزيد عطرها في تألق بشرتها. انها تـاج الخليقة وآية آياتها. قاع المحيطات يستباح وينهب لينتزع منـه المرجان واللآلىء التي ستزينها. واحشاء الارض تغتصب ليستخرج منها الذهب والماس واللازورد والياقوت كحليّ لها. وتقتل صغار عجول البحر، وتنتزع الاحمال من بطون امهاتها، ويقضى على فـأر المسك والخلد والسنجـاب والفيزون والقاقم والثعلـب والقندس والشنشيلة والاسلوت والاوس وغيرها من الحيوانات الجميلـة كيما تختال المراة بفرائها. تقتل القنزعـة والنعامـة والطاووس

لتتزين المراة بريشها. ويجازف رجال بحياتهم لاصطياد فهود تفصل من جلودها معاطفها، وتماسيح تتحول الى حقائب واحذية لها. وتعمل الملايين من ديدان القز لتصنع لها الحرير. وتنكب طوابير من النساء على صنع الدانتيلا كيما ترتدي المراة اجمل وارهف ما يمكن للمال ان يشتريه.

لقد تخلى رجال حضارتنا عن زينتهم الفاخرة ليكونوا اكثر حرية في تجريدهم الكون من كنوزه ووضعها عند قدمي معبودتهم. وقد وضعت مواد جديدة، وآلات جديدة، وطرائق جديدة في خدمتها. لذلك يتوجب على المراة ان تنفق وان تظهر للملأ الطاقة الشرائية للرجل الذي ينفق عليها ونجاحه الاجتماعي. ففيما يكون الرجل منهمكا في عمله في المصنع، تتبختر هي في الشوارع الانيقة والفنادق الضخمة عارضة ثروته على ظهرها وجيدها ومعصميها واصابعها. في الماضي كانت نساء الطبقة الارستقراطية ينفردن في احتلال عرش جمال الكون. فقد كن، دون سواهن، ينعمن بأياد بيض ناعمة، واقدام صغيرة، وخصور نحيلة ، وشعور طويلة. لكن زوجات البورجوازيين الاغنياء حذون حذوهن مع الايام، واتقن تقليدهن الى حد اضطر معه النموذج الارستقراطي، كيما يتميز، الى التحول الى الهة مزدانة بجواهر تضاهي الواحدة منها في الحجم بيضة حمام. فملكة انكلترا لا تزال، حتى ايامنا هذه، ترى ان من واجبها الملكي ان تظهر في الحفلات العامة وهي محملة باكبر قدر ممكن من جواهر الاسرة وحليها، مع أن الملوك قد تخلوا منذ زمن عن دور الواجهة (الفيترينة) المتنقلة.

ان المراة، التي اصبحت العلامة الخارجية للثروة وللمرتبة الاجتماعية، في حين آثر الرجل حياة الخفاء وفضل الا يحاكم الا على افعاله، ان هذه المراة قد غدت ايضا الشعار الرئيسي للفن الغربي. فبالنسبة الى الاغريق كان جسم الرجل والمراة على حد سواء يتسم بجمال انساني، جمال غير جنسي الطابع بالضرورة. وكان الفنانون يفضلون في بعض الاحيان جسم الرجل،

لانهم كانوا يعتبرون مقاييسه اقرب الى الكمال واكثر حيوية. ولم يخص الرومان بدورهم المراة بمكانة مميزة في فنهم الذي كان يطمح الى عظمة الشكل والحجم. ولم ترجح كفة المراة الا مع اطلالة عصر النهضة، ولم يركز فن عصر النهضة على المراة كأم فحسب، وانما ايضا كموضوع دراسة جمالية. وقد ظهرت اولى الصور لنساء عاريات في المشاهد الجماعية او في اللوحات المزدوجة التي تصور آدم وحواء. لكن فينوس فرضت نفسها بالتدريج. فمريم المجدلية لم تعد نحيلة وضامرة، بل غدت امراة لدنة وفاتنة . وراح الفنانون يرسمون زوجاتهم، وعشيقاتهم، وزوجات الملوك وعشيقاتهم، بمتعة جسدية واضحة، معرين اياهن احيانا، لكن دون تجريدهن من حليهن .

نظير هذا التطور حدث في الشعر ايضا. فقد بات الشعراء يقرظون الجمال الانثوي عن طريق الثروات التي احيط بها. فشعر المراة ذهب مجدول، وجبينها عاج، وشفتاها ياقوتتان، واسنانها صفان نضيدان من اللؤلؤ، ونهداها مرمر معرق باللازورد، وعيناها سبج اسود. وما تشبيهها بالوردة الا توكيد على قصر عمر جمالها، لذلك تراهم يدعونها الى الاستفادة من هذا الجمال قبل ان يذبل ويزول. ان المراة، بتعبير اخر، معدة للاستهلاك. وثمة صور اخرى تشبهها بالفعل بالكرز، بالقشطة، بالعسل، بالحليب، بالتفاح. ويذهب بعض المعجبين الى وصف الثياب التي تتزين بها المراة، فيقولون عن قمصانها انها شفافة كضباب الشفق، الخ .. ولا يزال بطل الرواية الشعبية حتى ايامنا هذه يلح على اناقة صديقاته الجميلات، من قبعاتهن الى احذيتهن، ولا يتهاون في ابسط هفوة ترتكب في الزينة والتبرج. وان لم تعد الصورة الرائجة عن المراة الانيقة تلح على المصاغ والزهور، فان الاهمية المعلقة على الاستهلاك لا تزال هي هي. فالسكرتيرة الباهتة تتحول الى نموذج للانوثة حالما تضع الاحمر على شفتيها، وتسدل شعرها على كتفيها، وترتدي ثوبا فضفاضا .

لم يعد مطلوبا من النساء اليوم، اللهم الا اذ كن قرينات الاميرة باولا (١) او جاكلين اوناسيس، ان يتزيّن بحلي تقدر قيمتها بميزانية دولة . لكن يفترض فيهن بالمقابل ان يظهرن بالمظهر المترف للنساء اللواتي يتبعن الموضة ويترددن على معاهد التجميل، ويحرم عليهن ان يرتدين مرتين على التوالي الفستان نفسه . واذا كان واجب الاقلية قد غدا اقل كلفة من قبل، فانه بالمقابل قد بات يشمل عددا اكبر بكثير من النساء. فالنموذج المقولب للانوثة اضحى يتحكم بجيش من الخادمات. وقد اغتنى بمساحيق التجميل، وبالثياب الداخلية، وبالجوارب، والبروكات والشعور المستعارة. وتراكم هذه الكماليات باهظ الكلفة. وحتى النساء الفقيرات صرن يمتثلن للموضة، ولو مع تأخير موسم، وذلك عن طريق التقليد غير المتقن، محولات اللمسة الانيقة للثياب الفاخرة الى بذخ سوقي صارخ. فالجمال اضحى مشروعا في غاية التعقيد وتحقيقه اضحى وقفا على الاخصائيين .

وما دامت المراة شابة وحسنة الشكل، فهي تستطيع ان تهدهد حلم ارتقاء السلم الاجتماعي وان تطفى بجمالها الطبيعي على اشعاع البذخ وبريقه. وهي لا تفتأ تسمع وتقرا عن اللواتي نجحن في تحقيق هذه القفزة بفضل جمالهن، فتنكب، وقد غمرها التفاؤل والطموح، على دراسة أحدث اشكال النموذج الانثوي الذي تروج له المجلات التي لا تظهر فيها عارضات الازياء الا محاطات بالمساكن الفخمة، والفراء الثمين، والمصاغ الباهظ الثمن . وقد تهددت اليوم وحدة الموضة على نحو خطير بعد ان ظهرت في انكلترا مصممات جريئات للازياء النسائية آثرن التوجه الى المراة التي تعمل، مقترحات عليها ثيابا مريحة، منوعة، بسيطة ولافتة للانتباه في آن معا. لكن النموذج الانثوي المقولب لا يزال، رغم ذلك، عظيم السلطان والطغيان .

---

(١) زوجة شقيق الملك بودوان البلجيكي . **((م)) .**

ليس على المراة، حسب مقتضيات هذا النموذج، ان تبرهن على طاقاتها الفكرية لانها مجرد مكافأة للرجل على نجاحه الاجتماعي. وليس عليها ان تثبت خصائلها الاخلاقية لان الفضيلة، كل الفضيلة، تكمن في جمالها وسلبيتها. واذا ما ضبطت بصحبة شخص غير مالكها فانها لن تعاقب لانها غير مسؤولة اخلاقيا. فالمسألة منافسة ذكورية بحتة. لذلك تستطيع المراة، بكل براءة، ان تدفع بالرجال الى الجنون والى الحرب. وبقدر ما تتسبب في اثارة الفوضى ترتفع اسهمها، لان متعة امتلاكها تتناسب مع الرغبة التي تثيرها . فما من رجل يرغب في امراة ينفرد هو في تقدير جمالها. لهذا السبب يجمع الرجال على التعاطف مع النموذج الانثوي المقولب وعلى ابداء اعجابهم به. فهو يوجه ذوقهم نحو القيم المعترف بها بصورة شائعة، حتى ولو احتجوا على بعض من جوانبه التي لا تتفق مع صنميتهم الجنسية. وبالاجمال فان النموذج المقولب يرضي معظم المتطلبات .

ان الرجل المولع بالسيقان الجميلة يؤيد موضة الميني جوب، والهائم بالنهود يصفق للقمصان الشفافة ولموضة تعرية الصدر بسخاء. بالمقابل، فان الرجل الذي يحب النساء الممتلئات قد يجد نفسه مضطرا الى ارضاء ذوقه بالسر. وثمة حدود صارمة تفرض على التنوعات التي يمكن ادخالها على النموذج المقولب اذ لا يجوز ان تتعارض مع وظيفته كموضوع جنسي. ففي وسع المراة مثلا ان ترتدي ثيابا جلدية، لكن بشرط الا تتقن قيادة الدراجة النارية. ويمكنها ان تلبس ثيابا من المطاط، بشرط الا تكون بطلة في الغطس او في التزلج على الماء. واذا ما ارتدت ملابس الرياضيين، فكيما تبرز نعومة جسم غير رياضي .

ولان المراة رمز الطاقة الشرائية وخير من ينفق بسخاء، فانها تشكل ايضا افضل حافز للشراء. فقد اجمعت سائر التحقيقات التي اجرتها شركات الاعلان على ان صورة المراة الجذابة هي اكثر اشكال الاعلان فعالية. فتارة تبدو جالسة على الحاجز

الخلفي لسيارة جديدة، او منتصبة فوقها وقد تألقت بالحلي والمصاغ. وطورا تبدو متمددة عند قدمي رجل، تداعب جواربه الجديدة. تارة تأخذ وضعا مشيرا الى جانب مضخة للبنزين، وطورا ترقص في الغابة لتعبر عن متعة استعمال نوع من انواع الشامبو. ومهما تختلف الاوضاع التي تظهر فيها المراة، فانها تضمن رواج السلعة التي تنادي بها. وتنتشر هذه العبادة الوثنية المميزة لحضارتنا في كل مكان : على اليافطات الاعلانية ، على شاشتي السينما والتلفزيون، في الصحف والمجلات، على علب الكونسروة، على الزجاجات وعلب الكارتون. فكل شيء مكرس للالهة السائدة، المراة ـ الصنم. هذا لا يعني ان السيادة في هذه الحضارة هي للنساء، لان نموذج الانوثة المقولب ليس امراة. فالشفتان اللامعتان، والبشرة الكامدة، والعينان المسمرتان على اللانهاية، واليدان الناعمتان، والشعر المتطاير على الاكتاف او المجعد والمشع، ان عوامل الجمال الانثوي هذه تسجل الانتصار اللاانساني لمساحيق التجميل ولفن الاضاءة والتأطير والروتشة والتركيب .

ان الخصاء هو الميزة الاساسية لهذا النموذج. فان كان يتعين على المراة، بحسب معاييره، ان تكون شابة، وان يكون جسمها خاليا من الشعر، وان تكون مشدودة العضلات، فانه يتعين عليها ايضا وعلى الاخص **ان تكون بلا عضو جنسي**. ولا يجوز ان تنم تعابير وجهها عن روح دعابة،او عن فضول،او عن ذكاء، وان كان يجوز لها ان تكشف عن غطرسة بلا حدود او عن شهوة خبيثة تفصح عنها بأجفان مسدلة وشفتين ممطوطتين. ولما كان العالم يتجرد من كل ثروته ليضعها عند قدمي هذه المخلوقة، لذا يتعين على هذه الاخيرة ان تكون سعيدة. فالصرح بأكمله يتزعزع ويتهدد بالانهيار ان لم تكن سعيدة. لذلك فان صورة المراة الملصقة على كل مساحة شاغرة هي صورة امراة لا تفارقها الابتسامة. فالكعكة بالفاكهة تثير نظرة ابتهاج حنون، والغسالة الكهربائية تستقبل

بضحكة عريضة، وعلبة الشوكولاتة بابتهاج وآمتنان، وزجاجة الكوكا كولا بتألق اسنان ساطعة. ان كل امرأة تحترم نفسها تسارع الى بلّ شفتيها والى الابانة عن اسنانها حالما يلوح شبح مصور في الافق. علما بأن المرض المهني الذي تعاني منه «الارنبات الصفيرات» (٢) هو تشنج عضلات الوجه.

لكن باسم اي قيم انتقد مثل هذا النظام؟ ربما لم اكن على مستوى متطلباته. ربما لم انعم بابتسامة ساحرة، واسنان جميلة، ونهدين متناسقين، وساقين طويلتين، وردفين مثيرتين، وصوت شهواني. ربما لم اتقن فن الضحك على الرجال وزيادة قيمتي التجارية بحيث انجح في الحصول على السعر الذي استحق. ربما سئمت من التمثيل، ومن التظاهر بشباب سرمدي، ومن التكتم على ذكائي وارادتي وحياتي الجنسية. فقد ضقت ذرعا بالنظر الى العالم من خلال رموشي الاصطناعية التي تلقي على كل ما اشاهده ظلها المزيف. ولم اعد استطيع تحمل شعر مستعار على راسي، او الامتناع عن التحرك بحرية. لم يعد في وسعي ان اخشى المطر والريح، او ان اخاف الرقص السريع الذي قد يجعل العرق يتصبب من جسمي ويهدد تسريحتي الجميلة. لم اعد اطيق رش الذرور على وجهي بين كل لحظة واخرى. لم يعد في مقدوري التظاهر بان عبارات الغزل المتعجرفة التي ينطق بها ذكر مغرور بنفسه هي موضع اهتمامي الوحيد. ولقد مللت من مشاهدة الافلام والمسرحيات التي يرغب هو في مشاهدتها. ولم اعد احتمل حرماني من حقي في ان يكون لي رأي شخصي. ولن اقبل من الان فصاعدا بدور الانسان المتنكر الذي يمثل شخصية انثوية. فانا امرأة، ولست كائنا مخصيا.

(٢) فتيات يرتدين زي الارنب ويعملن في علب الليل. «م».

الفصل الثامن

الطاقة

الطاقة هي العنصر المحرك لكل كائن بشري. لا تبددها الجهود التي نبذلها، وانما تصونها وتحافظ عليها، لان النفس هي مصدرها. وتنحرف الطاقة عن خطها القويم بنتيجة العوائق والقيود التي تواجهها. انها تتحول الى قوة مدمرة عندما تواجه حاجزا، شأنها شان الطاقة التي تدفع بالسيارة على الطريق. وتجمع العقول المراقبة على التسليم طوعا بان طاقة المراة غالبا ما تكون مدمرة، لكن القليل من هذه العقول يدرك ان هذه القدرة على التدمير ما هي الا طاقة ابداعية موجهة ضد ذاتها بنتيجة حرمان مستمر. ان الاضطرابات العصبية، وآلام العادة الشهرية، والحمل المرفوض او المقبول على مضض، والحوادث والاضطرابات المختلفة، تشهد على القدرة على التدمير التي تنطوي عليها طاقة المراة. وهذه القدرة تتخطى المراة لتطال من يحيط بها، مستهدفة بوجه خاص الزوج والاولاد ومشاريعهم. وليس ذلك لان النساء يكرهن بطبيعتهن افراد اسرتهن. لكن عندما يصور لهن الانجاب على انه

واجب، والزواج على انه عبودية لا مفر منها، فمن الطبيعي ان يصرفن طاقتهن في تاكل ذاتي ينعكس سلبا عليهن وعلى ذويهن.

فعندما يقال للمراة ان انجاب الاولاد هو اسهامها الاجتماعي المهم الوحيد، والتعبير المناسب عن ديناميتها الخلاقة، وعملها الاعظم في الحياة، فان الاولاد والام يكابدون من ذلك .

ومع ان الكثيرين يسلمون بصحة هذا التحليل لانحراف الطاقة الانثوية، فاننا لا نجد بالمقابل من يبدي عن استعداد لادراك هذه الحقيقة : حقيقة ان العلاج لا يكمن في اعطاء النساء البالغات فرصا لممارسة نشاطات غير تلك التي ينطوي عليها دورهن كربات بيت وكمربيات. فعند المراة البالغة يأتي التعبير عن الرغبات والحوافز مشوشا ومنحرفا بفعل الصورة المشوهة عن الامومة التي طبعت في ذهنها. ولن يزول هذا الانحراف، هذا الضلال، اذا ما اعطيت، في وقت متأخر، امكانات تفتح ونمو اخرى. ذلك انها ستسعى على الارجح وراء اهدافها الجديدة بطريقة «انثوية»، اي بخنوع ولا جدوى، وعلى نحو غير مستقيم وغير منتظم. ولا بد من ان نضيف بأن المهام المقترحة على النساء في معظم الاحيان لا تسمح لهن بالافلات فعلا من وطأة الواجبات والمسؤوليات القمعية الطابع. فلو تركت حرية الاختيار للنساء العاملات لتخلت معظمهن عن عملهن في المصنع او عن رتابة وظيفتهن في المكتب، لان الكبت المفروض على طاقتهن في الاعمال التي يعهد بها اليهن عادة هو من الحدة بحيث يفضلن عليها الرتابة الاكثر «طبيعية» للاعمال المنزلية في بيت عصري. ان النساء اللواتي نلن تحصيلا عاليا يستطعن مبدئيا اختيار المهنة التي تناسبهن، لكن بشرط ان يكون التعليم الذي حصلن عليه مجديا وفعالا، وهذا امر نادر اليوم. والواقع ان دخول المراة الى الجامعة لم يتمخض عن جيل من النساء المتفوقات. ولا ريب في ان الاساتذة الحاليين سيوافقون على الوصف التالي لسلوك الرعيل الاول من الطالبات الجامعيات وسيرون فيه ظاهرة مألوفة !

«في اثناء المحاضرات تكون الطالبات غاية في الانتباه والنشاط. وربما يبالغن في تدوين ابسط ملاحظة يسمعنها. انهن يشغلن بشكل عام المقاعد الاولى لانهن يسجلن انفسهن مبكرا ويصلن قبل بداية الدرس. لكنهن في كثير من الاحيان لا يلقين الا نظرة سطحية وعابرة على المنهج الدراسي الذي يوزعه الاستاذ، بل قد يمررنه الى زملائهن دون القاء نظرة واحدة عليه. فلو انعمن النظر فيه، لما استطعن تدوين المحاضرة بحذافيرها» (١) .

ان هذه الملاحظات، الخالية من كل تعاطف او مودة، كان لها في الحقيقة اساس من الصحة. فقد كانت الطالبات مجتهدات ومكدات، اكثر مما هو مطلوب في بعض الاحيان، لكنهن كن يبذلن المستحيل لبلوغ اهداف مضللة. كن يرغبن في نيل الرضى والاعجاب، وفي حفظ كل ما يقال لهن، لكن المنهج الذي يعرض جوهر المحاضرة ما كان يثير اهتمامهن. كن يكرسن مجمل طاقتهن للتقيد بالانظمة وبمتطلبات اخرى ، لا لاشباع حب الاستطلاع الفكري لديهن. لهذا السبب كانت هذه الطاقة تنحط الى انضباط ومثابرة خاليين من كل معنى. ولا تزال هذه الظاهرة منتشرة بين طالبات اليوم اللواتي يحتكرن غالبية المقاعد في الكليات الادبية، ويحتكرن بالتالي مقاعد التعليم. وينجم عن ذلك مردود متراجع باطراد. فالمراة الخانعة تحث على الخنوع طالبات لديهن استعداد مسبق له،على حين كان ينبغي توجيه مجمل طاقاتهن نحواستكشاف المجهول. فالتعليم لا يمكن ان يقوم على الطاعة والانقياد . لذلك ليس من المستغرب ان كانت النساء لا يحققن اكتشافات علمية الا فيما ندر، بل يكتفين عادة بدور مساعدات الرجل في المختبرات حيث يعملن تحت اشرافه وتوجيهه .

ان كل الحجج والذرائع التي تشهر للحؤول دون وصول

---

(١) كارل فوغت، قضية المراة ، مجلة الانتروبولوجيا ١٨٨٨، م ٣، نقلا عن بلوس وبارتلز، مصدر آنف الذكر، م ١ ، ص ١٢٦ .

النساء الى المهن الحرة ، تنبع من هذا الواقع الاساسي . وقد توصف هذه الحجج والذرائع بأنها احكام مسبقة، وهذا صحيح بقدر ما يكون الجنس نقطة ارتكازها. ولكن ان لم تسلم نصيرات المراة بصحة الانتقادات التي توجه الى جدارة النساء في الصناعة ، والادارة، والتعليم، والنقابات، والمهن القضائية والعلمية، فلن يعيّن طبيعة المشكلة ولن يتوصلن الى حلها. فمن المؤكد ان الفرص المهنية التي اتيحت للنساء قد تجاوزت رغبتهن في الاستفادة منها. وعندما ينتهزن الفرصة فانهن يفعلن ذلك في اكثر الاحيان على نحو انثوي، بنوي، خانع. ولا يكفي ان نشجع النساء على التحلي بروح مبادرة يفتقدن اليها وان نلومهن على افتقارهن لها . بل ينبغي ان نعي كيف ولماذا يحال دون نمو الطاقة الانثوية منذ الولادة حتى البلوغ، بحيث لا تعود النساء يتمتعن مع بلوغهن سن النضوج الا بفورات عابرة من الدينامية والابداعية .

ان مناصرات المراة انفسهن يملن في كثير من الاحيان الى ان يتصورن عن خطأ ان الجنسية هي عدو المراة المتطلعة الى تنمية طاقاتها الفكرية وروح مبادئها. وهذا هو على وجه التحديد افدح خطأ وقعت فيه بعض الحركات النسوية ، ومنها **المنظمة القومية للنساء**. فليست الاهمية المعلقة على الجنسية هي التي جردت الطالبة الاميركية من كل رغبة في الاستفادة من المعارف التي اكتسبتها، وانما التصور السلبي المحض للدور الجنسي الانثوي. والواقع ان العامل الاساسي في انحراف الطاقة الانثوية وضلالها يتمثل في احلال تصور الانوثة او انعدام الجنس محل الجنسية الانثوية. فمهما اختلفت النظريات التي اخذنا بها وتباينت، فاننا نجد انفسنا مضطرين الى التسليم بالتلازم بين طاقة الشخصية وبين الجنسية. ماك دوغال يسميها الانطلاقة الحيوية، ويونغ ورايش يطلقان عليها اسم الليبيدو، وجانيه التوتر، وهيد التيقظ. لكن مهما تعددت الاسماء، فالمقصود واحد. ومن جملة اخطاء النظرية الكلاسيكية افتراضها وجود ضرب من التنظيم الراسمالي

للطاقة المنظور اليها على انها مادة يتعين توظيفها بحكمة، وعدم التفريط بها (٢). لقد كان من المفروض في الواقع ان تعلمنا الفيزياء ان الطاقة لا تضيع : فاما ان تتحول واما ان تحول. وقد ادرك فرويد ان القمع يستهلك طاقة كان بامكانها ان تعبر عن ذاتها على نحو خلاق. وطاقة المراة تحول بفعل قمع دائم، واحادي الاتجاه عند التحليل الاخير. فالطاقة التي تنفقها الطالبات لتدوين الملاحظات، وللاصغاء الى المحاضرات بانتباه، وللوصول الى الجامعة في الوقت المناسب، تعادل الطاقة التي ينفقها الطلبة لفهم موضوع المحاضرة. وفي المختبرات تبدد الطالبات هذه الطاقة بتحرك غير مجد، فيدعن الاجهزة والادوات تسقط من ايديهن تارة، ويطرحن الاسئلة التافهة طورا. وتخضع طاقة الرجال بدورها للتوجيه وللتشويه، وانما على نحو مغاير، فهي تحول الى عدائية والى روح تنافس. ان مصير المراة هو ان تفقد قوتها وان تشوه من جراء المفعول المدمر لطاقة موجهة ضد ذاتها، لانه يستحيل عليها ان توجهها الى الواقع الخارجي لتمارس تأثيرها عليه .

ان السلوك الجنسي يشكل بحد ذاته ضربا من البحث والتقصي كما يدل على ذلك التعبير الشائع : لقد عرفته، او لقد عرفها، جنسيا. وهذا الجانب بالذات من الحياة الجنسية،جانب البحث عن المعرفة، هو الذي يقمع عند المراة. فهي تدعى الى كبته ليس فقط في خلال العلاقات الجنسية، وانما ايضا في سائر اتصالاتها الاخرى مع العالم، وذلك منذ نعومة اظافرها. لذلك عندما تعي جنسيتها، فان العادات المكتسبة تكون قد ادركت درجة من الجمود كافية لخنق الرغبةوحب الاستطلاع. هذامايتطوي عليه تعبير : المراة المخصية. وفي السيكولوجيا الكلاسيكية، التي ما

---

(٢) عرض ماك كاري وجهة النظر التقليدية في بحثه «سيكولوجيا الشخصية»، لندن ١٩٥٥ .

هي في خاتمة المطاف الا وصف عقلاني للواقع المعاصر، يجد تجريد المرأة من الجنسية تمثيله في النظرية الفرويدية القائلة بانه ليس للمرأة عضو جنسي. ربما لم يعتبر فرويد هذا النفي تأكيدا لقانون طبيعي، وانما فقط التعبير المنطقي، بمصطلحات جديدة وكاشفة، عن وقائع ملموسة. المهم انه كتب يقول: «اننا نستطيع، فيما لو جعلنا لمفهومي الذكورة والانوثة مضمونا اكثر تحديدا، ان نؤكد ان الليبيدو هو على الدوام وباطراد من ماهية ذكرية، وانه يظهر لدى الرجل ولدى المرأة على السواء، وبغض النظر عن موضوعه، ارجلا كان ام امرأة» (٣) ..

اذا ما اعتبرنا الخصائص الانثوية نتيجة للتاثير الاجتماعي، فاننا سنسلم بأن هذا الاستقطاب بين الذكورة والانوثة هو، مع الاسف، صحيح، وان يكن غير ضروري. لهذا السبب يتعين علينا دحض تصور الانوثة المجردة من الليبيدو، اي الانوثة الناقصة، دون الانسانية، الناجمة عن التشويه الثقافي لطاقات الفرد. وكيما ندرك كيف تخصى الانثى البشرية وتصبح انثوية، ينبغي ان نستعرض جميع الاكراهات التي تكابد منها مذ تكون رضيعة في المهد.

---

(٣) سيغموند فرويد: ثلاثة مباحث في نظرية الجنس، (انظر الترجمة العربية، دار الطليعة، بيروت ١٩٨١، ص ٩٢ «م» .) .

الفصل التاسع

الطفل الرضيع

ان للطفل الرضيع ساعة ولادته قدرات فائقة. فهو يستطيع الانتصاب على قدميه، وتحريك راسه . واصابع قدميه اخاذة، ويداه قادرتان على القبض على الاشياء بقوة مذهلة. لكن ما ان تنقضي ساعات معدودة على ولادته حتى تختفي هذه المهارات، فيتعين على الطفل ان يتعلمها من جديد بكد وجهد. ولئن لم نعد اليوم نقمط الوليد حتى لنحوله الى صرة صلبة تستطيع الام ان تفعل بها ما تشاء، بيد اننا ما زلنا مع ذلك نعامله وكأنه كائن وسيط بين الدمية والعاجز. ان الجهود الاولى التي يبذلها كي يتحرك تكبح من قبل المرضة التي تطبق بقبضتها الحديدية على عنقه واليته فتحكم عليه بالجمود . صحيح ان الوليد لم يعد يلف بقماط لكنه يسمر في سريره بواسطة غطاء مثبت باطراف السرير بحيث لا يستطيع زحزحته. وهنالك على ما يبدو شعور غامض بان هذه الطريقة في معاملة الوليد ليست سليمة تماما، والدليل على ذلك عدم تطبيقها على الاطفال الذين يولدون قبل الأوان او على

الذين لا يتنعمون بصحة جيدة. والواقع ان تغطية الطفل في سريره هي الطريقة الابسط والارخص للحؤول دون ضياع الحرارة.

لئن كانت الطاقة تبدو لنا من صنع الشيطان، فلأن حضارتنا برمتها تسعى جاهدة الى ترويضها لاغراض غريبة عن الطبيعة. لذلك نرى ان الواجب يقضي بتحضير الطفل، اي بتعبير اخر تكييفه وفق شروط حضارتنا. فكلما ازعجت صرخاته علاقات الراشدين، منع من الصراخ ومن تدريب رئتيه. وللطفل الوليد فضول بالغ التطور وطاقة متناسبة مع هذا الفضول لهضم المعلومات وتمثلها ؛ بيد انه يمارس هذه الطاقة في محيط مصطنع من الاصوات المكتومة، والالوان الباهتة، محيط تسيطر عليه قامة الام الضخمة. ان هذه العلاقة القاصرة للطفل على شخص واحد سرعان ما يغدو ضروريا له، هي عامل ضروري لتكوين الشخصية بحسب التصور الذي فرضه المجتمع عنها. فاحلال شخص اخر او عدة اشخاص اخرين محل الام العظيمة السلطان يصطدم بحكم مسبق ارسى جذوره عميقا في اذهاننا. ففي براغ عمد الدكتور جاروسلاف كوخ الى جمع عدد من الرضع في محيط اطلقت لهم فيه حرية التصرف، فكانت النتيجة انهم تعلموا كيف يتسلقون سلما وهم لا يزالون في شهرهم الثامن. لكن حتى ولو اثبتت ابحاث الدكتور كوخ وغيره ان نمو طاقات الوليد يتأثر سلبا من جراء الدور الذي تفرضه عليه الام التي ترى فيه تارة لعبتها وطورا رائعتها، فما من احد سيأخذها بعين الاعتبار في اطار حضارة تعتبر سيطرة الام امرا ضروريا لتكوين الشخصية (١). فانتباه الطفل لا بد ان يحوّل عن الواقع الخارجي ليتركز على علاقة انكفاء ذاتي ناجمة عن علاقة استغلال متبادل تقتدي بها الزاماته واكراهاته في المستقبل. فكل زواج يعيد خلق الموقف الاوديبي.

ان الطفل الوليد لا يقيم تمييزاً بين ذاته وبين ما يشاهد.

---

(١) الصنداي ميرر ، ١٩ ، ١٠ ، ١٩٦٩ .

ويتولد وعيه لأناه عندما لا تلبى رغبة من رغباته . أنه يكتشف في الالتباس والاحباط الاختلاف القائم بينه وبين امه (٢). لذلك فان اول فعل يقدم عليه الأنا هو نبذ الواقع عن طريق تبني موقف معاد او مشوب بالقلق والحصر ازاءه. وتغذي حضارتنا باستمرار هذا الشعور بانفصال الأنا وبانحداده لتجعل منه ركيزة اخلاق انوية، لا تنبع من ادراك عواقب افعالنا على المجموعة التي تشكل استمرارا للأنا، وانما من القوانين والقيود التي يفرضها الفرد على ذاته على نحو نرجسي. ان دليل الطفل الداخلي، اي ضميره الاخلاقي، قائم اساسا على القلق والشعور بالذنب. وقد تخفق هذه السيرورة، كما قد تترتب عليها مبكرا اضرار فادحة. ان الانطواء على الذات، والاشكال الاخرى من الاضطرابات العقلية، تصيب الطفل في سن مبكرة وتؤدي الى اقصائه عن قطيع الراضخين والطيعين، والى التفرقة بينه وبينهم. وكثرة هذه الاضطرابات لدى الاطفال الموهوبين بوجه خاص تشير الى وجود تلازم بين شدة الطاقة الفردية وحدتها وبين نتائج الاكراه الممارس عليها. واذا ما دلل امثال هؤلاء الاولاد على ذكائهم، برغم كل ما يكابدون منه، فهذا امر خارق بحد ذاته. وفيما مضى كان الاولاد المعانون من البلبلة والاضطراب الداخليين يخضعون لنظام قاس للغاية بغية ترويضهم وتركيعهم، او يسجنون داخل جدران مصحات عقلية حيث كان ينظر الى عجزهم عن التكيف مع البيئة المحيطة على انه ناجم عن حالة مرضية خِلقية. ولو لم تقدم امراة شجاعة وقوية البديهة على اقتحام هذه المصحات والملاجىء، لما اعيد النظر راسا على عقب في اساليب اعادة تكييف الاولاد كيما يغدوا قادرين على متابعة نموهم وفق خط اصح واقل ضررا.

---

(٢) لمزيد من المعلومات بهذا الصدد راجع : بول شيلدر : صورة الجسم الانساني ومظهره : دراسات في الطاقات المكونة للنفس، لندن ١٩٣٥، ص ١٢٠ ــ ١٢٢، ونورما براون : الحياة ضد الموت، لندن ١٩٦٨ .

ان النجاح الذي احرزته اساليب ماريا مونتيسوري كان من الوضوح والجلاء بحيث سارعت رياض الاطفال في انكلترا ، بل في اوروبا برمتها ، الى تبني تلك الاساليب واتخاذها ركيزة لمناهجها التربوية . لكن غاب عن اذهان المسؤولين عن تلك الرياض ان المناهج التربوية الجديدة التي عمدوا الى تطبيقها تشكك في التربية التي يحصل عليها الاولاد خارج المدرسة خلال سنوات تكونهم الحاسمة. فنظرا الى الشوط الكبير الذي قطعته روضة الاطفال في تقدمها على الاشكال التربوية الاخرى ، فان الطفل يتعرض لسلسلة من الازمات السيكولوجية ، بسبب التناقض بين الروضة والوسط العائلي ومراحل التعليم اللاحقة . لقد خلقت ماريا مونتيسوري، بتبنيها مبدأ المبادرة الحرة كيما تتيح لاطفالها المتخلفين فرصة في التفتح والنمو ، وضعا لا سابق له . وقد وجدت في انكلترا معلمات مقدامات نبذن مبدأ الانضباط في الصف ، ورحن يعرن آذانا صاغية لكل طفل يود ان ينقل لرفاقه حصيلة ابحاثه وتحقيقاته . بيد انهن شكلن استثناء لا قاعدة : فمعظم المعلمات هن اكثر فزعا من المجازفة بخلق جو من الفوضى الخلاّقة ، ناهيك عن ارتفاع عدد الاطفال في الصف الواحد، مما يحول دون تطبيق هذه الاساليب . كما ان اكثرية المدارس لا تملك من الاموال ما يسمح لها باقتناء الكتب التربوية والعناصر الاخرى الضرورية لمثل هذه التجارب والاختبارات. وقد استحال عليّ شخصيا حتى الان ان انشىء ، حتى على الصعيد الجامعي ، مختبر ابحاث قائم على التعاون التلقائي . وتروي ماريا مونتيسوري قصصا مؤثرة ، فتصف مثلا كيف عبّر الاطفال عن احترامهم الجماعي للشخصية الملكية التي قامت بزيارتهم ، وكيف كتب طفل على اللوح الاسود ، بعد ان تليت على مسامعه تفاصيل زلزال وقع في جنوب ايطاليا : « كم انا آسف لاني صغير » . وتصوّرت ماريا مونتيسوري بادىء الامر

انه لم يفلح في تقبل ما قيل له ، بيد أنه اضاف قائلا انه يأسف لعدم قدرته على مساعدة ضحايا الزلزال . ولا ريب في ان التقدم الذي احرزه هؤلاء الاطفال قد تخطى حدود التقدم الذي يحققهعادة اطفال في اعمارهم . لكن لو اجري تحقيق لمعرفة مدى تكيفهم وتأقلمهم لاحقا مع مجتمع لا يحسب حسابا للعفوية وللتعاون ، فان النتائج التي سينتهي اليها مثل هذا التحقيق ستكون مخيبة للآمال حتما في نظري . ان اطروحة ماريا مونتيسوري بسيطة وانما جذرية . فهي تقول : « اننا نجد عاملا واحدا وراء سائر الانحرافات ، وهو ان الطفل قد حرم ، في سن تكوينه ، من امكانية النمو وفق السيرورة الطبيعية بالنسبة اليه ، في حين كان يفترض في طاقته الكامنة ان تتطور عن طريق تجسدها .. وتوحيدها عن هذا السبيل الشخصية التي تفعل . وان لم يتحقق هذا التوحيد ، اما من جراء حلول الراشد محل الطفل ، واما لانعدام حوافز العمل في الوسط المحيط ، ترتبت على ذلك ظاهرتان : فالطاقة النفسية والقدرة الحركية تنموان نموا منفصلا ، فتخلقان كائنا بشريا منقسما . في الطبيعة لا شيء يوجد او يزول من تلقاء ذاته، وهذا ما يصح بوجه خاص بالنسبة الى الطاقة . لذلك عندما تقسر الطاقة على ان تمارس في اطار ليس بالاطار الذي توقعته لها الطبيعة ، فانها تنحرف وتتشوه .. وينجم هذا التشويه بوجه خاص عن ضياع هدف مجهودها في الفراغ ، في الغموض ، في السديم . ومن ثم فان الفكر الذي كان سينمو بفضل تجربة الحركة لن يجد من ملاذ له سوى عالم الخيال والاوهام (٣) » .

ان ثقافتنا توافق على هذا الهرب الى عالم الخيال لانه متلازم وذلك التجديد للنمو الفردي الذي نعمده باسم «الحضارة» .

---

(٣) ماريا مونتيسوري : سر الطفولة، لندن ١٩٣٦، ص ١٩١ .

ولئـن وضعت بعض مظاهره ، كالصنمية الجنسية او الاستمناء، موضـع استنكار ، فانه يعتبر في مجمله لازمة ضرورية ، بـل محببة ، للقمع . وعديدة هي الاطروحات حول الفن التي تقوم على الفرضيـة القائلة ان وظيفته تتلخص في اعطاء تمثيل وهمي وغير مؤذ لنزعات وميول كانت ستكـون مدمّرة ومناهضة للمجتمـع فيمـا لو تترجمت الى افعال .

ان قمع الطاقـة النفسيـة الذي اشرنـا اليه يطال الصبيان والبنات على حد سواء : فهمـا يُعاملان بالطريقـة نفسها حتـى سـن محددة . لكـن التمييز يحصل مـع ذلك مبكرا ، فالبنـات الصغيرات لا زلن في بعض المدارس يرتديـن صداري زهريـة اللون ، بدلا من صداري الصبية الزرقاء ، واثـوابـا مخفخفـة مصنوعـة من نسيـج ناعـم كمـا انهـن ما زلن يتعرضن للتوبيخ والعقاب اذا مـا لوثن هذه الثيـاب الجميلة او مزقنها .وشعرهن يشبك بالشرائط الملونـة ، ويقال لهن انهـن جميلات ، وانهـن حبيبات آبائهن . وما من شخص في الواقـع يرغب فـي تربيـة طفل لا يعرف الى اي جنس ينتمي . وفي ظل غياب مفهوم واضح عـن الجنسيـة الانثويـة تلقـن الطفلة خصائص النمـوذج الانثوي المقولب . وسرعـان ما تكتشف الطفلة فوائـد استغـلال الضعف والاغراء ، ولا سيمـا انهـا تنجح ، بفضل ذلك ، فـي ان تجعل من والدهـا اداة طيعـة بيـن يديهـا (٤) . اما الصبيـة الصغـار الذيـن يلجؤون الى الحيل عينها ، فانهم يجدون انفسهم مضطريـن الى العزوف عنهـا يوم يقص شعرهم الطويل . الفتـاة بالمقابل تشجع على التظاهـر بالغنج . هذا لا يعني انهـا تتلقـى دروسـا في فـن الاغراء . لكنهـا تتعلمه بالتجربة . ومما يثيـر العجب فعـلا ان الذيـن يحتجون على عرض فيلم حول الحيـاة

---

(٤) فرويد : محاضرات جديدة في التحليل النفسي ، واستير هاردينغ : طريق النساء اجمع ، لندن ، ١٩٣٢ ، ص ٧ ، وماري هايـد : كيف تقوديـن الرجال ، لندن ١٩٥٥ ص ٦ .

الجنسية في المدارس الابتدائيـــة بحجة انه يشكل تهديـدا لبراءة الاطفال، لا يستنكرون القدرة على الاغواء التي تدلل عليها البنـات الصغيرات اللواتي لم يتجاوزن الثالثة من اعمارهن بعد .

بالنسبة الى الصبي ، لا بـد ، عاجـلا او آجـلا ، ان يأتي اليوم الذي ينقطع فيه حبل السرة فيبتعـد عن أمه. وان لـم يحصل هذا الانعتاق ، كمـا هي الحال مثلا في الاسرة الامويـة اليهوديـة ، حكم على الصبي بان يصبح شاذا جنسيا .

وما يحصل مع الصبي اليهودي الذي لا يفلح في الافلات من استبداد امه يقع لكل فتاة حظيت بتربية « نموذجيـة » . فهي تتحول الى لوطي انثوي ، وتمضي حياتهـا في حرق اعصابهـا بصدد سفاسف الامور ، كلائحة المدعويـن الى حفـل عشاء او الوجبة التي يفترض تقديمهـا لهم ، ولا تخرج عـن هذا الدور الا عندمـا تمارس بدورهـا على اطفالهـا ، بموجب حـق الام الالهي ، الاستبداد الذي خنق رغباتهـا وشهواتها .

في مقدور الصبيـان ان يتحرروا من امهاتهم . وغالبا مـا يرغبون في هـذا التحرر ، ولا سيمـا انهم يشجعون عليه .وذلك بعكس البنات الصغيرات . فهنـالـك اجماع على الاعتقاد بأنهـن اكثر من الصبيـان احتياجا الى العطف والرعاية . وهذا يعنـي في الواقع اخضاعهـن لمزيـد من الرقابـة والانضباط . وما ان تباشر الام بتعليم طفلتهـا الفنون المنزليـة حتى تكـون قد بدأت تعدها لاحتلال دور ثانوي فـي الحياة . وتشجع البنت علـى الخوف من العالم الخارجـي بمعاقبتهـا كل مرة تخرج فيهـا من البيت من دون اذن . وفي حيـن يؤلف الصبيـان عصابـات تستكشف الحي من اقصاه الى اقصاه وتعيث فيه فسادا ،تنزوي الفتـاة في دارهـا وتمضي اوقاتها في الاستماع الـى قصص البعبع (٥) . ويبرر هذا الانزواء بضرورة حمايتها ، في حيـن ان

---

(٥) انظـر آنـا اناستازي : علم النفس التفاضلي ، لندن ، و ولتر وود : العاب الاطفال ودورهـا في التربيـة ، لندن ١٩١٣،ص ٨٣ ـ ٨٤ .

الاقامة في البيت فيالواقع هي اخطر انواع الاقاماتبالنسبة اليها. انهم يعلمونهـا ان تخشى العالم الخارجي وان تأخذ حذرها منه لاسباب لا توضح تماما . وهذا التحذير هو بمثابة وقاية غير مجدية . فالمنحرفون الجنسيون لا يتوانون عن الاعتداء على البنات الصغيرات عندما يقمن بشراء بعض الحوائج من الحانوت القريب او يتجولن في الحي بأذن من امهاتهن . وقد اتفق ذات مساء ان فات الاتوبيس فتاة صغيرة ، وبدلا من ان تبادر الى ركوب الاوتوبيس التالي استعملت نقودها للاتصال هاتفيا بامها وابلاغها سبب تأخرها . فدعتها الام الى العودة الى البيت سيرا على الاقدام ، لان سيارة الاسرة لم تكن تحت تصرفها لتأتي اليها بنفسها . وراحت الفتاة تسير فيالظلمة وهي تذرف الدموع هلعا . فتصدى لها شخص غريب ، ابتسم لها ، وخطفها ، واغتصبها ، ثم خنقها ... ومن سخرية القدر ان الذين يغتصبون الاطفال هم بدورهم نتاج هذا التكييف المضلل والمشوه .

وفي حين يكتسب الصبيان تجربة العمل الجماعي ،والتنظيم، والعالم الخارجي ، تقبع الفتيات في بيوتهن ، بلا صوت ولا ضجيج ، يلعبن بالدمية تارة ، ويحلمن او يساعدن امهاتهن طورا . وفي المدرسة ينفقن طاقتهن في السيطرة على انفسهن، في السكوت والامساك عن الكلام ، في الامتناع عن الصخب و « الشقاوة »، في حفظ ما يقال لهن . وفي البيت يمارسن نشاطات جسدية خالية من كل معنى ، لا يرافقها اي نشاط ذهني . ويكون التعارض بين الحسوية والذكاء عندهن اكثر وضوحا وبروزا منه عند اشقائهن . واذا رجحت كفة الحسوية ، فضلن العمل بايديهن ، اي العمل في المطبخ ، في الخياطة ، في الحياكة ، وفق طرق ونماذج ليست من ابتكارهن ، وانما من ابتكار سواهن . فمصممو الازياء ، ورؤساء الطهاة ، والخياطون ، هم رجال ، لا نساء . وعندما

تغـدو النسـاء مثقفات ، فعلى حسـاب تفتح اجسـامهـن وتألقها. فالمثقفـات عادة مكبوتات ، مشبوبـات العاطفـة ، غيـر فعّالات، وخانعات . وقد نجحت بعض النسـاء النابغات في التغلـب علـى رد الفعل المتسلسـل هذا باعترافهـن بحتميته . لكـن مـع ذلـك تبقى اكبر المبدعات من النسـاء حاملات وصمة التفاهة والالتبـاس حتى في اعظم اعمالهـن وانجحها . لقـد ادركت فيرجينيـا وولف جزئيـا هويـة الطريق التي تؤدي الى التحرر لكنهـا دفعت ثمن ذلـك غاليـا . اما جورج اليوت فهي من بيـن النسـاء القلائـل اللواتي استطعـن تحطيم سائر القيـود والتحرر من سائـر الاكراهات . وربمـا كـان مرد هذا التفاوت بيـن مصير المراتين الى افتقار جورج اليـوت الى كل مسحـة جمال والى كـون فيرجينيـا وولف بالمقابل امرأة جذابة . لكـن مهمـا يكـن من امر ، فـان اسباب النزاع الاولـى تعـود الى طفولتهمـا .

الفصل العاشر

البنت الصغيرة

ليس من الانصاف على الاطلاق ان نفترض ان البنات الصغيرات يرضخن لهذه المثاقفة بدون مقاومتها . فكثيرا ما يقابلن الحاح امهاتهن على حسن السلوك ، والاعتناء بالثياب والمظهر الخارجي ، والترتيب والنظام ، بمشاكسة فيها الكثير من التصلب والعناد . وعندما تشب البنت الصغيرة عن الطوق، نراها ترفض ترتيب غرفتها ، وتصر على أرتداء ملابس صبيانية ، وتنضم في بعض الاحوال الى جماعة من الصبية فتقاتل بشراسة للحفاظ على مكانتها بينهم، وتبدي من الصخب والهيجان ما لا يبلغ مبلغهما رفاقها . وكثيرا ما تفقد في اللعب مناديلها وشرائطها ، وتمزق سروالها وهي تتسلق الاشجار، وتنافس الذكور الصغار في اطلاق الشتائم وفي التبجح والتباهي.

قد تستمر هذه المقاومة طيلة سنوات ، الى ان يوجه لها سن البلوغ الضربة القاضية . فعمر الفتاة « المتصبينة » ، كما يقال — من باب التحقير — عن تلك المتمردة المتأججة حيوية،

يتراوح بين الخامسة والخامسة عشرة . ولا يكون التمرد دائما ومطردا بالضرورة ، اما لان البنت الصغيرة تحب ان تدلل وان تغنّج كما تدلل وتغنّج عادة الفتيات المثاليات ، وأما لانها تدرك الفوائد التي تترتب على السلوك الامتثالي ، واما ايضا لانه لم تسنح لها الفرصة لاكتشاف قوتها البدنية ولان ما من شيء من حولها يشجعها على ذلك . ان البنات اللواتي تُغدق عليهن الاشياء الجميلة ، واللواتي يُغنّجن ويُدللن ، يكنّ بوجه عام سبّاقات الى الاستسلام امام صانعي الدمى . انهن يخضعن لرشوة منظمة ومركزة : في البداية تقدم لهن الحلويات ، وملابس لعرائسهن ، ثم ملابس واحذية لهن هن انفسهن ، وفي بعض الحالات يسمح لهن بزيارة الحلاق النسائي وبشراء بعض مساحيق التجميل ، واخيرا تتاح لهن فرصة للتأنق خلال عطلة نهاية الاسبوع ، والزيارات والنزهات ، وحفلات السينما .

لكن حتى البنت الصغيرة التي ترضخ لضغوط امها ولضغوط الذين يصرون على تأنيثها ، تتعرض لتأثيرات متناقضة . ففي الصف يُحرّم التبرج ولبس المصاغ والحلي . كما انه يطلب من الطالبة ان تمارس الرياضة البدنية بانتظام ، مرة في الاسبوع ، على الرغم من رسائل اعتذار امها التي تتذرع بوهن صحتها لاعفائها من هذا الواجب . وتُعيّن لها ، علاوة على ذلك ، مسؤوليات ونشاطات جماعية تبدو لها منفرّة اذا ما كانت سيرورة تأنيثها قد قطعت شوطا كبيرا : فهي تفضل ان تثرثر في زاوية من زوايا الباحة مع رفيقاتها، وان تضحك بالسر على هذه او تلك ، بدلا من ان تلعب بكرة الحائط، حتى وان تكن هذه اللعبة شكلا انثويا لرياضة ذكورية . فهي تخشى ان تعرق او ان تتلوث ثيابها ويداها . اما اساتذتها ، فهم اذ يكيلون المديح والثناء لسلوكها الحسن، يعربون عن اسفهم لقلة ذكائها ولخمولها الفكري الذي يتعاظم باطراد .

لكن ان كانت البنت الصغيرة النموذجية تعاني من متاعب

في المدرسة ، فان البنت «المتصبينة» تعاني بالمقابل من المتاعب في البيت . فهي لا تجد ، خارج اطار المدرسة ، مجالا لممارسة نشاطات جماعية ولا لتلبية حاجتها الى المغامرة . فالاعمال المنزلية تبدو لها منفرّة ، لا تطاق ، والنزاعات التي تعاني منها قد تصبح مصدر حصر نفسي خطير . وقد لاحظ اكثر من استاذ عودة الطالبات المجتهدات من العطلة الصيفية في حالة يرثى لها لشدة ما انهكتهن التربية العائلية . وكلما كبرت البنت الصغيرة وشبت ، فرضت عليها حدود اقسى واشد صرامة . فحتى انطلاقاتها الاكثر عفوية وبراءة تقمع وتلجم بحجة انها « لم تعد تناسب سنها » . وقد تشعر احيانا بأنه قذف بها رغما عنها في شرط نسوي مزر ومخجل ، تخوض ضده صراعا يائسا يدفع بها الى العودة الى تصرفات طفلية ومدمّرة . فهي تغدو عبوسة وخرقاء قبل ان يفسر البلوغ مثل هذه التحولات . والواقع ان العديد من الظاهراتالتي تعزى عادة الى البلوغ ما هي في الحقيقة الا الجهود الاخيرة التي تبذلها البنت الصغيرة للحفاظ على طاقتها . فالمدرسة الابتدائية كانت قد جعلت منها شخصا ، دون ان تقيم تمييزا بينها وبين الصبي . ومن المتوقع ان ينفجر الصراع عندما ستعدّ الفتاة ، في الحلقة الدراسية التالية ، للاختيار بين التفصيل والفنون النسوية ، وذلك تجاوبا مع اعتراضات الامهات على تربية ذكورية اكثر مما ينبغي في نظرهن .

قبل البلوغ تكون البنت الصغيرة كائنا متقدا بالحيوية، ومشبوبا بالعاطفة ، مهما بدت خاملة ومتهافتة المنطق في نظر المراقب الخائب . فالصراعات التي تكابد منها طيلة النهار تستهلك قدرا كبيرا من طاقتها ، لكن ما يبقى لديها من هذه الطاقة يكفي ليجعلها تنفعل وتتعاطف مع قصص المغامرات والبطولات . وهي تتماهى مع ابطالها ، ارجالا كانوا ام نساء . وتكون جنسيتها عاملا اساسيا ، في استجاباتها وانفعالاتها،

وفي ممارساتها الجنسية على حد سواء .

ان البنات الصغيرات اللواتي كن يكتبن رسائل غرام مشبوبة العاطفة لرفيقاتهن او لي شخصيا في المدارس التي علمت فيها ، لم يكن يدركن طبيعة مشاعرهن المضطرمة والملتبسة في آن معا . وبسبب الخطر الذي كان يحرّم عليهن التعبير عن هذه المشاعر ، كن يقعن فريسة للحزن وللاضطراب، بل للهيستيريا، حتى ان يأسهن العاجز كان مثارا في بعض الاحيان للسخرية والتهكم .

وبما ان عاطفتهن كانت تترجم عن نفسها على نحو كاريكاتوري ، فقد كان من السهولة بمكان ازدراؤها والاستخفاف بها وتحويلها الى اضحوكة . ويتسم رد فعل معظم الاساتذة على « هذا النوع من الحوادث » بطابع هدّام الى حد مخيف . فقد رايت ذات مرة استاذة تعاقب فتاة على قصيدة حب بعثت بها اليها بأن تلتها امام حشد من الطالبات والمعلمات ، وراحت تعلق على ابيات القصيدة بسخرية لاذعة ، بينما كانت مؤلفتها تنتظر مصلوبة وصامتة لحظة انتهاء هذه المحنة لتهرب الى المراحيض حيث ستذرف دموعها بلا رقيب ولا حساب .

اما الفتاة التي تغرم بصديقة من صديقاتها فانها لا تدان بالشدة التي تدان بها الفتاة التي تتولع بمعلمتها . ويفسر عادة هذا التعلق العميق والثابت بالجذب الذي تمارسه على رفيقاتهن الفتيات المثيرات او الناضجات جنسيا ، او بالحنين الى الحب الاموي الذي غدا اكثر فتورا من جراء ظهور المنافسة الاوديبية. كما يذهب بعضهم الى تعليل هذه العلاقة بين الصديقتين بالرغبة في تبادل المعلومات السرية التي تشبع الفضول الجنسي . ويبدو انه من الخطورة بمكان التسليم بأن الصديقتين الحميمتين مفتتنتان واحدتهما بالاخرى ، مضطرمتا الفؤاد بمشاعر الغيرية والتعاون ، وفي كثير من الاحيان بروحية حقيقية ، وبان

سلوكهما جنسي وان لم يكن تناسليا. ولو اننا رفعنا هذه العلاقات الى مقام الحب، دون تحفظ متعال، لترتبت على ذلك لا محالـة نتـائج معاديـة للمجتمـع وغيـر مقبولـة . لذا تضطـر الفتاة الصغيرة ، مهمـا كلفهـا الامر ، الى ان تتعلم كيف، تتستـر على مشاعرهـا التي هي مـن أقوى واصدق المشاعـر التي يقدر لهـا ان تخامـرها . فمهمـا اتسمت مداعبتهـا لجسد صديقتهـا بالبراءة ، فانهـا تدرك غريزيـا ، ومنذ لحظـة ولادة حبها ، انها لا تستطيع ان تفعـل ذلك الا خلسـة . ومن ثم تعتاد بالتدريج على النظر الى مشاعرهـا بأعيـن الآخرين ، وعلـى السخريـة منها ، وعلى التنكـر لها . وهـذا ما يوقع خسارة فادحـة بعاطفيتهـا ، ويدفع بهـا الى ان تخطـو خطـوة اخرى على طريق السلبيـة الانثويـة المتميزة باستجابات سطحيـة ومتواكبة بتحفظ عميق . انهـا تنتقل مـن المشاركـة الوجدانية المطلقـة فـي حياة صديقتهـا ، اي فـي حياة الآخر ، الـى غنج وتكلف لقاءاتهـا الغراميـة الاولـى مع الصبيـان ، تلـك اللقاءات التي تحظى بتأيـيد الراي العام .

الفصل الحادي عشر

البلوغ

البلوغ هو المرحلة التي تتلقى فيها المراة ـ الطفلة ، التي لا تزال تناضل من اجل فرض ذاتها ، الضربة القاضية . ومن الصعوبة بمكان تعريف البلوغ . فالجزء الاكبر من النزاعات والصراعات التي ترافقه تعزى ، ظلما وتعسفا ، الى اسباب فيزيولوجية . والبلوغ في نظرنا هو الجحيم بعينه ، ان بالنسبة للصبيان وان بالنسبة للبنات . لكن المسألة لا تعدو ان تكون بالنسبة الى الصبيان مسألة تكيف مع الظاهرات الفيزيولوجية للجنسية التناسلية ، مع احباط دوافعهم الجنسية والشعور بالاثم والحصر النفسي الناجمين عن الاحتلام الليلي وعن التخيلات واحلام اليقظة . اما الفتاة فعليها ان تتوصل بسرعة الى تبني موقف انثوي يقوم على سلبية لاجنسية . فحالما يظهر شعر عانتها تضطر الى ان تتعلم كيف تخفي كل ما له صلة بجنسها . ويتعين عليها ان تتحمل آلام الطمث ومضايقاته وكأن شيئا لم يكن . وبما ان

محيطهـا يحرص على الحؤول دون ان تكتشف حياتها الجنسية، فانهـا تعيش تجربة الطمث كانتهاك لا يطاق لطهارتهـا ، وذلـك حتى ولو هيئت من قبل لاستقبال العادة الشهريـة . فالبلـوغ هـو زمـن حصادهـا لعاصفـة زرعهـا غيرها . فكل الصراعات الكامنة فيهـا تنفجـر في تواقت واحد . وان لم تتمكـن مـن التوفيق بيـن رغباتهـا والتكييف الذي اخضعت له ، انهـارت اعصابها ، واقدمـت على مغامرات وهربت مـن البيت، واساءت التصرف ، وعزفت عـن الاجتهاد والدراسة ، وتبنت مواقف غيـر اجتماعيـة ومدمّرة لذاتهـا في آن معا .

لقد اتفق راي جميع الذيـن درسوا السيكولوجيـا الانثوية، من فرويد الى هيلين دوتش وكارين هورناي ولويس وترمـان ، على التسليم بأن الطاقات الفكرية والقدرات الاخـرى للفتـاة المراهقـة تتراجع على نحـو ملحوظ خلال مرحلـة البلـوغ وبعدهـا (١) . فهي تخسر التقدم البسيط الذي تكون قد احرزته على الصبيـان في الميـدان الدراسي . ويرى البروفسـور شابمـان انه ينبغي تهنئة النسـاء اللواتي استطعـن الحفاظ علـى ظاهـر من التوازن العاطفي خلال هذه المرحلـة من حياتهن ، بيـد ان تعاطفه هـذا ينبع بدوره مـن موقف قائم على التمييز (٢) . فالرجال يقرنون الطمث بصورة طبيعية تمامـا بشعـور المـرأة بأنهـا قـد حرمت من قضيب الذكر ، اي يقرنونه بجرح ينزف، ويرون ان المنطق يقضي بان يجـن جنون المراة لذلك . لكـن لـو اصغينـا الى اعترافات المراهقات لوقفنـا على صراعات نابعة مـن

(١) هيلين دوتش : سيكولوجيـا النساء ، لنـدن ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧ ، ص ١٣٦ ـ ١٣٧ . كاريـن هورناي : السيكولوجيـا الانثوية ، لندن ١٩٦٧ ، ص ١٠٠ ـ ١٠١ . لويس ترمـان : دراسـات في العبقريـة على ضوء علـم الوراثة، لندن ١٩٣٨ ، م ٣ ، ص ٩٣ ـ ٩٤ .

(٢) ج. دودلي شابمان : عقل المراة وجسدها ، نيويـورك ، ١٩٦٧، ص ٦٩ .

مصدر آخـر تمامـا .

« اني اعاني من مشكلـة مزعجة جدا بحيث لا استطيع ان اكلّم امي بصددهـا وان اطلب نصيحتهـا . ففي بعض الاحيـان اشعـر بوحدة قاتلة واود ان اقيم علاقات مع صبي . اني ارغب بكل جوارحي في ان اعيش مغامرة ليس لدي عنهـا فكرة اوتجربة. اعلم اني ما زلت صغيرة للكلام عـن مثل هذه الامور ، اذ انـي لا ازال في الثالثـة عشرة ، لكني لا استطيع ان امنع نفسي عن ذلك، وفكرة اضطراري الى الانتظار لبضع سنوات تروّعني وتكدّرني. اتوسل اليك الا تجيبني بانه ينبغي علي العزوف عن التفكيـر في هذه الرغبة . فهذا امر مستحيل علي . انهـا مستحوذة علي . ارجـوك ، ساعدني » (٣) .

بمَ تمكـن الاجابة عـن مثل هذه الرسالة ؟ هل ينبغي اقناع صاحبة هذه الشكـوى بانهـا تخطيء الظـن بصدد طبيعة رغبتها؟ لكـن اليست هي مدركـة اصـلا ادراكـا اشد حدة مما ينبغي انه لا يجوز لهـا ان تشعـر بمثل هذه الرغبة ؟ . وعندمـا ستبلـغ الخامسة عشرة ، فانهـا ستقتنع على كل حال بأن مثل هذه الرغبة لم تراودهـا قط .

ان ضيق هذه الفتـاة وما ينتابهـا من شعور بالخجل هما حصيلة تآكل شخصيتهـا الدائب . فهي تقف على عتبة حيـاة ستنقضي في التنكـر والتمويه ، وفي طقوس حمقاء ، وتـدرك سلفـا ما ينتظرهـا من فشل واخفاق . وقـد تخف وطأة ضيقها لحيـن من الزمن ، وذلـك ما دامت في مقتبل العمر وموضـع اعجاب الشباب ومغازلتهم ، على ان ضيقها لا يلبث ان يزداد حدة بعـد هذه الهدنـة القصيرة . ان عوارض الصراع الذي تكـابـد منه الفتاة منذ طفولتهـا الاولـى تتجلى بمزيـد من الوضوح فـي مرحلـة البلوغ . فالمراهقـة تشكـو من سرعـة الانفعال والاثارة،

---

(٣) جيمس همينغ : مشكلات المراهقات ، لندن ١٩٥٠ ، ص ٩٣ ـ ٩٤ .

من الكوابيس والغلمة . انهـا تمـر بنوبات من الضحك ،والخجل، والبكاء ، كمـا انهـا تلجـأ الى الكذب ، والى قضم اظافرهـا، وتتحول الى فريسة للهواجس ، وتحمر خجلا لدى سماعهـا ابسط ملاحظة. انها خرقاء، منغلقة على نفسها، تجتر افكارها اجترارا.

عندما تعجز الفتاة عـن حل مشكلـة وضعهـا الجنسـي، وهذا امر شائع، فانهـا تطلب مـن الآخرين ان يجدوا لها الحـل الذي عجزت عـن تصوره . وقد لاحظ جيمس همينغ ، بعـد دراسته للرسائل التي تلقتهـا احدى المجلات الاسبوعية ، ان عدد الرسائل المبعوث بهـا من قبل فتيـات يساوي ضعف عدد الرسائل التي حرّرهـا صبيـان ، وان الرسائل الاولى تجمع على اثـارة مشكـلات تتعلق بمسألة التكيف الشخصي خلافا للرسائـل الثانيـة . وهـو يعزو هذه الظاهرة الى جملة من الاسباب : « ان اصل هـذا التفاوت في ردود فعل الجنسين غيـر واضـح . فربمـا كـان اسهل على الصبيان ان يندمجوا في مجتمع لا يزال، على الرغم من تحرر النساء التدريجي ، واقعـا تحت سيطـرة الرجال. وربما تواجه الفتاة مشكلات لا يعرفها الصبي لان الاهـل يكونـون في العـادة اشـد قلقـا على المراهقات منهم علـى المراهقيـن . وربمـا ايضـا لان الفتاة تبلبلت اكثر من الصبي من جراء الالتباس الراهـن في القيم . او لانهـا ، بفعل السهولـة التي تتمتع بهـا في التعبيـر عـن ذاتهـا كلاميـا ، تجد نفسهـا ميّالـة اكثر من المراهق الى عرض مشكلاتهـا الشخصيـة . او ربمـا ايضـا لان « محظور الحنان » ، على حد تعبيـر البروفسور جيمس سوتي ، يحرّم على الصبيـان ان يبوحـوا بمشكلاتهـم للاخريـن خوفـا من ان يبدوا مخنثين . لكـن مهمـا كان السبب، فـان جميع التحقيقات التي اجريت حول سن المراهقة قد اوضحت ان الفتيـات يعانيـن اكثر من الصبيـان من مشكـلات التكيف والتأقلـم » (٤) .

---

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٥ .

ان جميع الاسباب التي أتى همينغ بذكرها تعتمد على اساس واحد : اضطرار المراهقة الى تأدية دور المخصي. فطلبها للنصيحة دليل بحد ذاته على تخليها عن استقلالها الذاتي. لقد كانت على الدوام موضع رقابة شديدة من قبل ذويها، رقابة اقسى بكثير من تلك التي تفرض على اخيها. وها هي تطالب على حين غرة بالامتثال للسلبية الانثوية، على ان تتولى بنفسها لجم غريزتها الجنسية. وهذه عملية صعبة. واذا ما اخذنا بعين الاعتبار التوترات التي تكابد منها البنت منذ طفولتها فلن نستغرب ان تكون سن البلوغ نقطة الحرج في حياتها.

« غالبا ما يقود تحليل النساء اللواتي يعانين من اضطرابات عصابية او من تشويه في الشخصية الى استخلاص الملاحظتين التاليتين. الملاحظة الاولى هي ظهور التحولات الاولى في الشخصية في سن المراهقة، وان كانت جذور هذه التحولات تعود الى مرحلة الطفولة الاولى .. اما الملاحظة الثانية فهي تلازم ظهور هذه التحولات للمرة الاولى مع الطمث (٥)».

تضع كارين هورناي لائحة باشكال التفكك الرئيسية التي نلقاها عند هؤلاء العصابيات : الشعور بالاثم، الحصر الجنسي، الخوف من عدم الامتثال تماما للمثل الاعلى الانثوي، الالتزام بموقف دفاعي، الحذر، العدائية. وقد وجدت كارين هورناي نفسها مضطرة، بعد التأمل في ما توصلت اليه من ملاحظات، الى ان تعيد النظر في جزء من قناعاتها الفرويدية، مجازفة بالوقوع في الهرطقة. فالبلوغ، بحسب التقاليد الفرويدية، يزيد من شدة عجز البنت عن تقبل دورها الجنسي الطبيعي، اي عن تقبل انوثة اعتبارية تنعت زورا بالنضوج الانثوي. وقد لاحظت كارين هورناي أن الانوثة بحد ذاتها، هي التي تولد

(٥) **كارين هورناي : السيكولوجيا الانثوية، ص ٢٣٤ .**

الاضطرابات المشار اليها ، وان كانت لم تتجرأ على البوح بذلك صراحة . وقد ختمت عرضهـا قائلة انه من الافضل « ان نعلّم الاطفال الشجاعة والجلد بدلا من ان نكبّلهم بالمخاوف » (٦) .

لكن ما الفائدة من الشجاعة والجلد اذا كانت حياة المرأة معدة لان تكون حقل استغلال للرجل ؟ فعندما تكتشف المراهقة ان الصبي الذي يغازلها لا يقدّر فيها سوى الخصائل التي علموها في المدرسة ان تحتقرها وتزدري بها ، فانها تجد نفسها مضطرة الى الاقدام على خيار مشوّه للشخصية أيا ما كان قرارها . فحتى اذا ما قبلت بدور الطعم الجنسي ، فانها ستتألم من جراء ذلك الخيار . فعندما تترقب الفتاة رنين جرس الهاتف وهي تخفي عن ذويها وعن نفسها الاهمية التي تعلقها عليه ، فانها تفرض على نفسها انضباطا ذاتيا يهدد بأن يصبح جذريا . فنادرا جدا ما تجد نفسها في وضع لا يكون فيه الكبت ضرورة ملحة ومطلقة . وحري بالمنظرين الذين ينفون وجود جنسية انثوية ان يحضروا حفلات موسيقى البوب التي قدر لي مشاهدتها وحيث يبدي الآلاف من المراهقات ، اللواتي تتراوح اعمارهن بين الثانية عشرة والسادسة عشرة ، عن انفعال مسعور وهيجان جنوني امام الاستعراء الذكوري والموسيقى المثيرة .

ان عذابات البلوغ باختصار هي حصيلة تكييف يشوه شخصية المرأة كيما يجعلها « انثوية » .

---

(٦) المصدر نفسه ، ص ٢٤٤ .

الفصل الثاني عشر

خداع علم النفس

ان التكييف الذي تخضع له النساء يحثهن على التخلي عن استقلالهن الذاتي وعلى طلب التوجيه من الآخرين . والعدد المرتفع من النساء اللواتي يلجأن الى نصائح المحلل النفسي الابوية خير مؤشر على الطابع المتكلف والمصطنع لتصورنا عن الانوثة. وما دمنا لا نستطيع ان ننكر التوتر الدائم الذي يولده الشرط النسوي ، يتعين علينا ان نفسره . وتنطلق السيكولوجيا التقليدية ، في محاولتها تفسير هذه الظاهرة ، مثلها مثل اللازم في مسرحية سترندبرغ **الأب** ، من الفكرة الجزافية القائلة ان النساء قد اخضعن لتكييف يتناقض مع وظيفتهن البيولوجية ، ألا وهي تربية الاطفال والاهتمام بشؤون البيت . ان المراة التي تستنجد بنظريات عالم النفس قد تجد فيها بعض العزاء او ما يخفف من حدة الصراعات التي تعاني منها، لكن النتيجة التي تصل اليها ملتبسة الدلالة . فهي تدرك ان الاكراهات التي تتمرد عليها تقوم على قاعدة صلبة من الوقائع

والنظريات التي يتحتم عليها التكيف معها اذ لا امل لها في تغييرها . وهي تحتاج الى طبيب نفساني آخر كيما يوضح لها ان الافكار المسبقة تشوّه الملاحظة وتحرّفها وأن علم النفس محافظ من حيث جوهره . وفيما يتعلق بالمرأة ، فان الطب النفساني لا يقدم لها الا الخداع والاضاليل . فالمخلوقة الساذجة تطلب المساعدة لانها تشعر بنفسها حزينة ، قلقة، ضائعة . فيقنعونها بان علّة هذا الوضع تكمن في ذاتها. ذلك ان تغيير الفرد اسهل بكثير من تغيير الوضع القائم الذي يتمتع بقيمة عليا من منظور فلسفة عالم النفس المتفائلة . واذا ما فشلت الوسائل العادية في تحقيق الهدف المبتغى كان اللجوء الى الصدمات الكهربائية ، والتنويم المغنطيسي ، وغيرهما من العلاجات لحمل الفرد على ان يمتثل لمتطلبات المجتمع . فما دام علماء النفس لا يقوون على تغيير العالم ، فانهم يحاولون تغيير المرأة . لكنهم يعجزون في الواقع عن بلوغ هذا الهدف . فقد جاء في استقصاء اجراه ايزنك Eysenck في عام ١٩٥٢ ان ٤٤ بالمئة من الافراد الذين اخضعوا لاستشفاء تحليلي نفسي شعروا ببعض التحسن ، وان ٦٤ بالمئة من الذين عولجوا بوسائل اخرى ، كالعقاقير والجلسات الكهربائية ، الخ ، شعروا بتحسن مماثل . وهذه النسبة ارتفعت الى ٧٢ بالمئة بالنسبة الى الذين لم يطبّق عليهم اي علاج . وقد جاءت التقارير اللاحقة التي وضعها بارون وليري وبرجين وكارترايت وفوغيل وترواكس تثبت هذه النتائج السلبية (١) .

ان فرويد هو ابو علم النفس ، الذي ليس له من أم . وان كان فرويد ليس بصانع هذا العلم الوحيد ، فان الاطروحات اللاحقة قد عززت المذهب ودعمته حتى عندما كانت تنقض

---

(١) ناومي فايستنشتاين : علم النفس يعيد بناء الانثى ، في مجلة Motive عدد اذار ـ نيسان ١٩٦٩ ، ص ٧٨ ـ ٨٥ .

نظرياته ، اي نظريات فرويـد . وربمـا كان من المفروض ان ننظر الى علم النفس على انه ميتافيزياء ، بيـد انـه احيط في الواقع بالاحترام الذي يحاط بـه العلم . وقد عبّر فرويـد بنفسه عـن اسفه لعجزه عـن فهم النساء ، كمـا انه ابدى مع الايام عـن تحفظ متنام في اطلاق احكامه وتأكيـداته القطعية . وربمـا كانت الطريقـة المثلى في التطرق الى نظريات فرويـد حول النساء تلك التي طبقهـا البروفسـور ايـان سوتي الذي عمـد الى تحليـل فرويد ذاتـه نفسيـا (٢) . فحجر الزاويـة في فكـر فرويـد يتمثل في اليقيـن الذكوري بأن المراة رجل مخصي . ويسلـّم هذا الفكـر بأن المراة تتألم لحرمانهـا من القضيب وان بعضا مـن تحفيزاتهـا مصدره محاولتها انكار هذا الوضع ، وهو انكار يشهد على عدم نضوج النساء اللواتي يمارسن جنسية بظرية، او يحاولن التعويض عـن هذا النقص بانجاب الاطفال . وهذه توتولوجيـا (تحصيل حاصل) منغلقـة على ذاتهـا ويستحيل اثباتهـا او دحضها . وارنست جونز ، الذي راقب عن كثب الحياة الجنسية عند البنـات الصغيرات ، اعرب عـن شكوكه في صحـة هـذه الفرضيـة ،على الرغم من اعجابه الشديد بفرويد .

« ثمة فكرة مثيرة للقلق تراودنـا وهي ان الرجال الذيـن مارسوا التحليل النفسي قد تبنوا وجهة نظـر قضيبيـة متمحورة على ذاتهـا اكثر مـا ينبغي قادتهم الى الانتقاص من اهمية الاعضاء الانثويـة » (٣) .

وقد ظلت هذه الفكـرة « مثيرة للقلق فحسب » . اذ انها لم تتمخض عـن اطروحـة جديدة . فقـد ظل المحللون النفسانيون يؤمنـون بوجود صدمة ولاديـة على الرغم من وضوح العكس .

---

(٢) ايان سوتي : اصول الحب والكراهية ، لندن ١٩٣٥ ، ص ٢٢١ .

(٣) ارنست جونز : النمو المبكـر للجنسيـة الانثوية ، في «مقالات في التحليل النفسي» ، لندن ١٩٤٨ ، ص ٤٣٨ .

الايمان لا يحتاج الى اثباتات او أدلة . ونمو البنات ، من منظور فرويد ، مماثل لنمو الصبيان مع تعقيد أضافي يتمثل في اكتشاف البنت انها قد فقدت قضيبها . ان جنسيتها الطفلية ذكورية بصورة اساسية ، وانما مقترنة بتقييدات بعيدة المدى .

« معلوم ان التميز القاطع بين سمات الذكورة والانوثة لا يظهر الا في طور البلوغ .. والحق ان الاستعدادات الذكرية والانثية تفصح عن وجودها في عهد الطفولة بالذات وان ضروب الكف الجنسي (الحياء، القرف ، الشفقة) تنمو في عمر مبكر لدى البنات الصغيرات ... وحين تتظاهر لديهن الغرائز الجنسية الجزئية تتلبس ايثارا الشكل السلبي . غير ان النشاط الايروسي الذاتي للمناطق الشهوية واحد لدى الجنسين ، وهذا يحول دون ظهور الفارق الجنسي في سني الطفولة بالوضوح الذي يظهر عليه عقب البلوغ . وان اخذنا بعين الاعتبار التظاهرات الايروسية الذاتية والاستمنائية ، جاز لنا ان نتقدم بأطروحة مفادها ان جنسية البنات الصغيرات ذات طابع ذكري في اساسها » (٤) .

هذا الكلام هو السخف بعينه . فمفهوما التشابه والتباين مجردان من كل معنى . والضبط الغامض للشخصية عن طريق قمع تلقائي لا ينطوي على اي قيمة تفسيرية . وما يتجلى بوضوح من هذه التأكيدات هو قناعة فرويد بأن الليبيدو في اساسه ذكري . اننا نكتشف ايديولوجيته ، لكن دون ان نعلم جديدا عن الواقع الذي يستند اليه .

« ان الازدواجية بين المذكر والمؤنث ما هي الا التعبير، بمصطلحات جنسية ، عن ازدواجية الايجابية والسلبية .

---

(٤) سيغموند فرويد : ثلاثة مباحث في نظرية الجنس ، (الترجمة العربية ، ص ٩٢) .

والايجابيــة والسلبيــة تمثلان الاندمــاج المؤقــت وغير الثابــت بيــن الحب والموت المتصارعين ابدا • وقد ماثل فرويــد الذكورة بالعدائيــة ، والانوثة بالمازوخية » (٥) .

والواقع اننا اذا اردنــا ان نقيم علاقة ثابتة بين قوى الخلق وقوى الهدم، توجب علينــا العدول عــن القطبية . اذ يتعــذر علينــا البقاء على قيد الحياة في وســط من السادية الذكوريــة والمازوخيــة الانثوية ، في عالم من المعتديــن والضحايــا . وقــد سلّم فرويــد بصحة ذلك ، لكــن دون ان يخرج بالاستنتاج اللازم فيمــا يتعلق باطروحته حول الطابع الجوهري للشخصية الانثية. بل عمد بالعكس ،هو وتلامذته ، الى عرض مفهومهم عن المازوخية الانثويــة وكأنهــا حتميــة الهيــة فرضتهــا البيولوجيا .

فالمراة التي ترفض دورهــا الجنسي بتجاهلها رسالة الطمث، اي رسالة الانجاب،تعاني في نظرهم من تثبيت طفلي وعدائي يحول دون تغلبهــا على حسرتهــا على القضيب المفقود . وحتى اذا كانت ايجابيــة جنسيــا ، تكــون استجابتهــا ذكريــة ، اي مرتبطــة بالبظر ، لا بالمهبل . وتنجم مازوخية المراة عندمــا تبلــغ ســن النضوج عن رغبتهــا في الخضوع لعدوانية الرجل الذي يرغــب فيهــا ، ولا حد يحد هذه المازوخيــة سوى النرجسية التي تحثّ المراة على حمايــة نفسهــا بفرض شروط اخلاقية وشكليــة وجسديــة • وهي تعبّر عن جنسيتهــا خلال الفترة التــي تفصل بيــن النضوج والمجامعــة بواسطــة تخييلات سلبية . ولا تصــل الى الاكتمال الا عندمــا تخصب ، لان الطفل يمثل في نظرها العضو المفقــود : انــه من صنعهــا . وتزول التخييلات ، وتحل محــل النرجسية المازوخيــة طاقة مكرسة لحمايــة الطفل وتكييفه مــع حياة المجتمع . وهذا في الحق وصف جيد لوضع الاشيــاء الراهن • وقد عرف هذا الوصف كيــف يغري حتــى العالمــات

---

(٥) نورمان براون : الحياة ضد الموت ، ص ١٢١ .

النفسيات اللواتي لم يتجرأن على ان يدحضن ، باسم التجربة الذاتية ، وقائع بدت موضوعية . وقد مارست النظرية ، من جهة اخرى ، ضغطا معنويا . فالمرأة التي تدرك ان البظر هو مصدر نشوتها الجنسية راحت تخشى ان تُعيّر بعدم النضوج وبالحنين الى القضيب . اما المرأة التي تسعى وراء اهداف ايجابية فتعرّف اساسا بأنها عاجزة عن التكيف مع دورها الاجتماعي ، وبأنها ذات شخصية طفلية في الارجح .

« ان النشاطات الصحية في جوهرها والطاقة الاجتماعية والفكرية التي تبذلها الفتاة الشابة التي تقلع عن تخييلاتها كثيرا ما تترافق بضمور حياتها العاطفية يحول دون بلوغها كمال الانوثة ، ومن ثم الامومة . ومن المثير للاهتمام ان نلاحظ ان النساء اللواتي يتمتعن بطاقات فكرية باهرة يبقين اسيرات اشكال انفعالية طفولية . ويبقى ان نبرر ذلك . فالانتقال من الاستيهام الى كمال الانوثة هو على ما يبدو سيرورة سيكولوجية مهددة بأن تخل بها عملية التعقيل » (٦) .

ان ترتيب الاولويات عند هيلين دويتش واضح جلي . فاذا كانت العقلانية تحول دون التأنيث ، فمن الواجب التضحية بها.

لقد ظلت هيلين دويتش في الواقع شديدة التعلق بالنموذج المقولب « للانثى الخالدة »، على الرغم من ادعائها الانتماء الى عالم الفكر والعقلانية . فالصورة التي ترسمها عن رفيقة العمر المثالية صورة دامغة حقا :

« .. اذا كانت تملك درجة كافية من هبة الحدس الانثوية ، تكون معاونة مثالية كثيرا ما تلهم رفيقها ، ويندر ان تصل الى مثل السعادة التي تصل اليها في ادائها لهذا الدور ... انها اكثر المعاونات قدرة على الجذب والاغراء واقلهن عدائية .. وتكون على الصعيد الجنسي سريعة الانفعال ،ونادرا

---

(٦) هيلين دويتش : سيكولوجيا النساء ، م١، ص ١٠١ .

ما تتسم بالبرودة . ولكن في المضمار الجنسي تحديدا تفرض شروطا نرجسية لا محيص عن التقيد بها مطلق التقيد . فهي تطلب الحب وامكانية التخلي بحمية عن ميولها ونزعاتها الايجابية .

« واذا كانت صاحبة مواهب ، فهي تحافظ على قدرتها الابداعية الشخصية ، ولكن دون ان تدخل في منافسة مع الرجل . فهي على استعداد دائم للعدول عن التألق والتفوق دون ان ينتابها شعور بأنها تضحي بذاتها . انها تشعر بحاجة فائقة الى الدعم والتأييد عندما تقوم **بنشاط موجه نحو الخارج** ، لكنها تشعر بالمقابل باستقلالية تامة في كل ما يتعلق بحياتها الداخلية ،اي **بنشاطها الموجه نحو الداخل** . ان طاقتها على التماهي ليست تعبيرا عن فقر ، وانما عن غنى داخلي » (٧).

ان الصورة التي تطالعنا في هذا النص هي في الحقيقة صورة المرأة المثالية كما يتصورها مجتمعنا ، وهذا النموذج، بما هو كذلك ، غير قابل للتحقيق . ان امرأة كهذه لا يمكنها ان تكون شخصا ، لانه لا وجود خاصا لها . وليس لها من اهمية لها الا بدالّة رفيقها الذي تخضع له كليا . ومقابل تضحياتها وتعاونها وتكيفها وتماهيها ، تُداعب ، وتُشتهى ، لكن دون ان تكون هدفا يطمح الرجل الى بلوغه . ويكفي ان يبرز ثؤلول على انفها حتى ينهار البناء برمته ، وذلك ما دامت هيلين دويتش حرصت على التأكيد بأنه يتعين على المرأة المثالية ان تكون فاتنة ، جذّابة . لكن بأي حق تطالب هذه المخلوقة بحب مضطرم تعجز هي عن منحه ؟ فهي تافهة ، مزعجة ، خانعة ، ومملة. انها نموذج للمرأة التي يهجرها الزوج الناكر للجميل عندما يبلغ القمة التي تكون قد ساعدته على ارتقائها ليذهب مع

---

(٧) المصدر نفسه ، ص ١٥١ .

فتاة بلهاء دون العشرين من عمرها . ذلك هو النموذج الذي اقره « علم » التحليل النفسي : مزيج من الاخلاقية ومن الاحكام المسبقة خال من كل منطق سليم. ومع ذلك فان الجيل الجديد من المحللين النفسانيين لم يعيدوا النظر في هذا الضلال. فبرونو بتلهايم، على سبيل المثال، يؤكد انه ينبغي ان ندرك قبل اي شيء اخر ان النساء يرغبن في المقام الاول في ان يكن امهات ورفيقات انثويات للرجل، حتى ولو اردن ان يصبحن عالمات ومهندسات جديرات (٨) .

وقد ابتدع اريك اريكسون المفهوم غير المعقول الذي يقول بوجود **مجال داخلي في بنيان المراة الجسدي**، اي فراغ في الراس تتولد منه الرغبة الطاغية في تربية الاطفال .

والحال ان النساء اللواتي خضن تجربة الزواج والامومة بتفاؤل ورومانسية هن اللواتي يعبرن عن خيبتهن بأكبر قدر من العنف والحدة، ويدللن على استبدادية لا تطاق في علاقاتهن مع اولادهن. ذلك ان الحتمية البيولوجية لم تأخذ في حسبانها ان تكون الامومة تعويضا للمراة عن تخليها عن جميع اشكال تفتح شخصيتها وعن توكيد ذاتها .

كما ان الطبيعة لم تتوقع ان تتطلب العناية بالاطفال كل ذلك الوقت، وكل ذلك الاهتمام. ان الاستبداد الاموي هو واحدة من آفات مجتمعنا الكبرى. وان المناضلات النسويات اللواتي صفقنا للنتيجة التي انتهى اليها ماسترز وجونسون، حينما اكدا ان النشوة الجنسية عند المراة هي على الدوام بظرية المصدر، أوهمن انفسهن بأن هذا «الاكتشاف» قد قضى نهائيا على الاستيهام الفرويدي. لكن في وسع الفرويديين في الواقع ان يجيبوا بدورهم بأن جميع النساء اللواتي اختبرهن ماسترز وجونسون قد يكن

(٨) برونو بتلهايم : النساء والمهن العلمية ، في تقرير عن « ندوة النساء الاميركيات في العلم والهندسة» ، ١٩٦٥ .

طفليات، بالنظر الى سوء تكييفهن، وبان الرعشة المهبلية موجودة، او كان يفترض فيها على الاقل ان تكون موجودة .

نستطيع، بالاعتماد على الواقع الموضوعي، ان نرفض مسلمات التحليل النفسي الفرويدي، باعتبارها اكراها اضافيا ينضاف الى عملية القمع الذاتي، لنعتمد على ملاحظاتنا الخاصة وعلى التجربة التي يحققها لنا تفاعلنا مع وسطنا. فالنظرية الفرويدية ليست صرحا تعسفيا وكيفيا فحسب، بل أنها ايضا غير قابلة للتطبيق. فحتى لو شئنا فعلا ان ننجب عدد الاطفال الذي تقتضيه صحتنا النفسية كما يتصورها فرويد، فاننا سنجد انفسنا عاجزات عن ذلك. فلو كان على النساء ان يسرن عاريات الاقدام وان يكن حاملات باستمرار ، كما اقترح ذلك مارك توين ، لكان من الواجب أبادتهن جميعهن .

ان علم النفس، بادعائه ان المازوخية هي دور المراة الطبيعي، يعزز سيرورة التطفيل Infantilisation التي تكابد منها منذ ولادتها. ان عذاب المراة الداخلي لا ينجم عن فشلها في تحقيق الصورة التي يصنعونها لها عن نضوجها، وانما عن تمردها على العوائق التي تحول دون استخدامها طاقاتها الخاصة لتحيا وتعمل. فمنذ لحظة ولادتها، حيث تسمّر في مهدها، الى لحظة وفاتها، حيث يخلع عنها آخر قميص جبري فرض عليها، تنزع الضغوط التي تمارس عليها الى اعادتها الى الحالة الجنينية. وليس هنالك سوى سبيل واحد للعودة الى داخل الرحم : انه الموت. فالضغوط التي تخنق في الاشواك افراح المراة ورغباتها هي التي ستقضي على العالم بالدمار. فاذا ما حكم على نصف الكائنات البشرية بان تظل اسيرة الموت، خسر ايروس معركته ضد اسلحة الدمار الجماعي. وهل سباق التسلح والحرب الباردة الا استمرار للمنافسة وللعدوانية الذكورية في حقل لاانساني هو حقل المؤسسات الخاضعة لتوجيه العقول الالكترونية ؟ واذا كانت النساء لا يرغبن في الاستمرار في انجاب اولاد منذورين سلفا للموت

في ساحات القتال، فان عليهن ان ينقذن الرجال من الانحراف والضلال الناجمين عن استقطابهم بالذات. وربما كان الصراع طويلا، وربما كان اصعب واشق من الاستسلام. ولسوف يدور في الظلمات، لان ما من معرفة نتباهى بها، علمية أكانت ام غير علمية، تعطينا الحل سلفا، او تكشف لنا عن الخاتمة التي سيؤول اليها هذا الصراع. فهل هو جدير بأن يخاض ؟

الفصــــل الثـالث عشر

المادة الاوليــة

على الرغم من كل ما ذكرناه عن آثــار التكييف الاجتماعي على نمو المراة، فان بعضهم قد يثابر على الاعتقاد بأنها تعاني من قصور عقلي وراثي بسبب جنسها. وبحكم الافكار المسبقة التــي انطلــق منهــا المراقبون الذين اجروا الابحاث التي ترمي الى بيــان هذا القصور العقلي وتسليط الضوء عليه، فانه كان من المنتظـــر ان يتوصلوا الى «اثباته». لكن الغريب في الامر انهم لم يتوصلوا قــط الى ذلك. فمنذ اكثر من خمسين عاما جرت محاولات منهجيــــة لدراسة جنس العقل البشري. ومن المعلوم ان الهورمونات الجنسية تدلف الى الدماغ، لكن لم يتوصل احدهم حتى الان الى اقامــــة صلــة بين هذه الواقعة الفيزيولوجية من جهة والطاقات الذهنيــة او السلوك من جهة اخرى. لقد ذهب بعضهم الى الاعتقــاد بــأن انخفاض وزن دماغ المراة، بالمقارنة مع وزن دماغ الرجل، يشكــل حجــة تسمح بالاستنتاج بان ذكاء المراة هو دون ذكاء الرجل. بيد ان دماغ المراة، بالمقارنة مع الوزن الكامل لجسمها، هو في الواقع اثقــل من دماغ الرجل. وحالما اتضح ان هذه الحجة قد تأتي فــي

صالح المراة، لا في صالح الرجل، سارع المتذرعون بهـا الـى التسليم بـان وزن الدماغ لا ينطوي على اي اهمية فـي تحديـد الذكاء. واذا كان الفصان الجبهيان هما مقر الذكاء، فانهما اكثـر نمـوا عند المراة منهما عند الرجل. نستطيع اذن ان نستبعد هـذا الاعتراض ايضا . والواقع ان فيزيولوجيا الدماغ وطريقة اشتغاله مجهولان الى حد يتعذر معه علينا ان نستخلص اي شيء منهمـا بصـدد طاقـات الفـرد .

لقد راى بعضهم ان المنطق يقضي بتحديد انماط السـلوك على اساس الملاحظة بدلا من استنتاج السلوك من الفيزيولوجيا. لكن هـذا الخيار يطرح بدوره مشكلات. فمن المستحيل اجراء تجارب صارمة ودقيقة على افراد خاضعين باستمرار لتكييـف الحيـاة الطبيعية الفوضوي. وليس هنالك افرادا غير مكيفين ، والمكيفون لا يخضعون لتكييف من نمط واحـد. ولو كشفـت التجارب والاستبارات التي اجريت بهذا الصدد عن نقص فكري لدى المـراة لحق لنا الطعن في هذه النتائج. لكن ذلك لم يحصل اساسا .

في عام ١٩٦٦ جمعت اليانور ماكوبي حصيلة خمسين عاما من الاستبارات في كتابها **التطور المتفاوت للجنسين**، وعمدت الـى تصنيف نتائج هذه الاستبارات وفق تقسيمات غطـت شتـى المجالات. وفيما يتعلق بالاستبارات التي اجريـت حول الملكـات الادراكية، فقد جاءت نتائجها ملفتة جدا للانتباه. فقد اتضح مـن الاستبارات التي اجراها جيزل واخرون (١٩٤٠) ، وكذلك ترمان (١٩٢٥)، ان البنات يتكلمن قبل الصبيان. كما اظهرت جميـع الدراسات الاخرى حول اكتساب اللغة ان البنات يحققن تقدمـا اسرع من الصبيان ، مع ان الصبيان يدللون على تفوق في الحالات التـي تقتضي المبادرة والثقة بالذات، كالتكلم في الصف مثـلا. ويتعمق التفاوت ويتوضح مع التقدم في السن. فلغة الفتيـات تبدو اغنى بالمفردات، وانما في حدود. كما أنهن يظهرن تفوقا في قواعد اللغة وفي الاملاء، وفي القراءة ايضا. وقد اخضعت جميع الملكات الادراكية غير الشفهية : الحساب، المحاكمة الرياضية او

التجريدية، الاحساس بالمكان، التركيب، سرعة الادراك، المهارات اليدوية، القدرات الميكانيكية او العلمية، اخضعت جميعها للاستبيار فلم تكشف عن تفاوت يذكر، اللهم الا عن تفوق ضئيل للبنات ، تفوق يدن به على الارجح لمثاقفتهن ، وللوقت الذي يمضينه مع الراشدين، ولعاداتهن السكونية، ولطاعتهن، وايضا لاستعدادهن لتصديق ما يقال لهن. ولم تكشف الاستبارات حول الحاصل الذكائي الاجمالي عن اي تفاوت بين الجنسين في احدى عشرة حالة .

عند اجراء الاستبارات يحدث خلط اساسي بين الابداعية والعلامات الجيدة التي يحصل عليها التلميذ او التلميذة في الصف. فقد اجرى لويس ترمان على سبيل المثال دراسة حول العبقرية، بأن تتبع المسار الحياتي والمهني لمجموعة من الاطفال المتفوقين . بيد ان ملاحظاته جاءت محرفة ومشوهة من جراء تصور ضيق للغاية عن العبقرية. فهو يكيل المديح لقصيدة شعر الفتها فتاة تدعى سارة، مع ان هذه القصيدة لا تعدو كونها محاكاة حرفية لشعر تقليدي يعود الى القرن السابق ولا تدلل الا على طاقة سارة الشابة على الاستيعاب والتمثل. بيد ان هذه الابحاث تبرز مع ذلك نزعات قد تتيح لنا ان نفهم لماذا تتخلف البنات بالتدريج عن الصبيان ويتركن المدرسة ومستواهن الثقافي منخفض للغاية وبدون اي تأهيل مهني. وقد رصد المحققون، على الرغم من خلطهم بين الاستقراء والتربية، عددا من الملاحظات تفسر الى حد كبير ما يعيق تفتح طاقات البنات الفكرية .

«ينزع الاطفال السلبيون والتابعون، اصبيانا كانوا ام بناتا، الى الاستجابة الخاملة للمهام الفكرية التي يبرع فيها الاطفال المستقلون ...»

فالاطفال الذين يرفضون الانحناء امام السلطة ينجحون في اداء عدد من المهام ؛ وكذلك الاطفال الذين يقاومون الضغوط الامتثالية .

«ان البنات اللواتي لم تحتضنهن امهن كثيرا في المرحلة ما

قبل المدرسية يأتين في مقدمة التلميذات المتفوقات ... فالعامل الحاسم في نمو الحاصل الذكائي عند البنات هو، خلافا لما هو عند الصبيان، الغياب النسبي للقيود الاموية، وحرية الذهاب والاياب لاستكشاف وسطهن » (١) .

وقد تفسر هذه الملاحظة عجز النساء عن انتاج الاعمال الفنية العبقرية وكذلك تخلفهن الظاهري عن الرجال في ميادين اخرى. فقد تتألق البنت الصغيرة في النشاطات الفكرية الخلاقة، بقدر ما تنجح في الافلات من قبضة التكييف او في رفضه، غير انها تستسلم في نهاية المطاف أمام ضغط المجتمع، هذا ان لم تنتقص حدة النزاع من فعاليتها. وتعلن اليانورا ماكوبي عن عجزها عن ادراك سبب ذلك التأثير السلبي والمضر الذي يمارسه نمو الحياة الجنسية على قدرات البنات الفكرية . مع انها تستشهد براي ماكينون حول العلاقة بين القمع والطاقات العقلية :

«ان للقمع، في راي ماكينون، اثره الحاسم والعام في العمليات العقلية، لانه يحول دون ان ينفذ الفرد بحرية الى التجربة المكتسبة. فالفرد الذي يستخدم القمع او الكبت كاوالية دفاع يعجز، على حد تعبير ماكينون، عن تقويم الافكار بسرعة. لقد بين ماكينون ان الابداعية ترتبط بغياب القمع والكبت، كما اوضح بارون ان الاصالة منوطة بالقدرة على التجاوب بعفوية مع الدوافع والانفعالات» (٢) .

من المؤكد ان وجهة نظر ماكينون تفسر الاضمحلال التدريجي للمزايا الفكرية للبنت مع تبنيها سيرورة الكبت التي لقنها اياها ذووها ورؤساؤها. وانه لمن المستحيل ان نؤكد ان طاقات المراة العقلية هي،من الاساس،دون الطاقات التي تخلق عبقرية الرجل. بيد ان المراة لن تستطيع على ما يبدو ان تثبت ذلك الا عن طريق التمرد المكشوف .

---

(١) لويس ترمان : : دراسات في العبقرية على ضوء علم الوراثة، ص ٢٩٤.

(٢) اليانورا ماكوبي : التطور المتفاوت للجنسين ، ص ٣٥ .

الفصـــل الرابـــع عشر

سلطـــان المرأة

ان كانت الاستبارات التي اجريت بهدف اثبـات وجــود تفاوت في طاقات الجنسين الفكرية قد منيت بالفشل، فان هذا الاخفاق لم يغير راي الذين يشككون في قدرة المرأة على ممارسة بعض المسؤوليات او النشاطات. انهم يعتقدون انه ينبغي توجيه اللوم الى القائمين بالاستقصاءات والى الطرق آلتي اتبعوهـا . فقـد كان البروفسور ليفيس Leavis علـى سبيـل المثـال مقتنعا بقدرته على تحديد جنس الكاتب بواسطة اسلوبه، وان كان محكوما بالضرورة على كتابات المراة ان تكون تقليدا لرائعة ما من روائع الرجل. فعلامَ تلام فيرجينيا وولف في نهايـة الامر ســوى علـى انهـا امـراة ؟

ان الكشف عن جنس العقل ليس وقفا على الادباء البارزين من البروفسور ليفيس الى نورمان مايلر (١)، بل انه يشمــل

(١) راجع ماري الماِن : اراء حول النساء، لندن ١٩٦٩، ونورمان مايلر: المتوحشون والمسيحيون، لندن ١٩٦٩ ، ص ١٣٢ .

ايضا اميي الجنس، التلاميذ الذين يلعنون البنات. وانما لان لدى بعضهم اقتناعا راسخا بوجود تفاوت بين الجنسين، فقد غدا هذا التفاوت حقيقة واقعة. فالاقتناع يحدد السلوك، فيتحول الى علة دائمة للظاهرة .

في كتاب **الجنس والطبع**، الذي الفه اديب شاب يدعى اوتو فاينغر اقدم على الانتحار بعد انقضاء سنوات معدودة على صدوره، نلقى واحدة من اشمل النظريات حول النفس الانثوية. ان حياته المتألقة، والعصابية، هي خير مثال على الانعكاسات السلبية القصوى للتفرقة الجنسية . لقد حكم فاينغر على نفسه، عندما عمد الى تفكيك الطبيعة البشرية والى نصب حدود بين الجنسين المتحاربين، بالانحراف، وبالشعور بالاثم، وبالموت المبكر. فقد بدأ باختزال النساء الى اجسادهن، وعزى اليهن جنسية لاشعورية، وبالتالي طبيعة حيوانية سلبية . وقد ادان، بصفته رجلا محبوا بعقل، هذا العنصر الحيواني : «ان ما من رجل يتمعن في التفكير بخصوص النساء يحفظ لهن قدرا من التقدير. فان لم يحتقرهن ، فهذا يعني انه لم يتمعن في التفكير جديا» (٢) .

لقد ضم صوته الى فرويد، الذي تجمعه واياه جملة من النقاط المشتركة، ليقول ان النساء، بطبيعتهن، مخصيات. ولما كان يكن عميق التقدير للقضيب ، فقد افترض ان النساء يشاركنه هذا الموقف .

«في الواقع، ان جسم المرأة العاري تماما يولد شعورا بعدم الاكتمال ، بنقص يتنافى مع الجمال . . .ان المرأة تعبد الفالوس Phallus اساسا » (٣) .

ان فاينغر، الذي ذهب بالتفرقة الجنسية الى نهايتها

---

(٢) اوتو فاينغر : الجنس والطبع، لندن ١٩٠٦، ص ٢٣٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٤١ ، ٢٥٠ .

القصوى، قد لاحظ انه من المتعذر على الرجل في ظل مثل هذا الاستقطاب ان يعرف المشاركة الوجدانية مع المرأة، وانه محكوم على العلاقات التي تجمع بينهما بألا تقوم الا على المساومة والمراوغة المشتركة .

وقد عكست فاليري سولاناس الآية (٤) ، فأثبتت ان الرجال هم الذين يحسدون النساء ويتطلعون الى الاذلال والتخنث على ايديهن. وقد انتقمت لبنات جنسها باطلاقها النار على الفنان اندي فارهول. اما فاياننغر فقد اختار، بنزاهة ، ان يقتل نفسه. واذا كانت فاليري سولاناس تحتقر الرجال بسبب غرورهم وعجزهم عن تحقيق نموذجهم المقولب، فان فاياننغر يحتقر النساء لان الصورة التي كونها لنفسه عنهن تتسم بالسلبية والحيوانية ولانهن، في الوقت نفسه، لسن على هذه الصورة فعلا. انهن يتظاهرن بعكس ما يضمرن نزولا عند ضرورة استغلال الموقف الجنسي المفروض عليهن. من هنا ذلك المزيج من النفاق والكذب الذي يميز افعالهن. ولان المرأة تعيش بالوكالة، فانها ليست مسؤولة، ولانها ليست مسؤولة فانها لا تتمتع بحس اخلاقي وبشخصية خاصة. وانعدام الشخصية هذا وتنوع الادوار التي تدعى الى تأديتها يجردانها من الهوية ، وهذا ما يتجلى من خلال السهولة الفائقة التي تتخلى بها عن اسمها. ان المرأة ليست ذاتها حقا في اي لحظة من حياتها (٥) .

لقد اكتفى فاياننغر في الواقع بوصف سلوك النساء كما اتيح له مراقبته من خلال وسطه وبيئته. ولم يدرك انه قد وصف انحرافات واعوجاجات سوف تطالب النساء ذات يوم بالتحرر منها . لقد توهم ان الطبيعة قد فطرتهن على هذا النحو وعجز عن التمييز بين شرطهن الاجتماعي وخصائصهن السيكولوجية المميزة .

---

(٤) فاليري سولاناس : بيان حركة S.C.U.M. ، نيويورك ١٩٦٨، ص ٧٣ .

(٥) اوتو فاياننغر : الجنس والطبع، ص ٢٧٤ .

والواقع ان جميع المثالب الاخلاقية التي ادانها فايننغر كانت تعتبر فضائل في المجتمع الفيكتوري. وكلمة حق لا بد ان تقال : لقد وصف فايننغر هذه النواقص بدقة وامانة . بيد انه استنبط تصوره للانا،للهوية ، للمنطق وللاخلاق، من دراسة وضع قائم غير مرغوب فيه. وقد تميل المراة اليوم الى اعتبار السمات التي صنفها فايننغر في عداد المثالب والعيوب حريات يتعين عليها الدفاع عنها. فهو يقول على سبيل المثال :

«ان التفكير والاحساس هما شيء واحد بالنسبة الى المراة، في حين انهما يمثلان ظاهرتين متعارضتين بالنسبة الى الرجل. ان الجزء الاكبر من حياة المراة العقلية يتمثل في ادراكات غير متمايزة، في حين ان هذه الادراكات تخضع عند الرجل لعملية توضيح » (٦) .

نستطيع ان نرد على هذا الراي بقولنا ان التوضيح يعادل التزوير. فان شئنا ان نعرف ماذا حصل على وجه الدقة في حالة خاصة بعينها، فمن الافضل ان نستفسر عن ذلك من شخص شاهد الوضع برمته ولا يزال يتذكر ما شاهد بدلا من ان نكتفي بتقديرات استقرائية توضيحية. ومن المؤسف جدا ان يتعارض الاحساس مع الفكر لدى الرجل. ولقد كان ت.س. اليوت اكد انه حدث انفصام في الحساسية في مجرى القرن السابع عشر، وان الذكاء لم يعد منذئذ الدليل المباشر على قوة الاحساس، بل صار خانقا له بالاحرى. فهل من الممكن ان تكون النساء قد افلتن من هذه السيرورة التي اوهنت الثقافة الغربية المذكرة؟ ان لهذا الاحتمال اغراءه، ولكن قبل ان نفكر باستخلاص اية نتيجة منه، يجدر بنا ان نأخذ في اعتبارنا ان النساء المثقفات قد جرى قبولهن في اكاديميات ذكرية، وانهن فقدن القدرة على استشعار ادراكات غير متمايزة، وان قيض لقليلات منهن ان يقاومن هذا

(٦) المصدر نفسه ، ص ١٠٠ .

البتر .

لكن ثمة اتهامات اكثر جدية يوجهها فايننغر الى المـــراة. فهـــو يقول على سبيل المثال :

«ان المراة لا تدرك ان العمل لا بد ان يخضع لمبادىء. وهـــي اذ تجهل كل استمرارية، لا تشعر بالحاجة الى ركيزة منطقيـــة للعمليات العقلية .. وفي امكاننا اعتبارها مصابة بخبل علـــى مستـــوى المنطـــق » (٧) .

صحيح ان المراة كثيرا ما ترفض النقاش المنطقي . وهـــي تعجز، في معظم الاحيان، عن الخوض في المجادلـــة ، فيفحمهـــا الرجال ببعض السفسطات الطنانة. كما انها ،في بعض الحالات ، تصاب بالخجل والاضطراب حتى قبل الوصول الى لحظة المحاجة. لكـــن لا يسعنا ان نتغافل عن حقيقة ان المنطق يقتصر في معظم الحالات على تمويه هدف غير عقلاني بقناع من العقلانية الظاهرية. والنساء يعلمن ذلك. وحتى اكثرهن ثقافة واطلاعا تدرك ان كـــل جدل مع رجل ما هو في النهاية سوى ضرب من سياسة القوة. فالجدل ليس هجوما يشنه ذهن متوقد يكون النصر فيه للعقـــل، وانمـــا صدام بين ارادات متعارضة. لذلك لن تفيد فيه قواعـــد المقـــال المنطقي. ان العناد الانثوي يدحض المفهوم الخاطىء القائل ان الكائن البشري حيوان منطقي. فالمنطق الذكوري لا يأتي بحل الا للمشكلات البسيطة. اما المراة، فلانها سلبية ومحكوم عليهـــا بان تراقب وبان تنفعل اكثر من ان تفعل وتبادر، فهـــي اكثـــر تأثـــرا وتحسســـا بتعقيد الواقع. لقد اضطر الرجال الى اختزال قدرتهم على التلقي والتأثر لصالح السيطرة. وربما كان مـــن الفوائد المحتملة التي تنطوي عليها عملية تطفيل النساء قدرتهـــن على ان يتحولن، بحسب تعبير لاو ـ تسو، الى نظرة تستـــوعب الكون برمته، فلا يعدن منفصلات عن الفضيلة الابدية ولا عاجزات

---

(٧) المصدر نفسه ، ص ١٤٦ .

من العودة الى حالة الطفولة (٨). لكن لو كانت حالة النساء تمثل فعلا الطفولة الحقيقية، وليس ما حكمنا على الطفولة بان تؤول اليه، لكان ثمة امكانات جديدة سيتاح لها ان تتحقق بأسرع مما نتصور. فعندما كان شوبنهاور يتهم النساء بالطفالة الاخلاقية فانه لم يكن يعبر عن احكامه المسبقة بصددهن فحسب، وانما بصدد الاطفال ايضا. فعدم اكتراث النساء للمنطق له نتائجه الخطيرة على اخلاقيتهن. ويذهب فرويد الى ابعد مما قاله فاينغر فيزعم: «لا يسعني الا ان اعتقد، وان كنت اتردد في التعبير عن ذلك، ان مستوى الاخلاقية عند النساء هو غير ما هو عليه عند الرجال. فاناهن الاعلى ليس على ذلك القدر من الصرامة والموضوعية والاستقلال عن اصوله العاطفية الذي نتطلبه عند الرجل. ان السمات الطبعية التي اخذها النقاد على النساء عبر القرون، ومنها مثلا حس بالعدالة اقل نموا مما هو عند الرجل، وضعف استعدادهن للانصياع لمقتضيات الحياة العظمى، وتأثر احكامهن بمشاعر الحب او الكراهية، تجد ما يبررها في انحراف تكوين اناهن الاعلى.. وينبغي الا نتخلى عن نتائج هذا الحكم تحت ضغط احتجاج مناصري المرأة الذين يريدوننا ان نعتبر الجنسين متساويين تماما من حيث الموقع ومن حيث القيمة» (٩).

هل نحن بصدد حلقة مفرغة مخيفة؟ هل الجنسان متساويان في الموقع والقيمة ام لا؟ وماذا ينبغي أن نفهم من مصطلحي الموقع والقيمة؟ لقد وعد فرويد بأن يثبت وجود نواقص في الشخصية الانثوية لم يجر اثباتها حتى الان بواسطة انحراف، لم يتم اثباته هو الآخر، طرأ على جوهر هو الانا الاعلى، لم يتم

---

(٨) ج. نيدهام: العلم والحضارة في الصين، كامبريدج ١٩٥٤م، ٢، ص ٥٨.

(٩) فرويد: بعض النتائج السيكولوجية المترتبة على التفاوت التشريحي بين الجنسين، الاعمال الكاملة، م ١٩، ص ٢٥٧-٢٥٨.

التأكـد من وجوده بدوره. فاذا كانت الفيزيولوجيا تحدد المصير، فان فرويد يحاول ان يبتكر فيزيولوجيا للعقل. والحق انه لو لم يكن الاحساس والمحاكمة العقلية منفصلين على ذلك النحو الشاذ فـي عقول الضباط النازيين، لما كانوا اظهروا في اغلب الظـن تلك الحماسة التي اظهروها في تنفيذهم للاوامر الصادرة اليهم. ومن يؤكد جازمـا ان النساء هن دون الرجال صلابة وربـاطـة جاش، يوجه لهن في الحقيقة نقدا ملتبس المضـمـون. فبعـد حربين عالميتين بات يحق لنا ان نشكك في كون الصلابة خصلـة حميدة. وما دامت العدالة الذكورية قد انكرت على النساء كـل مسؤولية اخلاقية ، وصورتهن كملائكـة مع احتقارهن على الصعيد العملي، فمن الطبيعي جدا ان ينتهي الامر بهن الى الاستنتـاج بان اخلاق الرجال وهمية وكاذبة، وبأن اناهم الاعلـى دجـل وتضليل. ان اوروبا البروتستانتية، التي ضربت عرض الحـائط بالرأفة الالهية، قد فرضت على نفسها مثلا اعلى مـن النزاهـة الاخلاقية يستحيل تحقيقه في الواقع. وقد رزح الضمير، الذي حرم من كل ملاذ او عون، تحت وقر مسؤوليات جسام تعيـن عليه النهوض بها على الرغم من الاحكام المسبقة وانعـدام الارادة اللذين يميزان الافعال البشرية. وقد لمس فرويد النتائج فـي وسطـه بالذات، لكن دون ان يتمكن من اقتراح حـل يسمـح بتجنب الشعور بالاثم والعصاب. ان مذهبا كهذا انما ينهض برمته على اساس قدرة الانا على ان يقمع باستمرار كل ما يتنافى مـع النظـام القائم. وان كانت النساء اقل جدارة في ممارسة نظـام المعاقبة الذاتية هذا، فان هذا النقص قد يكون مزية، كمـا ان استجاباتهن وردود فعلهن قد تنطوي على قدر اقل من التضليـل والخداع بالمقارنة مع الموقف المقابل .

ان خير تفسير للتحقير المنهجي للنفس الانثوية هـو ان الرجل يصارع ليكبح بعض الملكات في اشتغال عقلـه بالذات . فالنساء، شأنهن في ذلك شأن الاطفال والبدائيين، ينعمن بفيض

من الخصائل والسجايا التي عمد الرجال المتحضرون الى تحجيمها في ذواتهم. وتنبع اهمية هذه الانتقادات من كونها تبرز الصرامة التي رسمت بها ملامح الشخصية المثلى. وبتعبير اخر، ان النقد الذي يوجهه الرجل الى النفس الانثوية يكشف عن حقيقته هو بالذات. لقد حكم رجال حضارتنا على انفسهم بالتشويه عندما فرضوا عليها تصورا للكمال غير قابل للتحقيق. اما النساء فانهن لم يتمكن ذات يوم من تضليل انفسهن الى هذا الحد. فبما انهن اتهمن، منذ فجر الحضارة، بالكيد والمراوغة، فقد حرمن من فرصة الادعاء بأن اقنعتهن هي شيء آخر غير اقنعة. ان هذه الحجة ليست حاسمة طبعا، لكن نستطيع ان نستنتج منها ان النساء قد اقمن على الدوام مع الواقع علاقات اوثق بكثير من تلك التي اقامها الرجال. وقد وجدن في ذلك تعويضا عادلا عن حرمانهن من النزعة المثالية.

اذا كانت النساء يتصورن تحررهن على انه تبن للدور الذكوري، فقد حكم علينا بالزوال والانقراض. واذا لم تتصد النساء للقوة الغاشمة التي تحرك الرجل ولم يعارضنها، تابع المجتمع العدواني سباقه نحو الجنون الهائج بسرعة متزايدة باطراد. فمن ذا الذي سينقذ ملكات الحيوان المحتقرة تلك، اعني الرافة، والبراءة، ومعرفة الغير، والحواسية ؟ ان معظم النساء اللواتي نجحن في احتلال مراكز تمنحهن سلطانا في عالم الرجال، توصلن الى ذلك بفضل استخدام طرق واساليب ذكورية لا تتنافى مع تصنع الانوثة. فقد واظبن على استغلال الدوامة السادية ـ المازوخية التي يدور الجنسان في داخلها، ما دام الخيار الوحيد الذي ترك لهن هو ان يكن السندان او المطرقة (١٠).

ان سلطة النساء تعني تقريرهن لمصيرهن. وبتعبير آخر، التحرر من كل متاع المجتمع الابوي. وهذا يستوجب أن تترك

---

(١٠) ليوبولد فون ساشر ـ مازوخ : فينوس بالفراء.

للنســاء امكانية تصور اخلاق لا تمنعهن من اثبات مزاياهـــن، وسيكولوجيا لا تحكم عليهن بالعجز الفكري. وقد يكون ثمن هذه الثـورة باهظا، اذ سيتعين عليهن الخوض ، بلا مرشد او دليل، في ظلمات المجهول. وربما راود المرأة في البداية شعور بانهـــا لم تفعل شيئا سوى انها استبدلت عذابها بعذاب آخر، وعصابها بعصاب آخر. بيـد انها تكون قد اقدمت على اية حال على خيـار بملء ارادتها، وهذا شرط مسبق لكل فعل اخلاقي. ولعلها لـــن تعاين بنفسها ارض الميعاد، لان حياة واحدة لا تكفي لتغيير بنية مجتمـع . غير انها تستطيع على الاقل ان تؤكد ايمانها بوجـــود ارض ميعاد وان تجد في هذا الايمان ما يحدو بها الى الامل.

« قد يتحقق بعث المجتمع عندما يتحرر الشاب والفتـــاة من كل كراهية وكل ميثولوجيا، ويبحثان عن بعضهما بعضـــا لا بصفتهما مخلوقين يقيم الجنس بينهما تعارضا وتنافيا، وانمـــا بصفتهما اخا واختا، جارين، فيتلاقيان ككائنين بشريين» (١١).

(١١) رينر ماريا ريلكه : رسائل الى شاعر شاب .

الفصــــل الخامس عشر

العمــل نشاط طبيعي وضروري

لو كانت الكائنات البشرية آلات، لقيل عن جميع نشاطاتهـا انهـا عمل. لكن بما انها لا تعتبر آلات، فان نشاطهـا يخضـع لتصنيف دقيق وصارم، وفق قيم اخلاقية كثيرا ما تكون كيفية. والتمييز الاكثر تضليلا هو الذي يقيم تعارضا بين العمل واللعب. فالتسلية تعتبر ضربا من اللعب، مهما استنفدت من طاقة ومهمـا كـان نتاجها، لانها لا تثري احدا ولا تدخل في دارة الاعمـال. ولا تعتبر العاب الاطفال بدورها عملا، حتى وان كانت من النوع التربوي والمرهق. ان حكاية الصرصور والنملة تميز بـوضـوح بين النشاط «المفيد» والنشاط «غير المفيد». فالصرصور الذي انشد ورقص طول الصيف ضحى بالمنفعة لصالح المتعة. اما النملة فقد عملت وكدت، جامعة الخيرات فـي حاضرهـا تحسـبا لمستقبلها. ان الفكرة القائلة ان العمل مكدر بالضرورة، وانـه لا ينفذ الا تحقيقا لهدف خارجي عنه، هذه الفكرة اساسيـة لفهـم دورنـا في المجتمع الصناعي. والقيمة الاخلاقية لهذا الاقتنـاع راسخـة الى حد يمكننا ان نتوقـع معـه ان يرفض الشغيلـة

تخفيض ساعات عملهم اليومي ونهوض الآلة بجزء من عملهم ـ حتى ولو لم يترافق ذلك بتخفيض في الاجر .

لقد اضاعت النملة صيفها وبددته بدافع تجميع المؤن تحسبا للشتاء، بيد ان اخلاقية العمل تتخطى هذه الضرورة الاولية . فما ان تؤمن اسباب العيش حتى تحل محلها اسباب الرفاهية. ففي حين لا تكفي ساعات العمل اليومي في كثير من الاحيان لتامين «لقمة العيش» في البلدان المتخلفة، يمدد اسبوع العمل دون اي ضرورة في البلدان الصناعية ويشجع العامل على استهلاك المنتجات التي يقوم الاقتصاد على اساسها . ان مستوى الاستهلاك، ومفهوم الحد الحيوي الادنى لا ينفكان يرتفعان، لكن مهما كان الطور الذي بلغه النمو الاقتصادي لبلد من البلدان، فان العمل النسوي فيه يتسم بخصائص واحدة. فسواء اشيدت النساء البيوت، ام زرعن الارض، فان عملهن سيعتبر على الدوام، ومهما فعلن، عملا انثويا، وبالتالي جديرا بالاحتقار .

فاذا كان عدد النساء العاملات في الزراعة في البلدان الافريقية يفوق بكثير عدد الرجال العاملين في هذا الحقل، في حين ان الغلبة في الخدمات العامة هي على العكس لصالح الرجال، فان هذا لا يعني ان المجتمع في تلك البلدان اموي. ففي البلدان التي تعيش على اقتصاد زراعي فقير وبدائي، تعمل النساء في غالبيتهن لان عملهن ضروري لتأمين بقاء المجموعة العائلية. والمراة، في هذه البلدان الفقيرة، تعمل حتى وهي حامل، كما انها تذهب الى العمل بعد الوضع مباشرة، حاملة رضيعها على ظهرها ان لم يكن لديها من تأتمنه عليه. وعلى الرغم من عملها جنبا الى جنب مع الرجل، تظل تنهض باعباء الاولاد والمنزل. ومع ان عملها شاق ومشاركتها اساسية، فلا زوجها يفكر ولا السلطات تفكر في ادراجها في عداد اليد العاملة ، فكانها دابة . ان الرجال يهتمون بالماشية وبشؤون الزراعة:

هذا عمل. اما جمع العلف والحطب فلن يوصف بانه عمل لان النساء هن اللواتي يقمن به. فعندما تشير الاحصاءات في بلد كاليمن الجنوبي الى ان نسبة اليد العاملة النسوية هي دون ٥ر١ بالمئة، فان هذه الاحصاءات لا تفيدنا بصدد عمل المراة، وانما تكشف عن احكام الرجال المسبقة. فالحجاب لا يحول دون قيام المراة باعمال شاقة. فحتى لو كانت المراة محجبة ومزدانة بالحلي، فانها ستقطع الكيلومترات سيرا على الاقدام لتعود بحزمة الشوك الضخمة التي ستطعم بها عنزتها. وحتى في بلد ثوري ككوبا فان النساء لا يشكلن ، رسميا ، سوى ثمن الشعب المنتج .

وكلما تعقلنت الزراعة وتنامى الازدهار، تراجع اسهام النساء في العمل. ان عدد العمال العائليين الذكور هو الذي يتراجع في الاول، ويليه عدد العاملات. في فرنسا ثمة زهاء ٧٥٠ الف امراة يعملن بلا اجر في المزارع العائلية مقابل ٢٠٠ الف رجل. اما عدد الرجال الذين يشرفون على ادارة المزارع العائلية فيقدرون بما يناهز مليونا ومئتين وخمسين الفا، في حين ان عدد النساء اللواتي يتولين ادارة مثل هذه المزارع هو اقل بسبع مرات. واسهل على النساء ان يكن مالكات او عاملات عائليات من ان يكن اجيرات في الزراعة . فمقابل كل عاملة زراعية هنالك ثمانية عمال زراعيين. وفي بلد زراعي ضعيف المكننة كاليونان، فان ٥٧ بالمئة من النساء اللواتي يعملن هن من العاملات العائليات مقابل واحد بالمئة فقط في انكلترا. اما في تركيا، فان تسعين بالمئة من اليد العاملة النسوية تعمل بلا اجر في المزارع والاستثمارات العائلية. وفي فرنسا، تعمل كل امراة من خمس، في نطاق الاسرة؛ في حين ان هذه النسبة هي واحدة من اربع في النمسا وفنلندا .

ان غالبية سكان العالم تعيش في مجتمعات زراعية . ومع ذلك فمن المرجح ان يتطور العمل النسوي في المستقبل وفق الاتجاه الذي يقتضيه تطور المجتمع الصناعي الغربي. ففي البلدان

الغربية تتراوح نسبة العمالة النسائية من ٢٢ بالمئة في هولندا الى ٤٠ بالمئة في النمسا. واذا ما اخذنا بعين الاعتبار الاعمال الخارجة عن اطار الزراعة وجدنا ان فنلندا هي التي توظف اكبر قدر من النساء، حيث تبلغ فيها نسبة النساء اللواتي يعملن في القطاعات غير الزراعية ٤٢ بالمئة، في حين تبلغ هذه النسبة ادنى مستوياتها، ٢٤ بالمئة، في هولندا واليونان. لكن على الرغم من هذا التماثل الظاهري في الارقام، فان الوضع يختلف جذريا في كل من البلدين. فالرقم الاجمالي في اليونان اكثر ارتفاعا بكثير، نظرا الى مشاركة المراة الضرورية في النشاطات الزراعية. ويحق لنا ان نتساءل لماذا لا يتعدى عدد النساء اللواتي يعملن في الصناعة في هولندا ١٦ بالمئة، في حين ان هذا الرقم اكبر بمرتين في اليونان. ونظرا الى المعايير المختلفة التي تعتمد في اجراء الاحصاءات، والى التفاوتات التي تبرز من خلال مقارنة الاحصاءات المختلفة، فمن الافضل دراسة عمل المراة في بلد محدد، وقد اخترت ان اعرض الوضع القائم في بريطانيا. فلئن كان هذا الوضع هو وضع بلد صناعي متقدم ومزدهر نسبيا، فهو يشكل دليلا للبلدان النامية وتحذيرا للبلدان الاكثر غنى – كالولايات المتحدة – التي تمر بطور انكماش وركود اقتصادي. لكن ينبغي ان نشير مع ذلك الى ان التصنيع الحديث يقتضي يدا عاملة دون التي اقتضتها الثورة الصناعية في بريطانيا، والى ان النساء هن الضحايا الاولى والاثيرة للبطالة. ففي ايطاليا، على سبيل المثال، انخفضت نسبة تشغيل النساء انخفاضا ملحوظا من جراء الازمة التي تعاني منها صناعة النسيج والالبسة، مع ان حركة التصنيع العامة في ايطاليا قد تطورت بسرعة وغدت تنافس بلدانا كانت قد سبقت ايطاليا الى التصنيع. ان التكنولوجيا الحديثة تنزع الى خفض مستوى التشغيل. والنساء اول من يكابد من ذلك، وان كانت اجورهن دون اجور الرجال.

يمكننا اعتبار العمل العائلي في ظل الاقتصاد الزراعي ضربا من العبودية لان الشغيل محروم من حرية الحركة والتنقل، ومن امكانية المفاوضة بصدد شروط عمله واجره. بيد انه ينعم مع ذلك بقدر من الضمان والطمأنينة، كما ان نتاج عمله ينعكس على مستوى معيشة اسرته بدلا من ان يتحول الى ربح لصالح رب العمل. اما في ظل اقتصاد لا يوفر الاستقلال الا للذين يكسبون قوتهم بانفسهم، فان وضع العاطل عن العمل قد يغدو اصعب بكثير ان لم يطرأ تحول جذري على اخلاقية العمل في مستقبل قريب. وعلى النساء ان يعرن هذه المسألة كامل اهتمامهن، وذلك لا دفاعا عن مصلحتهن المباشرة فحسب، وانما ايضا دفاعا عن مصلحة بناتهن في المستقبل .

ان النساء يشكلن ٣٨ بالمئة من مجمل اليد العاملة في بريطانيا. وثمة ٥٠ بالمئة من النساء اللواتي تتراوح اعمارهن بين ١٦ و ٦٤ سنة يعملن خارج بيوتهن. وكل اجيرة من اساس خمس في بريطانيا هي امرأة متزوجة، وكذلك الامر في الولايات المتحدة والمانيا. وترتفع هذه النسبة في الدانمارك والسويد واليابان، وتنخفض في كندا وايطاليا. اما الاجر الوسطي الاسبوعي الذي تتقاضاه المرأة الانكليزية المستخدمة في الادارة، او في الخدمات التقنية ، او في المكاتب ، فهو دون ١٢ ليرة استرلينية. بالمقابل، فان الرجال الذين يقومون باعمال مماثلة يتقاضون اسبوعيا ٢٨ ليرة استرلينية. وفيما يتعلق بالاعمال اليدوية، فان اجر الشغيل الاسبوعي الوسطي ٢٠ ليرة استرلينية واجر الشغيلة ١٠ ليرات فقط. وفي الولايات المتحدة كشفت احصاءات اجريت في عام ١٩٦٧ عن ان الدخل السنوي الوسطي الذي يحققه الرجال العاملون في الوظائف المدنية هو ٦٦١٠ دولارات، اما الدخل السنوي الوسطي للنساء العاملات في وظائف مماثلة فهو ٣١٥٧ دولارا. لهذا السبب يعيش ٣ر٣١بالمئة من الاسر التي تكون ربتها امرأة دون عتبة الفقر. وفي فرنسا

يتقاضى ٩ر٢٠ بالمئة من النساء أقل من ٦٠٠ فرنك شهريا. وفي جميع القطاعات، دونما تمييز، يربح الرجال ٢٣ بالمئة اكثر من النساء، وقد تصل هذه النسبة الى ٣٥ بالمئة في بعض القطاعات.

ان المبدأ القائل «اجر واحد للعمل الواحد» لا يبدل شيئا في هذه الارقام. ففي ايطاليا والمانيا وهولندا واللوكسمبورغ، حيث اقر القانون هذا المبدأ، كشفت آخر استقصاءات المكتب الدولي للعمل عن استمرار التفاوت على جميع الاصعدة، ومرد ذلك الى ان النساء لا يستخدمن عادة الا بصفة مساعدات للرجل.

ان معظم الرجال العاملين في الصناعة هم من العمال المختصين او قيد التخصص. وفي بريطانيا ينيف عدد العاملات المختصات على عدد العاملات غير المختصات في ثلاثة قطاعات فحسب : صناعة الالبسة، والاحذية، والخزف. وينعدم وجود العاملات المختصات كليا في العديد من الصناعات، وفي بعض الصناعات الاخرى يكون هذا الوجود من الضآلة بحيث لا تتوفر احصاءات دقيقة بصدده. وفي البلدان المتقدمة لا تستخدم النساء المختصات، بالاضافة الى قطاعي النسيج وخياطة الالبسة التقليديين، الا في الصناعة الكهربائية والكيميائية .

من اساس تسعة ملايين امراة مستخدمة في بريطانيا فان ٢ بالمئة فقط يشغلن مناصب في الكوادر الادارية و ٥ بالمئة يعملن في المهن الحرة. وفي الولايات المتحدة لا يرد ذكر للنساء في احصاءات تعداد المهندسين المعماريين، والكيميائيين والمهندسين، لان نسبتهن هي دون العشرة بالمئة في كل فئة من هذه الفئات، اي دون واحد بالمئة بالاجمال . وفي فرنسا ارتفع عدد المهندسات بنسبة ٥٠ بالمئة، والتقنيات بنسبة ١٢٠ بالمئة، والكوادر الادارية بنسبة ٤٠ بالمئة. لكن هذه الزيادة المنقطعة النظير تفسر بالدرجة الاولى بالانخفاض الشديد للرقم الاولي. وفي وسائل الاتصال الجماهيري يكون الرجل صحفيا وكاتب ريبورتاجات ، في حين تعمل المراة في التوثيق. وهذا

ما يفسر تفاوت الاجر الذي يتقاضيانه .

ان مسألة تشغيل المراة مرتبطة على نحو وثيق بمسألة التأهيل المدرسي والمهني. ففي انكلترا يقدر عدد البنات اللواتي يغادرن مقاعد الدراسة في سن الخامسة عشرة بثلاثة اضعاف عدد الصبيان. ولا تمثل البنات سوى ثلث طلاب المرحلة الثانوية وربع مجموع طلاب الجامعة. و٧٥ بالمئة من البنات اللواتي بلغن الثامنة عشرة لا يحصلن على اي تأهيل مهني او اي تعليم عال.

لكن الوضع افضل في فرنسا حيث تبلغ نسبة الطالبات الجامعيات ٤٣ بالمئة. اما في النرويج فان هذه النسبة لا تتعدى ٢٢ بالمئة. وتشتد اللوحة قتامة اذا ما اخذنا بعين الاعتبار الاهمية التي يرتديها التعليم العالي في هذه البلدان .

ان الصورة التي يمكننا استخلاصها من هذه المعلومات هي صورة قوة عمل نسوية كاسدة، لا تحظى بالتقدير لا من قبل ارباب العمل ولا من قبل الاجراء. فالنساء يشكلن احتياطيا من اليد العاملة. ولا تبذل اي جهود لجهة ترقيتهن الاجتماعية، لان ايرادية هذه الترقية مشكوك فيها . لذلك يأتي مردود عمل النساء منخفضا . انها حلقة مفرغة حقيقية . وتمارس النساء اعمالا مؤقتة، وعلاوة على انهن طيعات في عملهن فهن ايضا غير ثابتات. فاكثر من خمسين بالمئة من النساء العاملات في انكلترا هن من المتزوجات، وكذلك الامر بالنسبة الى بقية الدول الاوروبية التي تتوفر لدينا احصاءات عنها. والاعتقاد السائد هو ان اسرتهن تشكل محور اهتمامهن الرئيسي، وانهن لا يعملن الا لتأمين دخل اضافي، وانهن يفتقدن الى كل طموح شخصي . والعاملات المتزوجات لا يدفع لهن تعويض عائلي. وان كان هذا التمييز يجد ما يبرره تاريخيا رغم لامعقوليته من منظور حجم العمل المؤدى، فانه يتمخض عمليا عن نتائج مأساوية،ولا سيما بالنسبة الى النساء الملزمات بالانفاق على انفسهن، بل في بعض الاحيان على اسرهن ايضا .

لان عام ١٩٦٩ صادف الذكرى الخمسين لحصول المـــراة فـــي بريطانيا على حق الانتخاب، فقد ضج المؤتمـــر السنـــوي لاتحاد النقابات العمالية البريطانية بالخطب الحماسية التي القتها المندوبات النسويات، كما التزم المؤتمرون بمتابعة النضال مـــن اجل تحقيق المساواة في الاجر ، وبدعم الاضرابات التي تشنهـــا النساء، بل بالتضامن معها عن طريق اعلان اضرابات عامة . وقـــد اشـــار رئيس الحكومة البريطانية في ذلك الحين الى عجز البلاد عن تحمل عبء مثل هذه الزيادة في الاجر النسوي، والـــى ان تحقيقها لا يمكن ان يتم الا بالتدريج وعلى سنوات. وكان التحرك النسوي قد برز قبل ذلك، خلال الاضراب الذي شل العمل فـــي مصانع «فورد» في داغنهام (١)، والذي ارتأت الوزيرة بربـــارة كاسل ان تحله بجلسة شاي مع العاملات المضربات. ولما كانـــت هؤلاء الاخيرات نساء مهذبات فانهن لم يصارحنها القول بأنـــه ان كان مرتب السيدة الوزيرة، الذي يقدر بثمانية الاف وخمسمئـــة ليرة استرلينية، يعادل المرتب الذي يتقاضاه السادة الوزراء، فان الاجـــر الذي تتقاضاه النساء العاملات في مطعم مجلس العمـــوم هو دون الاجر الذي يتقاضاه زملاؤهـــن الرجال . كما انه لـــم يرتفع صوت واحد ليقول ان النساء اللواتي يعملن فـــي مكـــاتـــب اتحاد النقابات العمالية بالذات يتقاضين اجرا دون اجر الرجال. وكـــان المؤتمر السابق للاتحاد المذكور قد رفض الموافقـــة علـــى اقتراح يدعو الى انشاء لجنة تحقيق في امكانات تشغيل النســـاء وفـــي وضعهن القانوني، كما كان مجلس العموم قد رفض بدوره البت في مشروع تقدمت به السيدة جويس باتلر بصدد انشـــاء لجنة تحقيق حول التمييز في العمل، بحجة «عدم توفر الوقت».

---

(١) لعبت روز بولاند ، المندوبة النقابية عن عاملات المصنع ، دورا كبيـــرا فـــي اعلان هذا الاضراب الذي اسفر، فيما اسفر عنه ، عن تشكيـــل منظمـــة نسويـــة يساريـــة ملتزمـــة .

لقد طالب مؤتمر اتحاد النقابات العمالية بقوانين مساواتية بثقة ساذجة لم يشاطره اياها المحللون الموضوعيون. فقد ادرك هؤلاء الاخيرون ان النساء قد يفقدن فرصهن في الحصول على عمل اذا ما تساوى اجرهن مع اجر الرجل. اذ ليس في وسع القانون لا ان يقضي دفعة واحدة على الاحكام المسبقة، ولا ان يخلق، بضربة من عصاه السحرية، نساء متمتعات بتأهيل مهني ومستعدات للتحمس لعمل مثير للاهتمام. وغالبا ما تدلل النساء انفسهن على لامبالاة بهذه المسألة.

ان عدد النقابيات في بريطانيا لا يتجاوز المليونين. وقد اختارت عاملات هاتف متزوجات، خلال اضراب البريد والبرق في عام ١٩٧١، الخروج من النقابة والعودة الى العمل. ان عددهن لم يكن على الارجح مرتفعا جدا، كما حاولت ان توحي بذلك الصحافة المحافظة، بيد انه كان كافيا لتأمين الاتصالات الضرورية.* وان كانت النساء البريطانيات لا يبدين حماسة تذكر للالتحاق بالنقابات وللنضال في اطارها فمرد ذلك، جزئيا، الى التزاماتهن العائلية التي تم لهن الاعتراف بها من خلال اعفائهن من ساعات العمل الاضافي ومن العمل الليلي.

والواقع ان هذه الشروط قد وردت في قوانين العمل لجميع الدول الاعضاء في السوق المشتركة. لكن هذا التشريع الانساني النزعة قد ينعكس سلبا على اوضاع المراة العاملة لانه يحرمها من الاعمال المرتفعة الاجر، اي من العمل الاضافي ومن الفرق الخاصة. وهو لا يشمل على كل حال الممرضات، اللواتي تطول ساعات عملهن، واللواتي يضطررن الى النهوض بالخدمة الليلية بصورة دورية. كما انه لا يطبق على العاملات في العلب الليلية او في الخطوط الجوية. وقد ناهضت النساء الانكليزيات هذا التمييز واعلن عن استعدادهن للقبول بشروط عمل الرجال. لكن الرجال لم يبدوا بالمقابل استعدادا للتخلي عن الخدمات المجانية التي تقدمها لهم زوجاتهم في البيت. وقد اثيرت ايضا

مسألة انشاء دور حضانة تدار من قبل ارباب العمل والنقابات في آن معا .

في ايطاليا تلزم كل منشأة تستخدم اكثر من ثلاثين امرأة متزوجة دون الخمسين من العمر بانشاء دار حضانة. ويتعين مبدئيا ان تكون هنالك دور حضانة مشتركة بين عدة مصانع، وان تمنح العاملات فترتي استراحة لمدة نصف ساعة كيما يتمكن من الاعتناء باطفالهن. وقد اثيرت مسألة انشاء دور حضانة كهذه في فرنسا والمانيا. اما في بلجيكا واللوكسمبورغ وهولندا فان المسالة لم تطرح. ويسعنا ان نتصور بسهولة فائقة الجهود المحمومة التي يبذلها ارباب العمل الايطاليون لتجنب استخدام اكثر من ثلاثين عاملة متزوجة لم تتخط بعد الخمسين .

عندما يبادر رئيس حكومة كالسيد هارولد ويلسون الى التصريح بأن النساء سيحصلان على المساواة في الاجر يوم يوافق الشغيلة الذكور على تحمل نفقة هذا الاجراء، فهو يثير اكثر اشكال العصاب الذكوري انكفائية ونكوصية . وقد حصلت نساء بريطانيا مبدئيا على هذا الحق في المساواة في الاجر بفضل اقتراع الرجال الذين كان عددهم في مؤتمر الاتحاد العام للنقابات، المنعقد عام ١٩٦٩، ١٢٠٠ رجل مقابل ٥١ امرأة. يبقى ان نعرف هل سيسجل شرط المراة العاملة تحسنا من جراء هذه المساواة المبدئية، ولو على صعيد الاحصاءات .

لقد تكلمت حتى الان عن النساء اللواتي يؤدين عملا ماجورا وليس عن غالبية النساء البريطانيات من ربات البيوت. فثمة ستة عشر مليون ربة بيت في بريطانيا. ولا تتقاضى ربة البيت اي اجر مع ان مشروع قانون الليدي سومرسكيل حول الملكية الزوجية الذي طرح في عام ١٩٦٤ كان قد اعترف لها بحق الاحتفاظ بنصف مصروف البيت. والواقع ان مثل هذا القانون، فيما لو اقر، لن يعود بالفائدة الا على الاثرياء اذ لا يمكن ارغام الزوج على ان يعطي زوجته ضعف المبلغ اللازم لتامين مصروف

البيت. ان عدد الزوجات القادرات على ادخار قدر من المال عدد محدود جدا ولا بد . وتتسم قوانين الطلاق الرامية الى حماية المراة المهجورة، بالطابع نفسه. فهي واقعية فقط بالنسبة الى الاغنياء الذين يشكلون اقلية ضئيلة للغاية. اما الآخرون فليس لهم من خيار آخر سوى المواظبة على زواجهم لان زوجاتهم لا يتمتعن باي استقلال مالي. فالعيش تحت سقف واحد يشكل ضرورة مادية.

وقد فكرت لجنة القوانين باعطاء المراة المطلقة حق مطالبة المراة التي حلت مكانها بتعويض عطل وضرر. لكن نادرا ما تكون المراة الثانية قادرة على ان تدفع بنفسها هذا التعويض. فهي ستطلب في هذه الحال من زوجها ان يسدد ما يتوجب عليها، وهذا يعني ارغامه على دفع نفقة شرعية اضافية. وان كانت بريطانيا تعجز عن اعطاء اجر واحد للعمل الواحد، فانها تجد نفسها عاجزة ايضا عن تحرير النساء من اقطاعية الزواج المالية.

ان اكثر من نصف ربات البيوت البريطانيات يعملن خارج بيوتهن. ويمارس بعضهن مهنا حرة وينفقن الجزء الاكبر من دخلهن على الخادمة، والسيارة الشخصية، والتأمين التقاعدي، والضرائب. فمديرة معهد دراسي كبير تربح ١٩٠٠ ليرة استرلينية سنويا تدفع منها ١٠١٠ ليرات ضرائب، و ١١٠ ليرات لتأمين التقاعد، و ٢٠٠ ليرة للخدمة المنزلية ، و٣٠٠ ليرة لسيارتها ،و٧٥ ليرة للنثريات ، واللباس والكتب . ويبقى لها دخل صاف قدره ٢٠٥ ليرات سنويا. وقد لاحظت امراة طبيبة ان خادمتها تربح في النهاية اكثر منها. والواقع ان مصلحة الضرائب تسيء معاملة هؤلاء النساء اذ ترفض اعتبار دخلهن مستقلا عن دخل ازواجهن وتفرض الضريبة عليه باعتباره جزءا منه. واذا كان بلد من البلدان لا يستطيع ان يسمح لنفسه بأن يفرض الضرائب على النساء المتزوجات على اساس انهن اشخاص مستقلون بأنفسهم، فانه لا يحق له ايضا ان يفرط

بطاقات النساء الفكرية والثقافية. ان معظم النساء اللواتي يمارسن مهنا حرة يعملن في حقل التعليم. لكن نسبة النساء اللواتي يثابرن في هذه المهنة، بعد انقضاء ستة اعوام على عملهن فيها، لا يتجاوز الثلث. اما البقية فيتقاعدن عن العمل على الرغم من دراستهن التي تتحمل الدولة في الواقع عبء تكاليفها الباهظة .

ان عبء الضرائب الثقيل هو على الارجح الاعتبار الرئيسي الذي يثبط همة النساء ويخمد رغبتهن في الحصول على تأهيل مهني يسمح لهن بممارسة الاعمال المرتفعة الاجروالتعويض . ولم تهتد الاسرة الاقتصادية الاوروبية حتى الآن ، على الرغم من تصميمها المبدئي ، الى حل منصف وعادل لهذه المشكلة . فباستثناء بلد اوروبي واحد ، لا تزال الضريبة المفروضة على النساء المتزوجات تحسب على اساس دخلهن ودخل ازواجهن معا . وهذا يعني في نهاية المطاف ان المراة الراغبة في ممارسة مهنة حرة تضطر الى ممارستها على حساب زوجها .

هنالك عامل آخر ينعكس اثره سلبا على سلوك المراة المهني: اضطرارها الى ان تلعب الدور الثانوي في حياتها الخاصة . فهي مطالبة برفع معنويات زوجها وبطمأنته الى جدارته للتصدي لقيادة الاسرة . والرجل الذي يكسب اقل مما تكسب زوجته هو انسان جدير بالشفقة . ولزام على المراة في علاقاتها المهنية ان تشدد من عزائم زملائها الذكور تماما كما تفعل مع زوجها .

ان هذه التبعية تتجلى بأوضح ما يكون لدى السكرتيرات. فوظيفتهن ان يحمين عزة نفس رئيسهن ، وان يتسترن عند الضرورة على اخطائه . وقد دل استقصاء اجراه « مكتب الفريد مارك لمهنة السكرتاريا » على ان ٨٠ ٪ من السكرتيرات اللاتي يكسبن اكثر من ١٠٠٠ جنيه استرليني في السنة لديهن استعداد لاداء خدمات لصالح رب عملهن وزوجته ، و٧٤٪ للتسوق والتبضع لحسابهما ، و٧٣٪ للكذب لتجنيب رئيسهن المباشر

مواجهة المتاعب مع الادارة . وفي اعقاب نشر هذا الاستقصاء رسمت صحيفة **الصنداي تايمز** صورة السكرتيرة المثالية ، ووجهت للراغبات في الامتثال لهذه الصورة النصائح التالية :

١ ـ استخدمي على الدوام مزيلات روائح الجسم . فليس من الضروري ان تكوني واحدة من بين النساء القلائل اللواتي لا يحتجن اليها .

٢ ـ اجيدي تحضير الشاي والقهوة .

٣ ـ لا تعطي امك ، خطيبك ، زوجك ، أو خالتك رقم هاتف المكتب .

٤ ـ اقصدي المغسل لوضع الماكياج على وجهك ، او لطلاء اظافرك ، او لتبديل جواربك .

٥ ـ لا تبرزي الرسائل الحاملة للاخبار السيئة عندما تأخذين البريد الى مديرك .

٦ ـ كوني جذابة على الدوام ولكن تجنبي الاثارة .

وترمز السكرتيرة ، اسوة بالزوجة تماما ، الى المكانة الاجتماعية لرب عملها . وبقدر ما تقتصر واجباتها على تلبية رغباته يكون شأنها اعظم . فالسكرتيرة التي ترد على الهاتف وتستقبل الزبائن الى جانب عملها المكتبي المعتاد ، تمثل نموذجا نفعيا . اما السكرتيرة الخاصة فهي تدخل في عداد الكماليات .

في انكلترا ، كما في معظم المجتمعات الصناعية الحديثة ، تهيمن النساء على مهنتين اساسيتين : التعليم ، والعناية بالمرضى . ولقد ولدت مهنة التمريض عن التقليد القديم السائد في اوساط طبقة النبلاء الصغار حيث كانت فتيات الاسر يحملن اطباق الجرش والحساء للمرض من ذوي الفضل والاحسان . ولم تفلح الجهود البطولية التي بذلتها فلورانس نايتنغال (٢) ، خلال

(٢) مؤسسة اول مدرسة للممرضات في العالم (م) .

حرب القرم، في اسقاط طابع الهواية من هذه المهنة . ولان مثل هذا التطور لم يحصل ، فان ثمة ٦٤٠ الف امرأة يمارسن اليوم هذه المهنة التي تقتضي معلومات تقنية ، وجدارة ، ومبادرة، وتضحية ، مقابل اجر زهيد للغاية . ان عدد المرضى يتنامى باطراد ، والعلاج الطبي يزداد تعقيدا ، اما تعداد الممرضات المستخدمات فيظل على ما هو عليه . وليس ثمة هيئة موحدة تتولى الدفاع عن مصالح الممرضات ، بل ليس ثمة ديبلوم موحد للعاملات في حقل التمريض . ان **مكتب الصحة القومي** يعمل على حساب مصلحة هؤلاء النساء اللواتي لا يعانين من الارهاق وضيق اليد فحسب ، وانما يعشن ايضا حياة أسر تحت الرقابة الشديدة لرئيسة الممرضات . ولا يستطعن حتى المفاخرة بكرامة مهنتهن اذ انهن يلزمن بالقيام بالاعمال المذلة التي ترفض خادمات المستشفى عادة القيام بها . ولم يعترف لهن ، علاوةعلى ذلك ، بحق الاضراب عن العمل لتحسين شروط عملهن . وعندما شنت ممرضة مناضلة ، هي الاخت فيل ، حملة شاملة لتنبيه الراي العام الى وضع الممرضة المزري ، منعت الممرضات اللواتي خرجن في مظاهرة سلمية من ارتداء لباسهن الخاص . وتشجع الممرضات على القبول بأجر زهيد وبشروط عمل مهينة عن طريق الابتزاز الاخلاقي ، اي بحجة انه لا يحق لهن التخلي عن المرضى والمحتضرين لاي سبب كان . والحال ان سائقي سيارات الاسعاف ، وعمال كهرباء المشافي والمستوصفات، يضربون عن العمل بكل بساطة لتحسين شروط عملهم . لكنهم رجال .. وفي بلدان اخرى، حيث لا تسدد الدولة نفقات العناية الطبية ، تنعم الممرضات بوضع افضل لانهن يبعن عملهن في سوق حرة. بيد انهن يكابدن رغم ذلك من سوء التنظيم . ففي الولايات المتحدة ، حيث الاجور مرتفعة ، لم يبذل اي جهد لتنظيم هذه المهنة ، ولا لمساعدة الفقراء الذين لا يحق لهم ان يمرضوا . فالممرضات خادمات حصلن على تأهيل مهني ، ووضعهن لا يخرج

عـن نطاق البنيـة المهيمنـة على العمل النسوي .

ان مراكز القيادة والمسؤوليـة وقف على الرجال حتى فـي المهـن التي تكـون فيهـا الغالبيـة للنسـاء .

فمصمموا الازياء على سبيل المثال هم بشكل عام من الرجال مع ان مهنـة الخياطة هي مهنـة نسوية في المقام الاول . امـا في القوات المسلحـة ، فان النسـاء لا ينهضن الا بالمهام الاداريـة وببعض الاعمال الثانوية . وحتى المضيفات ، اللواتي يحسدن علـى عملهن ، لسن اكثر من خادمـات مبجلات وضعـن في امرة رجـل هـو كبيـر المضيفيـن .

ان الفتيات اللواتي يسعيـن الى نخطي هذا الوضع يحلمن بالتمثيل . فالنسـاء النادرات اللواتي تركـن اثرا في عصرنـا هذا كـن ، بحسب ما تدعيه **الصنداي تايمز** ، ممثلات . لكـن مديـر **المسرح القومي للشباب** ، مايكل كروفت ، حذّر الشابات من مغبة اختيار مهنـة التمثيل لان المسرحيات الحديثـة لا تسند للنساء سوى دوريـن مقابل ثلاثة ادوار للرجال . والواقع ان اربعـة اخماس العاملين في حقل المسرح يعانون من البطالة ، وجل هؤلاء العاطليـن عـن العمل هم من النساء (٣) .

لقد كانت صناعـة العروض المسرحية على الدوام قـاب قوسين من الدعارة ، كمـا ان اشهـر الممثلات كـن منذ قديـم الزمـان محظيـات ذائعات الصيت .. وفي مجتمعنا الغربـي المعاصر يتجسد رئيس القوادين في شخص هيو هفز (٤) الـذي ابتكـر نوعـا جديدا من بيـوت الدعارة حيث يكتفي الزبون بالنظر الى العاهرات . ان وضع المراة التي تلبي طلبات الزبائن ، وهـي متنكرة في زي ارنب ، ليس اقـل اذلالا مـن وضـع المرضـة

---

(٣) الدايلي ميرر ، ٧ ، ٧ ، ١٩٦٩ .

(٤) صاحب مجلة بلاي ـ بوي وشبكـة من العلب الليلية تخـدم فيهـا فتيـات متنكرات في زي ارنب ومعروفات باسم « بانيز » .   «م»

او الخادمة التي تؤدي اعمالا بخسة التعويض . ان النساء اللواتي ينخرطن في صناعة العروض الفنية والمسرحية يبالغن في كثير من الاحيان في استغلال جمالهن وقدرتهن على الاغراء، فيتأثر وضعهن من جراء ذلك . انهن يقعن في قبضة رب العمل الذي يستبد بهن ، ويستغلهن كموضوع جنسي ، ولا يدع لهن فرصة لابراز موهبتهن . ان معظم الناس لا يزالون يصابون بالدهشة اذا ما قيل لهم ان مارلين مونرو كانت ممثلة عظيمة . وقد كانت هي بالذات اكثر الناس اندهاشا لسماعها ذلك . وكان ذلك سببا من بين جملة الاسباب التي دفعتها الى الانتحار .

ان الشابة التي تختار دراسة الطب ستنجح في الحصول على شهادتها اذا ما جدّت واجتهدت . لكن يبقى ان النساء يفضلن الاطباء على الطبيبات ، وكذلك الرجال . ولا شيء يحول دون ان تصبح المراة مهندسة مدنية او معمارية ، ودروب النجاح في هاتين المهنتين قد تفتح امامها بشرط ان توفق الى ارباب عمل او مستخدمين يأخذونها على محمل من الجد . بالمقابل فان النساء اللواتي يخترن الالكترونيات واللاسلكيات لا يحصلن على وظيفة . وقد تفوز النساء بجائزة نوبل اذا ما برّزن في البحث العلمي ، لكن من شبه المستحيل عليهن بالمقابل ان يتولين ادارة مختبر ابحاث .

وتصطدم الفتاة ، التي تتابع دراستها الجامعية ، بمعارضة ذويها ، وذلك بغض النظر عن الفرع أو الاختصاص الذي تكون قد اختارته .. فهي تتعرض للملامة والذم ، وتسمعهم يقولون لها انها تضحّي باجمل سنوات حياتها ، وانه حري بها ان تتزين وتتبرّج وتلهو مع الشباب من عمرها ، وان المشقة التي تتحملها والجهود التي تبذلها ستضيع في مهب الريح يوم تتزوج لان شهادتها ستوضع عندها على الرف ،الخ. انها حرب استنزاف مستمرة . والطالبة الجامعية تُطالَب بالنهوض ببعض الواجبات المنزلية التي لا يُطالَب زملاؤها الطلاب

بهـا فـي حال من الاحوال . ولا تتحرر الفتاة من مثل هـذه الواجبات الا فـي حال متابعتهـا دراستهـا في مدينة آخـرى، بيـد ان الاهل لا يرحبون اجمـالا بمثل هذا الحل . ويتحكم موقف الشباب من الفتاة بتوازنهـا العاطفي الى حـد أنهـا قد تجازف بدراستهـا بسبب ازمة عاطفيـة . وهذا ما لمسته لدى طالباتي. فالشابات يشعرن بانهـن مهمـلات ومنبوذات ان لم يجتذبن اهتمام الشباب ، مع انهـن يعتبرن العلاقة الجنسيـة بـلا حب مهينـة ومذلـة . وبنتيجـة ذلـك فانهـن كثيراً ما يرسبن فيدراستهن. ونادرا ما تكـون الفتيـات طالبات متفوقات . ومما يثبط العزيمة فعـلا ان يكون الشباب هـم الذيـن يحصلون ، في معظمالحالات، على افضل العلامـات ، علمـا بأن الفتاة تحتاج الى ان تكـون متفوقـة على الشاب كيمـا تحصل على الفرص نفسها التي يحصل عليهـا هـو على الصعيد المهني .

لكن هنالـك نساء عرفهـن طريقهن الى النجاح . وخيـر قصة أرويهـا عـن النجاح النسوي هي قصة السيدة باميلا بورتر: انهـا صاحبة سيارة شحن ، وهي التي تتولى قيادتهـا فتقطـع اسبوعيـا ٢٥٠٠ كم بصحبة ثلاثة كلاب .

الجـــزء الثالث

الحب

الفصل السادس عشر

المثـــل الاعلـــى

عندما يقول الصوفيون ان الله حب ، او عندما يزعم الايستر كراولي ان « الحب هــو الشريعــة » ، فليس المقصود من ذلــك الحب الذي هــو من قسمة النساء . فقد كان العديد من انصار افلاطون على يقيــن تام بأن النساء عاجزات عن الحب لانهــن دون الرجل جسديـا واجتماعيا وفكريـا بل من حيث جمال الشكــل ايضــا . ويستحيل الحب بيــن الكائن الادنى والكائن الاسمى ،لان حب الاول يقوم على الانانية ، وعلى الرغبة في الامن والاستقرار ، وفي الفائدة الاجتماعية . ولا يســع الكائن الادنى ان يفهم المزايــا التي تجعل الكائــن الاسمى جديرا بالحب . ولا يسع الكائن الاسمى ان ينحط الى حب ما هــو دونه في المستوى . ان مشاعـــره ستقترن بالضرورة بقدر من التعجرف ، هذا ان لم تعبّر هـــذه المشاعــر عــن رغبة منحرفــة فــــي اذلال الذات . فالانسان لا يستطيع ان يحب الا ندّه ، لان جوهر الحب ان يكـــون متبادلا . والكائن الادنى يعجــز عــن خلق شيء اسمى منه . وعندما يشاهد الرجل صورته بالذات ، فانه يتعرف نفسه من خلالها ويحبهــا

بنتيجة حبه لذاته ، وهو حب مناسب ومبرر . ويقوم مثل هذا الحب على التفهم، والثقة، والتشابه. انه الحب الذي يشكل اساس الجماعات، من اصغرها الى اكبرها. والحب هو الدعامة الوحيدة للبنى الاجتماعية القابلة للاستمرار والحياة لانه الخير المشترك. ان المجتمع يقوم على الحب اما الدولة فلا، لانها تجمع لاقليات تختلف مصالحها بل تتضارب. ويتعين على الدولة، اسوة بالاب الذي يفرض جوا من العيش المشترك على أولاد يتفاوت جنسهم واعمارهم، ان تقيم توافقا وانسجاما بين جماعات متناحرة، وذلك ليس عن طريق الحب وانما عن طريق الانضباط الذي تفرضه عليها. ويشعر الانسان، ازاء ما هو مختلف عنه، بالانجذاب والاهتمام، بيد ان هذه المشاعر تفقد زخمها وتضعف بعد ما يغدو الجديد مألوفا والتنافر في الطباع محسوسا. ذلك هو على وجه التحديد في مجتمعنا وضع النساء الانثويات المقيدات الى الرجال. فقد أجبرن على ان يكن مختلفات وجذابات وغدون في النهاية مجرد مختلفات، معزولات ووحيدات تحت سقف رجل سأمان ومعاد .

ان الحب البشري هو ، منذ بداية الحياة ، مظهر من مظاهر النرجسية . فالطفل الذي يدرك ذاته والعالم الخارجي ككل غير متمايز يشعر بحب شامل وجامع الى ان تعلمه التجربة ان يخشى الالم (١). فاذا ما رمي في الماء، سبح، كما كان يعوم في الرحم قبل ان تضيق عليه . ان الطفل الصغير يتقبل الواقع لانه ليس له من « انا » .

وحتى عندما يبدأ هذا « الأنا » بالتكون ، يتوجب على الطفل ان يفهم ذاته بدالة علاقاته مع الآخرين ، وان يفهم الاخرين بدالة ذاته . وبقدر ما ينحط شعوره بكرامته ، ينحط مقام الآخرين في نظره . وبقدر ما يحترم نفسه ، يعقد الامال

---

(١) نورمان براون : الحياة ضد الموت ، ص ٥٠ ـ ٥١ .

العراض على اصدقائه . ان هذا التفاعل لم يكن في يوم من الايام مجهولا او مهملا ، بيد انه لم يحظ بالاهتمام الذي يستحق . فعندما وقعت انظار آدم على حواء في الفردوس الارضي ،أحبها على الفور لانها كانت تشكل جزءا منه ، ضلعا من اضلاعه، ولانها كانت ، من بين جميع الحيوانات التي خلقها الله من اجل متعته ، اقربها اليه واكثرها شبها به . ان الرغبة التي دفعته اليها كانت عبارة عن فعل حب لنوعه بالذات . ولقد اعتبرت هذه النرجسية على الدوام دعامة الحب واساسه ، اللهم الا في علاقة الرجل بالمراة،حيث افترض ان رغبة الرجل لا تثيرها الا جوانب التباين والاختلاف في المراة . ولهذا السبب عمقت نقاط التباين بين الجنسين الى حد غدا معه الرجل يشعر بانه اقرب الى الرجال الذين ليسوا من جنسه ، ولا من دينه، ولا من لونه ، منه الى نساء محيطه . ان شعور الاخاء بين الرجال شعور نرجسي . والحجة التي تشهر لتبرير هذا الشعور هو ان الرجال ، في جميع اصقاع العالم ، هم من طينة واحدة .

ومع ذلك فانه يحرّم علينا ان نصف بكلمة **حب** العلاقات التي تجمع بين اناس تشدهم الى بعضهم بعضا اهتمامات مشتركة ، كلاعبي كرة القدم مثلا او الموسيقيين ، وعلى الاخص ان كانوا ينتمون الى جنس واحد . وهذا الموقف يعني تجاهل شهادة الاجسام والسلوك . فالمراة التي يتركها زوجها كل مساء ليذهب الى حانة الحيّ لا تجزم بان هذا الزوج يحب اصدقاءه اكثر مما يحبها هي ، بيد انها تعتبر تصرفه في قرارة ذاتها ضربا من الخيانة .

ان حب الرجل يذهب الى اقرانه وان كان جنسه ملكا لزوجته . اما المراة فان خصاءها يترجم بتمحور عواطفها ومشاعرها بكاملها من حول رفيقها ، وبانعدام الروابط مع بنات جنسها . فما دام حبها موجها نحو البحث عما يضمن

امن اولادها او امنها هي بالذات باعتبارها كائنا فزعا وابتر ، لذا لا يسعها ان تنتظر العون والمؤازرة من كائنات ضعيفة مثلها . ان النساء يعجزن عن الحب لانهن ، من جراء نقص في النرجسية ، لا يشعرن باي متعة في التقاء بنات جنسهن . ويتضح التأثير السلبي والمدمر لاختلال الامن على النرجسية العفوية والطبيعية من خلال اللجوء الى التبرج والمراوغة . وحتى اللواتي يعلن بحماسة فائقة عن حبهن لبنات جنسهن (باستثناء السحاقيات اللواتي يتوجب عليهن ان يبتكرن مثلهن الاعلى الخاص) نراهن يقمن فيما بينهن علاقات مخادعة ، متقلبة ، ومتوترة ، وذلك مهما اتسمت هذه العلاقات بالحميمية ، ومهما طال عهدها وتوثقت عراها .

لا شيء يمنعنا عندما نتحدث عن الاخاء بين البشر ان نتظاهر بأننا نشمل النساء به ، بيد اننا نعلم ان الحقيقة على العكس من ذلك . فالنساء ، بحسب الراي الشعبي السائد ، لا يجتمعن الا ليغتبن واحدة من معارفهن ، ويحرصن على عدم مغادرة مكان الاجتماع خشية من ان يُغتبن بدورهن . وقد يبدو هذا الكلام مزحة ، لكنه يعتمد مع الاسف على واقع مرير ، اسوة بالنوادر التي تروج حول الحموات . ان النساء لا يعرجن على المقهى الالتقاء برفيقاتهن . كما انهن ، بخلاف الرجال ، لا يختلقن الاعذار ، من هوايات التجميع ، الى الصداقات المدرسية القديمة ، الى النشاطات الرياضية البليدة ، لعقد الحلقات وجلسات السمر . وعندما يوافق الرجال على ضمهن الى حلقاتهم ، فانهن يراقبنهم ، بوجوه جامدة ، يتعانقون ويمرحون بحجة انهم ظلوا اطفالا تحت مظهرهم الراشد . انهن يجهلن كل شيء عن حب بنات جنسهن . وليس في وسعهن اساسا ان يحببن بعضهن بعضا بتلك الطريقة البريئة ، العفوية ، الطفولية ، لانهن لا يحببن انفسهن .

كل مرة يقدم فيهـا الانسان على فتح قلبه لغريب ، فانه يتلو فعل ايمـان بالحب الذي يجمع الانسانية ويربط بينهـا . صحيح ان وسيـلة الاتصال تقتصر هنـا على الكلام ، لكن مـن يتكلم يأمل فـي اجتذاب الاهتمام والعطف ، وفي الغالب يحصـل عليهمـا . فمحاوره يشعـر بانه عاجز عـن تقييم سلوكه ، اي سلوك المتحدث ، وفق معاييره الخاصة . وهكذا يضع نفسه مكان الآخـر . واذا ما فتـح الانسان قلبـه لآخر ، فذلـك لا ليحدثـه بالضرورة عـن حزنه وشقائه ، وانما احيانـا ايضا عـن فرحـه واعتزازه. فقد حدثني سائق شاحنـة ذات يومعن زوجته، وقال لي كـم هي جذابة ، وذكيـة ، ومحبة ، وجميلة ، ثـم ارانـي صورتهـا ، فاحمـر وجهي خجلا لاني كنت قد تصورتها جميلـة جمـالا جسمانيا : والحال ان المرأة التي بدت في الصورة كانت، بحسب مقاييس الموضة ، بدينة ، بلا رونق ، وزريـة الشكل. ان وظيفـة الروايات ، والمسرحيات ، والافلام السينمائيـة ان تحملنـا على التعاطف مع امثالنـا ، وعلى ممارسـة مشاعـر حب كثيرا ما تخنق تحت ضغط كوابت الحياة اليوميةواكراهاتها. فاذا بنـا لا نغار من جولييت ولا نحتقـر كاميل (٢)، بل نتفهم قاتل الملك او حتى الرجل الشاذ جنسيا . وذلك هو الحب .

ان حب الآخر يقوم على التفهم ، وبالتالـي علـى الاتصـال. فالحب هو الذي علمنـا ان نتكلم ، والموت هـو الـذي وضـع اصبعه على شفتينـا ، وحثنا على الصمت . ان الادب ، حتى ولو كـان هجائيـا مقذعا ، هـو فعل حب ، وقد اثبتت جميع وسائل الاتصال الالكترونية امكانية التفاهم . ولم يدرك الناس بعـد قوتهـا التوحيديـة تمـام الادراك . فعلى الرغم مـن الحجج الخادعـة التي يعتمدهـا الاخصائيـون ، والسياسيون ،

(٢) بطلة مسرحيـة كورناي « هوراسيوس » ، وقـد لعنت مدينتهـا ، رومـا، واسرتهـا لانهمـا نسببتـا في مصرع حبيبهـا . «م» .

والمختصون في نشر الاكاذيب والموت ، فان الرسالة التي تنقلها الينا نظرات طفل من اطفال بيافرا تجد دوما من يفهمها على حقيقتها .

لو كان في مستطاعنا ان نعطي عن الحب صورة مثالية قابلة للتحقيق ، لبدت وظيفته لنا مماثلة للعلاقة بين شخصيات تحقق ذاتها ، على نحو ما وصفها ماسلو MASLOW . فتوازنها هو ، في الارجح ، توازن مؤقت وغير ثابت. فقوى النظام والحضارة تحد على نحو مباشر من امكانيات تحقيق الذات . ويصور ماسلو هذه الشخصيات المثالية على انها محبوة بادراك افضل للواقع . وهذا ما يسميه هربرت ريد عيني البراءة ، اشارة الى الطفل الذي لا يحاول رفض الواقع. ولا تتحدد علاقة هذه الشخصيات بعالم الظاهرات بضرورة استغلاله ـ هذا ان لم تستغل هي من قبله ـ وانما بالرغبة في مراقبته وفهمه . انها تجهل التقزز والاشمئزاز كما ان المجهول لا يخيفها . ولا تتبنى هذه الشخصيات موقفا دفاعيا حذرا من الحياة ، كما انها لا تعرف التصنع والتكلف . واما عيوبها التي تلوم نفسها عليها فهي شيء من الكسل، وثورات غضب مفاجئة ، وبعض احكام مسبقة ، وقليل من الغيرة والحسد . وبدلا من ان تكون تأملاتها اجترارا فرديا وانانيا، فهي تتركز على مشكلات موضوعية . لهذا السبب تراها تتحمس لقضايا تتخطى اهتماماتها اليومية . ان الحاضر هو الذي يحدد انفعالاتها ، لا الحنين الى الماضي او استباق المستقبل. ومع ان ما من شعور بالاثم ، او بالخوف ، او اي شكل آخر من اشكال الاكراه يحث هذه الشخصيات على اعتناق دين من الاديان ، فان التجربة الدينية ، او « الشعور الكوني» بحسب تعريف فرويد ، اسهل منالا بالنسبة اليها منه الى الفريسيين . ان الشرط الاساسي لتحقيق الذات هو الاستقلال، او مقاومة المثاقفة . اما خطره فهو الشطط في الاستقلال ،

او غرابة الاطوار . واذا ما اخذنـــا براي ردرجرز الذي يؤكـد باتنــا لا نستطيع ان نحب الآخرين الا بقدر مـــا نشعر بأنهم لا يهدوننا ولا يشكلــون خطرا علينـــا ، اضطررنا الــى التسليم بأن هذا النمط من الاشخاص هم اكثر قــدرة على الحب . صحيــح ان الظروف قد تحول دون ان يحب احدهم جميع الناس دونمــا تمييز . كمــا ان الشخص الذي ينتمي الى هذه الفصيلة مــن الناس لن يكــون على الارجح من المتمسكين بأحادية الزواج بالمعنى الصارم للكلمة . ولن يكون شريكــا مرضيا بالنسبة الى الذيــن يشعرون بالحاجــة الى ان يكونــوا خاضعيــن ، مستغَليــن ، او الى اقامة شكــل آخــر من التعايش الاكراهي . ان الشخصيات التي تسعى وراء تحقيق ذاتها هي اقل تعدادا من غيرها ، وهي تفشل في زواجهــا بشكل عام . ويضيف ماسلو هذا التعليـــق غير المتوقع بصدد سلوكها الجنسي : « ثمــة خاصية اخـــرى لمستها في السلوك العاطفي والجنسي للاشخاص الاصحاء وهــي انهم لا يقيمون تمييزا حاسمــا بيــن دوري الجنسين . انهم لا يعتقدون ان المراة سلبيــة وان الرجل فاعل ، سواء أفي مجال الجنسية والحب ، أم في اي موقف او وضع آخر . ولشـــدة وثوقهم برجولتهم او بأنوثتهم ، فانهم لا يترددون ، اذا ما اقتضى الامر ، في تبني موقف جنسي معاكس . والجدير بالانتباه ان مثل هذه الشخصيــات تستطيع ان تكون ، بالتنــاوب ، سلبية او ايجابية في الحب .. وهذا مثال علــى كيفية حــل التضادات الشائعة عــن طريق تحقيق الذات . وفي ذلــك ما يقودنــا الى التفكيــر بأن هذه التضادات ما كانت لتقوم لو كان جميع الناس ينعمون بصحــة عقليــة جيدة » (٣) .

لعل ماسلو لــم يعبّر الا عن ميل ذاتي الى نمط معيــن من

---

(٣) أ.هـ. ماسلو : دوافــع الشخصية ، نيويورك ١٩٥٤ ، ص ٢٠٨ – ٢٤٦ ، الاستشهاد ماخوذ من ص ٢٤٥ – ٢٤٦ .

الشخصية ، وربما كان كلامه عبارة عن تسوية ، من جملة التسويات ، بين ايروس والحضارة . بيد انه يتوجب علينا جميعا ، على صعيد الافعال ، ان نتوصل الى شكل من التسوية . ويرشدنا ماسلو على اي حال الى طريق نستطيع ان نسلكها بدلا من ان يكتفي بأن يصف نظريا ما كانت ستكون عليه الشخصية فيما لو بلغ التحليل النفسي هدفه . والواقع ان التحليل النفسي لم يفشل حتى الآن في بلوغ هذا الهدف فحسب، وانما في تحديده ايضا ، وكم بالاحرى في تبريره امام عالم يترقب « عودة الروح الى اجسادنا ، وذاتنا الى ذاتنا ، والانتصار على الاستلاب البشري » (٤) .

والامر المدهش ان ماسلو ادرج النساء في الامثلة التي اعطاها عن الشخصيات التي تسعى الى تحقيق ذاتها . والواقع انه حتى ولو كانت الحجج التي تقدمتْ بها شخصيا بصدد مثاقفة النساء صحيحة ، يبقى ان النتائج السلبية والمضرة المترتبة على تقليد النموذج المقولب هي من الجلاء والوضوح، وان الصعوبات التي تواجهها العديدات من النساء للاقتداء به هي من الجسامة والفداحة بحيث لن تجد بعضهن مناصا من الانقياد الى اتخاذ موقف سلبي منه . ولا ريب في ان المرء يحتاج الى الكثير من الشجاعة والاستقلالية كيما يكون كما هو ، لكنه كلما خطا خطوة جديدة في هذا الاتجاه بدا الهدف المنشود اسهل منالا . ان المرأة التي تصمم على ان تسلك طريقها الخاص تدرك ان الآثار التي خلفها تكييفها غير قابلة للمحو ، بيد ان وعيها لهذه الآثار يمكنها من مكافحتها والنضال ضدها . اما التضليل الذي يخضع له الرجل فهو بالمقابل أخفى وأدق . وعندما لا تفرض المرأة شروطا قبل الارتباط بعلاقة عاطفية فانها تستطيع ان تفسخها بسهولة

---

(٤) نورمان براون : الحياة ضد الموت ، ص ١٤٤ .

اكبر ، نظرا الى المقاومة التي تبديها ازاء الذين يحاولون السيطرة عليها . ان راي صديقاتها يكون اجمالا في صالح الرجل الذي يبدي عن استعداده للزواج منها والذي يحبها، الخ . اما وصالها ، الناجم عن رغبة جنسية ثابتة وعن عطفها على الآخرين واهتمامها بهم ، فسوف يؤول على انه وصال اكراهي او عجز عن قول كلمة « لا » ، علما بانه مختلف تماما في جوهره . وكثيرا ما سيستهين بحبها اولئك الذين تكنّ لهم اكبر قدر من العطف والمحبة ، كما ان عزة نفسها ستتعرض للتهجمات والانتقادات العديدة . وهذه ضغوط لا يستهان بها .

على النساء ، مراعاة منهن للحب ، ان يرفضن الادوار التي يحددها لهن المجتمع . اذ لن يكون في وسعهن على الاطلاق ان يحببن وان يعطين بسخاء اذا كن مخلوقات منحطة المقام، مكابدة من العجز وانعدام الاستقرار .

اما على الصعيد الواقعي فان الرجال والنساء يحبون على نحو مباين تماما ، والسلوك الذي نطلق عليه عادة اسم «حب» بعيد عن العطف والرافة ومعاد للمجتمع الى حد يبدو معه وكأنه يتناقض مع جوهر الحب بالذات. ان كفة ثاناتوس (٥) راجحة على كفة ايروس في نمط حياتنا ، اذ ان المكانة التي يشغلها الاستغلال، والاثرة ، والمراوغة ، والوسواس، والهوس ، اهم بكثير من تلك التي تحتلها الايروسية ، والفرح ، والعفوية ، والسخاء .

---

(٥) ثاناتوس : اله الموت عند الاغريق ، ونقيضه ايروس اله الحب والحياة . «م»

الفصل السابع عشر

الغيرة

لقد تحدثت عن الحب باعتباره تاكيدا للثقة بالذات ، وامتدادا للنزعة النرجسية بحيث تشمل النوع البشري برمته، منظورا اليه في تنوعه وتباينه . ولكن طالما قيل لنا في صغرنا ان الحب الاعظم هو التضحية بالذات في سبيل الآخرين . ففي المدرسة كانوا يحثوننا على الاماتة وانكار الذات حبا بالآخرين . وكنا نحرم انفسنا من السكاكر، ونرمي بقطع نقودنا الصغيرة في صندوق للصدقات يعلوه راس زنجي ومكرس لنصرة البعثات التبشيرية . وكان تعريف هذا النوع من الحب سلبيا . فهو يقوم على اماتة الجسد ، وانكار الذات بتواضع ، والصبر والتضحية . وكان بعضنا يدرك ما في هذه الممارسات من انوية واثرة من خلال مشاهدة سلوك اكثر الفتيات ورعا وتقوى ، اذ كان هدفهن يتلخص في نيل رضى الله .

فقد كان علينا ان نقدم له كل عمل من هذه الاعمال الخيّرة، والا فان هذه الوديعة السماوية لن تدخل في حسابنا عنده. بيد ان الفكرة كانت بحد ذاتها مغرية . فقد كانت تدغدغ

ميولنا المازوخية مع اقترانها ، في الوقت نفسه ، بتخييلات الافناء والانعدام . كانوا يؤكدون لنا ان الحب الاعظم هو حب الأم التي تحمي ابنها بجسدها عندما يتهدده خطر ، وحب السِركة (١) التي تبعد الصيادين عن عشها . حب نبيل، غريزي ، وانثوي . ومثل هذا الحب يحرك امهاتنا جميعا ، والا لما تحملن آلام الانجاب ومنغصاته . فما من أم الا وراسها محاطة بهالة القدسية . وقد اوصانا الله بان نحب قريبنا كما تحب انفسنا ، لكن الراهبات كن يتأججن حماسة لفكرة حب هذا القريب اكثر من حبهن ذواتهن .

ربما كانت الغيرية مثلا أعلى ساميا ، بيد انها مع الاسف غير قابلة للتطبيق . فليس في مستطاعنا ان نتحرر من ذاتنا ، ولا ان نتصرف بعكس دوافعنا الخاصة ، اللهم الا اذا كنا من فصيلة طيور الحجل وتصرفنا بسائق الغريزة اسوة بالحيوانات اسيرة غريزة بقاء النوع . وكنا ندرك ، ونحن نصغي الى هذا الكلام الجميل ، ان تضحيات امهاتنا لا وجود لها في معظم الاحيان الا في مخيلة الراهبات . كنا نلاحظ ان امهاتنا يستخدمن تضحيتهن وانكارهن لذاتهن كوسيلة ابتزاز، مع انه ليس من المؤكد انهن كن سيصبحن ممثلات شهيرات او نجوم مجتمع لو لم ينجبننا . وكنا نلفت انتباههن ، في لحظات تيهنا وغيّنا ، الى اننا لم نشأ بارادتنا المجيء الى هذه الدنيا ولم نرغب في التردد الى مدرسة باهظة التكاليف. ولم تكن فكرة التضحيات التي يقدمها ذوونا من اجلنا لتملأنا بمشاعر الامتنان . بل كنا بالعكس نشعر بالخجل وبالذنب . فقد كنا نود أن يكونوا سعداء ، بيد انهم كانوا يبدون حزانى ومعانين من الاحباط ، وهذا بسببنا نحن . وعندما كانوا يؤنبوننا او حتى يضربوننا لاننا سببنا المتاعب

(١) انثى الحجل . «م» .

لامهاتنا ، كنا نحتج قائلين اننا لم نطلب منهن ذلك الاهتمام اللجوج بأفعالنا وتصرفاتنا . وعندما كانت دفاتر جلائنا المدرسية تعود علينا بالملامة والتأنيب ، كنا ندرك هوية الطرف الذي ينبغي ان يستفيد من التضحية .

لكن ان كان الصبيان قادرين على ابداء تحفظهم ازاء دوافع ذويهم ، بل على النظر اليها بوقاحة وصلافة ، فان البنات بالمقابل يصبحن ضحيتها في نهاية الامر . فالفكرة التي يكوّنها عن ذواتهن هي من الالتباس والغموض ، والتبعية التي انشئن عليها هي من القوة بحيث لا يكون امامهن مناص من الانقياد مبكرا الى ممارسة انكار الذات بدورهن . انهن يكفّرن عن اثمهن الاولي ، اثم القدوم الى هذا العالم ، بتنكرهن لمصالحهن الشخصية كافة كيما ينذرن انفسهن لاسعاد ازواجهن . وتلعب الايديولوجيا الرسمية دورها في تعزيز منطق التضحية هذا . فالخبراء في العلاقات العامة يسعون جاهدين الى حث الفتيات على امتهان التمريض بادعائهم ان مهنة المرضة هي افضل المهن وأبعثها على الرضى ، في حين انها في الواقع من اصعب المهن وابخسها تعويضا . ويكمن الشعور بالرضى ـ على ما يقال ـ في السعادة الناجمة عن فعل الخير . فان كان للممرضات من فضل عظيم ، فليس ذلك لانهن يخففن من عذابات المرضى فحسب ، بل لانهن يقبلن ايضا بأجر زهيد . ان رصيدهن في دفتر حسابات العواطف دائن باستمرار اذن . ويستطيع كل مريض اختبر مستشفيات الدولة ان يشهد على المعنى الحقيقي لهذا الاستغلال للمازوخية الانثوية : فلطالما يفضل المرضى طعم الارق والعذاب ، خلال ليالي السهاد الطويلة ، على الاستنجاد بممرضة مرهقة تقابل رنين الجرس بالصياح والصراخ .

ان الالتباس بين الغيرية والحب يتسبب في افساد معظم العلاقات الجنسية . فالتضحية هي النغم المعاد المكرر في معظم فصول الدراما الزوجية التي تؤديها النساء .

ويبدأ هذا النغم بالعبارة الفجّة المعهودة : « لقد وهبتك افضل سنوات حياتي » لينتهي بهذه العبارة المكيافيلية « لم اضاجعه الا لاساعدك على التقدم في عملك » . وتطالب المراة ، مقابل التضحيات العديدة التي تقدم عليها ، بالامان والاستقرار. لكن ان كان هنالك تبادل في الخدمات ، فلا يسعنا ان نتكلم عن تضحية . انه في الواقع ضرب من التجارة ، تجارة تقتضي طبيعتها بان تكون المراة دائنة على الدوام . صحيح اننا نلمس شيئا من انعدام الاستقامة هذا لدى الرجال ايضا عندما يبررون تقاعسهم عن المجازفة وممارستهم مهنا وضيعة بضرورة الوفاء بالتزاماتهم ازاء زوجاتهم واولادهم ، بيد ان هذه السمة الطبعية غير ثابتة ، في حين يصعب علينا تصور علاقة بين الرجل والمراة تكون فكرة التضحية الانثوية غريبة عنها . فما دامت النساء مضطرات الى العيش بالوكالة ، عن طريق الرجل ، فانهن يعملن جاهدات ليجعلن وجودهن ضروريا ، وهذا الاهتمام الدائب هو الذي ينعت تجاوزا بالغيرية . ان الغيرية سخف غير معقول . فالنساء يمارسن التفاني ونكران الذات بقدر ما لا يكون لديهن شيء آخر يقدمنه . انهن يضحين بما لم يملكنه في يوم من الايام : الذات . ان الصرخة التي تطلقها المراة المهجورة :«ماذا فعلت كيما استحق ذلك ؟ » تكشف للحال عن الاقتصاد العاطفي المضلل الذي مارسته . ولا يكتشف معظم الرجال ،الا من خلال المشاجرات والمشاحنات ، الى اي حد كان خضوع زوجاتهم خادعا وكاذبا ومتحملا منهن على مضض . ومن نافل القول ان هذه الغيرية الكاذبة ليست وقفا على النساء. لكن بما ان المراة ستحتاج الى الرجل كيما تعيش ، في حين ان الرجل يحيا حياته أمتزوجا كان ام غير متزوج ، فان هذه الغيرية الكاذبة ستظل تلعب لدى المراة دورا اهم من ذاك الذي تلعبه لدى الرجل . والحق ان غيرية النساء لا تعبر الا عن عدم اصالة وجودهن وعن نرجسيتهن المنقوصة .

الفصل الثامن عشر

الانويـــة

اذا كانت الغيرية وهما ومستحيلا ، فهذا لا يعني ان كل حب هو بالضرورة انوي المركز من حيث الجوهر . فالنرجسية التي قلت عنها انها اساس الحب ليست مرتبطة **بالأنا** ـ الذي ما هو الا الجانب الواعي او شبه الواعي للشخصية ـ وانما هي تعبير عن الشخصية برمتها . ولا تقود الانوية في الحب الى حب الغير ، وانما الى افتراض وجود وحدة بين شخصين ، وحدة يتعين فرضها وحمايتها ضد كل محاولة ترمي الى اقحامها في العالم الاجتماعي المحيط . فاذا ما احب احدهم شخصا آخر حبا قاصرا عليه ، ودلل على لامبالاة بمصير بقية البشر ، فانه لا يحب بالمعنى الحقيقي لفعل الحب، وانما يعاني فقط من تعلق تطفلي ويكشف عن مركزية ذات موسعة (١) . كان فرويد يعتقد ان الشغف الجنسي حصري لان الغيرة تبدو وكأنها تشكل جزءا لا يتجزا منه .

---

(١) اريك فروم : فن الحب ، ص ٣٨ .

ونلاحظ بالفعل ان جميع تجارب الزيجات الجماعية تنتهي الى الفشل بسبب عجز القائمين بهذه التجارب عن التغلب على انويتهم الجنسية ، على الرغم من الجهود الاكيدة التي يبذلونها في سبيل ذلك .

وتختلف غيرة الرجل عن غيرة المراة . فالمراة تتحول الى امتداد لانا الرجل ، اسوة بحصانه او بسيارته . فاذا ما سرقت منه حمّل السارق مسؤولية الجنح المرتكبة ، لا الغرض المسروق. لهذا السبب يسعى الرجال الى تصحيح صورة اناهم عن طريق التهديد باللجوء الى العنف مع الذين يبصبصون على زوجاتهم او يراقصونهن . فغيرة الرجال في مجتمعنا لا تقوم على اساس افتراضهم بان النساء ميالات الى الوصال ، وانما على اساس اعتقادهم بأنهن يتبنين على الدوام في العلاقات الجنسية موقف تقبل سلبي . وكثيرا ما يغازل الرجال زوجات غيرهم لا رغبة فيهن ، وانما رغبة في طعن الزوج . هذا ما يفسر تلك المنافسة السخيفة بين « الديكة » التي لا نزال نلمسها في المجتمع الانكلو ـ ساكسوني في القرن العشرين . وهنالك اشخاص يعبرون عن علاقاتهم الغرامية بكلمات تنم عن نزعة حصرية غيورة : « احب ان اكون بقربها . صحيح انني لا اشعر برغبة جامحة في التحدث اليها . لكنني اشعر بتعاسة شديدة اذا ما رايتها بصحبة آخر » (٢) . ان اللغة في مثل هذا النوع من الهوى تأخذ على الدوام طابع النفي : « لم ارغب ذات يوم في سواك ، فانت المراة الوحيدة التي احببتها » . وما دام العاشق لا يطيق حياة بدون معبودته، فعليها ان تظل الى جانبه ، اشاءت ذلك ام أبت. وهذا ما ينعت عادة بالحب . وما دامت المعبودة الى جانب الحبيب ، عوملت بكرم وسخاء ، لكن اذا ما رحلت غدت موضع حقد

(٢) مجلة Honey آب ١٩٦٩ .

وكراهيــة . وخير مثال على هــذا النــوع من التعايش نلقاه في قصة مرعبة ومحزنــة روتهــا الصحف الايطالية . فقد اقـــدم المدعــو ميــو كاليري على خطف الصبيــة ماريا تريزا نوفارا من بيت ذويهــا في بلدة استي في مقاطعة بيمون ، وعلى اخفائهــا في طابق ارضي لا يعرف عنوانه سواه . وكان يزودهــا بالطعام وبالمجلات المصورة . وقد دونت على هوامش صفحات هـــذه المجلات ملاحظاتها ومشاعرها في ايام الملل التي كانت تمضيهـــا وهي تنتظــر عشيقهــا . وقد قضى هذا العشيق في حادثـــة سيــارة . وبمــا ان موقع « عش غرامه » كــان مجهولا مـــن الجميع ، فقــد قضت الاسيرة المسكينــة بدورهــا اختناقـــا وهي تنتظــر عودة جلادهــا وقــد تزينت وتبرجت وتمددت على سريرهــا . لقد كانت عاجزة فعــلا ، وبالمعنى الكامل للكلمة ، عن العيش بدونــه .

لكن ان كان الرجال يعتبرون وفاء زوجاتهم دعما ضروريــا لاناهم ، وخيانتهــن افظع عار يمكــن ان يلحق بهم ، فــان النساء بالمقابل يبديــن عن استعدادهــن لتقبل خيانة ازواجهن حرصا على امنهــن . انهــن يكابدن من عذاب الغيرة لانهن يعشن علــى هاجس هجران ازواجهــن لهــن ، وهــو هجــران لا يستبعدنــه وان لم يكــن هنالــك ما يبرره . بالمقابل ، فان الرجل لا يحسب اي حســاب لتخلي زوجته عنه وهجرهــا له ما لم تثبت له الادلة ذلك . تقول احدى البطلات في كتـــاب كومبتون ماكنــزي **نســاء خارقــات :**

« يقول فولتير ان مــا من رجل يستطيع ان يتصور لماذا قد ترغب امراة في مضاجعــة غيره . وكان فــي وسع فولتيــر فــي اعتقادي ان يضيف قائلا ان الرجل الذي تجاوز مرحلة الشباب لن يكــون متاكدا على الاطلاق من **ان المراة التي تضاجعه ترغب فعلا في هذه المضاجعة** . لكــن منذ اللحظة الاولــى التي تقدم فيهــا امراة على مضاجعــة رجل ، فانهــا تعيش على هاجس **انه يرغب**

في مضاجعــة امراة اخرى »(٣) .

ان الرجل غيور بسبب عزة نفسـه . اما المراة فلأنهـا تفتقر الى عزة النفس . عندمـا سألت شابـا كـان قد ابـدى رغبتـه في ان يعيش معي هل سيكـون من النوع المتسلط ام لا ؟ اجابني انه لكثرة ما سيضاجعني لن يدع لي اي مجال لاشتهاء رجل آخر. وهذا الضرب من الاعتداد هـو الذي يدفع بالرجل الى استفظاع فكـرة خيانة المراة لـه . اما النسـاء فان الاقتناع الذي تولـّـد لديهـن بأنهـن عاجزات عـن ارضاء الرجال جنسيا او عن كبح جماح اهوائهم الجنسيـة ، هو بالتحديد ما يفسر شعورهن بعدم الاستقـرار .

يشجع مجتمعنـا احلال الشذوذ محل اللذة العفويـة ، وجميع الحيل والافانين التي تسمح للمراة باخضاع الرجل لهـا وبالحـد من سعيه وراء المغامرات الجنسيـة . لكـن ان كـان الاخلاقيون يحثون المراة على مناهضة نزعة زوجهـا الى الخيانة، فانهم يعترفون للرجل بالمقابل بحق ممارسة رقابة صارمة على تصرفات زوجته وعلى فرض قيود عليهـا ، حتى ولو كانت بريئة تمامـا . ونجـد امثلة عديدة على ذلك من خلال تصفحنـا المجلات النسائية . هاكم ، على سبيل مثال ، مقطعا من رسالة وجهها احدهـم للمحررة افليـن هوم في مجلة WOMAN (المراة) :

« لا ازلت اتشاجر مع زوجتي بصدد حفلة ساهرة حضرناها سويـة قبـل عام . فبعـد انقضاء اسبوع على تلـك السهـرة بادر احـد الرجال ، ممن راقصتهم زوجتي ، الى زيارتهـا فـي البيت اثناء وجودي فـي العمل . ولا ادري هل احسنت التصرف ام لا ، وانمـا المهم اني قصدت داره بدوري لأعرب عن احتجاجي على زيارته . وقـد ضحكت زوجته مني وقالت ان زيارة زوجها كانت وديـة مئة بالمئة . اما زوجتي فقد انبتني بعنف واحتداد،

---

(٣) كومبتون ماكنزي : نساء خارقات ، لندن ١٩٦٧، ص ١٠٧ .

واكدت انه ينبغي علي ان اثق بها والا ستذهب الى الفراش مع اول زائر كيما تعطيني سببا وجيها لتعذيب نفسي. والحال اني لا زلت أؤمن شخصيا بانه لا يحق لاي من الزوجين الانفراد في استقبال زوار من هذا القبيل . فهل انا على صواب ، ام علي ان آخذ بموقف زوجتي ؟ »

لقد ظل المسكين يفكر بهذه المسالة عاما بأكمله . استقبلت زوجته رجلا في اثناء النهار ، فظل هو يقلب هذه الحادثة بشتى جوانبها طيلة عام . ولانه لا يكن لها اي احترام او تقدير ، فقد آثر ان يثير هذه المسالة مع زوجة الزائر التي سخرت منه ، ومن ريبته وادعائه . اما زوجته فلم تبرهن على حبها له ، اذ لجأت الى التهديد بدلا من التصدي الب المشكلة. ذلك هو الزواج ، اساس مجتمعنا ! لكن افلين هوم لم ترفض هذه الاخلاقية ، لا جملة ولا تفصيلا . وانما تبنت موقف الرجل المرتاب في اصدقاء زوجته ، واطلقت على هذه الغيرة اسم حب .

« ما دمت تدين تصرف زوجتك ، فلا تحاول ان تقلده . لكن حري بك ان تتساءل عن الدوافع التي جعلتها ترحب بتعاطف رجل آخر معها . انا شخصيا لا اشك بان الزيارة كانت زيارة مجاملة فحسب ، لكن زوجتك قد اغتبطت ولا ريب لهذه الالتفاتة اللطيفة . ترى هل تصارحها بحبك اياها بالقدر المطلوب ؟ ان كنت قد اهملت ذلك ، فسارع الى البوح لها بحبك منذ الساعة ، لانها بحاجة الى استرداد ثقتها بنفسها. فكر بالحياة التي تعيشها . اما كنت ستشعر بالسأم فيما لو كنت مكانها ؟ اما كنت ستشعر بالحاجة الى نشاط فكري او اي اهتمامات اخرى ؟ فكّر بما تعاني منه زوجتك ان كنت تود ان تظل سعيدة ووفية » (٤) .

(٤) رسالة الى افلين هوم ، مجلة (المرأة) ، ٣ ايار ١٩٦٩ .

ان الاشخاص الذين يشترون الكتب ويطالعونها سيسخرون ولا ريب في هذا الكلام ، ويستبعدون ان يكون مثل هذا السلوك سلوكا نموذجيا لحضارة معينة . بيد ان العقول الالكترونية تثبت ان هذا التصور للحياة المنزلية لا يزال سائدا لدى غالبية قارئات المجلات النسوية .

من طبيعة هذا الحب ان يكون حصريا . وكل حب آخر ، بما فيه حب الاطفال ، قمين باثارة الغيرة . من هنا كانت كراهية الحماة التي تضرب بها الامثال ، والتي تكشف عن مدى انفصال الاسرة النووية عن مجمل الآلة الاجتماعية . ان العشاق لا يعيشون الا من اجل بعضهم بعضا ، ويختارون ان يكونوا شبه اموات بالنسبة الى العالم الخارجي . ويؤدي الرجل ــ الميت على خير نحو دور المستخدم النموذجي ، ويقتصر دور المراة ــ الميتة على انتظاره ، بعيدا عن المجتمع الذي شطب على وجودها ، في صومعتهما القرميدية حيث يستسلمان للعبة القتل الطقوسية ، بالمداعبات تارة ، وبالشتائم واللطمات طور .

تحاول المراة ان تبرهن على اهميتها وقيمتها امام بنات جنسها باختيارها رجلا جذابا وناجحا اجتماعيا . انه على الارجح شكل من اشكال الاصطفاء الطبيعي الذي يتحكم، منذ البداية ، بعملية البحث عن الشريك والذي كان يمكن ان يكون صحيحا لو لم يكن يتم وفق تلك المقاييس المزيفة والمبتذلة والتجارية الى ذلك الحد . فقد حاول رجل هام يحب سكرتيرته ، وضحى من اجلها بزواجه ، حاول ان يبرر لي اسباب هذا الهيام فقال ان ثمة رجالا شهيرين قد احبوها من قبله ، وانها كانت هيبية عندما كانت الهيبية صرعةدارجة، وانها قد رحلت عن حيّها الى حيّ آخر لان الاول لم يعد ذائع الصيت . وقد انعمت الطبيعة على هذه السكرتيرة بساقين ممشوقتين ، وبشعر طويل اشقر ، وبمظهر انيق .

اما امور الجنس فما كانت تخفي عليهـا منها خافية . فكيف لا يهيم بحبهـا بعـد ذلـك كله ؟ .. والنساء بدورهن يسبحـن بحمد الرفيق الذي اخترنه . وانه لمن الحماقـة بالفعل ان تتزوج امراة من فنـان شهيـر دون ان تبالـي بنجاحه وشهرته . ان كل انسان يرغب فـي ان ينتزع من الناس اعترافهم بجدارته ، بيـد ان حال مجتمعنـا كانت ستكـون افضل بكثيـر لو كان لديـه تصور اكثر تنوعـا عـن الجدارة ، ولـو أن كـل واحـد منـا يسعى الى حب الآخـر لا الـى احتكار حبه . لقد احبت الاديبة ليليان هيلمـان الكاتب داشييل هاميت طول حياته ، بـل ظلـت تحبه حتى بعـد وفاته . بيـد ان هذا الحب لم يمنعهـا من حب اشخاص آخريـن : كمـا انهـا لم تحاول ان تفرضه عليـه فرضـا عندمـا لم يكـن يرغب فيه . وعندمـا دنت ساعة موته مكثت الـى جانبـه لتمـد لـه يـد العـون والمساعـدة . وما قصـة الحـب الغريبـة هـذه ، قصـة حـب شخصين عـن بعد ، سوى شكـل بيـن جملـة اشكال اخرى يمكن للحب ان يأخذهـا فيمـا لو كـان لدينـا من الخيال والبصيرة مـا يسمح لنـا بانقاذه من النموذج المقولب الذي فرضه عليه مجتمع الاستهلاك المحتضر .

ان العلاقة المميزة للحب المتمحور على الذات ، حتى عندمـا يتظاهـر بالغيرية ، تتمثل في الاجابة بالنفـي عن السؤال التالي: « هل اقدّم سعـادة من احب على وجوده بقربـي ؟» فمـا ان نسعى الى ان نجعل من وجودنـا امرا لا غنـى عنـه ، وذلـك بخلقنا لدى الاشخاص الذين نحبهـم تبعيـة تجعلهـم قابليـن للانجراح ، نكـون قد اضفينـا على حبنا شكـل الانوية والاثـرة الذي يحظى بتأييـد المجتمع . ان كل امراة تبذل جهودا يوميـة من اجل الحفاظ على فتنتهـا ، وطهـو انواع الطعام التـي يستطيبهـا زوجهـا ، ودغدغة كبريائه واعتداده بذاته علـى حساب حسه بالواقع ، والتقرب منه على حساب اي كائن آخر،

وتشجيعه على تجاهل الراي العام كيلا يجد العزاء الا بين ذراعيها ، ان هذه المراة تقيد زوجها في الحقيقة بقيود فولاذية ثمينة بأن تخنقهما معا في نهاية المطاف . فالمراة تخون زوجها عندما ترغم نفسها على الضحك لنوادره المبتذلة . والرجل الذي يقول لزوجته :« ماذا عساي فاعلا بدونك ؟ » هو انسان هالك اساسا . وسيكون انتصار زوجته في هذه الحال انتصارا كاملا ، وانما مرير . فلكثرة ما ضحى الاثنان بكل ما كان يجعلهما في بادىء الامر محببين وانيسين على مذبح تعايشهما القائم على تبعيتهما المشتركة ، باتا عاجزين حتى عن ان يؤلفا ، كلاهما معا، كائنا بشريا كاملا .

الفصل التاسع عشر

الهـــوس

ان الحب اشبه ما يكـــون بالصدمـة النفسية . وهـــو بالتالي نـوع من الضلال العقلي .

وعلائم الحب الخارجيـة هي الارق ، والتهوس ، وفقدان الشهيـة ، وتناوب النشوة والاكتئاب ، والنظرات المحمومـة ، والاضطراب وجيشان النفس .

اما التفسير الاساسي لهذا الاضطراب العقلي ، الـــذي يتأدى بالفرد الى تضييع الاشياء ، والى النسيان ، والى الوقـوع ضحيـة الخلط الفكري ، والى اظهار جميع اعراض اللامسؤولية، فهـو استحواذ الموضوع المحبوب ، حتى ولو لـم يقع عليه نظـر المحب الا مرة واحدة ومن بعيد . ويشغل الموضـوع المحبـوب باستمرار افكار المحب قاطبة ، وان كـان هذا الاخير لا يعرف بالاجمال الا القليل بصدده . وهـو يعزو اليه جميـع الصفات الحميدة التي يثمنهـا تثمينـا عاليا ، سواء اكان يملكها فعـلا ام لا . وهـو ينتظـر منه اكثر مما يستطيع اي كائن بشري ان يعطي . ويلعب الموضوع المحبوب من جراء ذلـك دورا خاصـا

بالنسبة الى « انــا » المهووس الذي يقرر بانه الشخص الوحيد الذي يناسبه . ويبرر هذا الاقتناع ، فيمــا يتعلق بالرجــل ، سلوكه العدائي سواء افي محاولته الاستئثار بالموضوع المحبوب ام فـــي سعيه الى ابعــاد المنافسين عنه . اما بالنسبة الى المرأة فــان هذا الهاجس الاستحواذي يترجم عن نفسه ، نظرا الــى استحالة السلوك العدواني ، بميل الى اجترار الافكار السوداء، وبنوبات من الكآبة والعصبيـــة ، وبانتظار رنين الهاتف ،وبالرغبة فـــي التحدث عـــن الموضوع المحبوب مع نساء آخريات ، بل حتى بموقف متعال ومتعجرف يهدف الى استرعاء انتباه المحبوب .

يُشبّه هذا الهاجس الاستحواذي ، في الشعـــر والغنـــاء والامثال الخ، بالنار : نار الرغبة التي تكوي ، ونـــــار الحرمـــان التـــي تُنحِل وتضني . وقـــد وصف راسيـــــن الحب بأنه داء يصيب الروح والجسد معا .

وخير تكريس لهذه الصورة للحب نلقاهـــا في الاغانــــــي العاطفيـــة التي تغص بالقلوب الخافقة ، وبالعيـــون التي بهرها نور سماوي او اعماهـــا الدخـــان المتصاعد من مرجل الهـــــوى الذي هـــو الفؤاد . ولا تتعثر اقدام العشاق ، ولا أحد يدفعهم . بل هم يسقطـــون من تلقاء انفسهم ، محمولين على اجنحة الامل، في نشوة لمســـة او قبلة . إن مسحة من الفرابة المحببة تجللهم، فيظهـــر عليهم وكأنهم فريسة الم مستطاب ، وضحية تعذيب بقفاز من المخمل . ايامهم تنقضي في انيـــن ونواح وغياب عن الواقع . واذا مـــا نجوا من هذا المصير البائس ، امضوا العمر وهــــــم شاخصو البصر الى صورة الحبيب .

تدندن ربـــــات البيـــــوت لاشعوريـــا بترهـــات هـــذه الاغانـــــي العاطفيـــة وهن يؤديـــــــن اعمالهـــــــن الرتيبـــــة والمملـــة . لكـــن هل فكرت واحدة منهـــن بالنتائج الفعلية التـــي تترتب على العمى الذي يحدثه الحب ؟ وماذا يبقى من الحلــــم عندمـــا تهمد نار القلب ويتبدد الدخان الذي كـــان يعمـــي عــــن الواقـــع ؟ ما من أغنيـــة تتحدث عن ذلـــك فـــي الواقع .

ان الحب كان ولا يزال ، في عرف الناس ، أعمى : فكيوبيد ، اله الحب ، معصوب العينين كما هو معروف . بيد ان هذا العمى يؤول اجمالا على انه رفض لرؤية الحبيب على حقيقته ، وبالاخص على انه تعام عن عيوبه .

ان عجز الارادة والعقل عن التغلب على هذه الظاهرة ــ ظاهرة الحب الاعمى ــ يتجلى في الاوصاف والنعوت التي تطلق على حالة الحب فالانسان يحب بـ «جنون» ، وبـ «شغف» ، و بـ «ولع» ... ولم يدر في خلد احد على ما يبدو ان في وسع الانسان ان يحب بصفاء ذهن، بحنين، باخلاص . ولا يتفق المراقبون حول المناعة التي يعطيها هذا المرض. بعضهم يدعي أن الحب الحقيقي هو الحب الاول، وبعضهم الآخر يقول ان الحب الثاني هو الاصح، في حين يذهب فريق ثالث الى الادعاء بان الحب الامثل هو الذي يتجدد اسبوعيا، بل يوميا .

من خصائص هذا الداء انه يتمرد على كل علاج. اما طريقة تشخيصه فتختلف وتتنوع. فالمراقبون يبنون احكامهم على بلبلة المصاب، على تشوشه وتضاؤل فعاليته، على اسرافه في الاهتمام بالموضوع المحبوب وهو ما يتترجم بالفضولية والتفكر. لكن ينبغي مع ذلك ان نأخذ بعين الاعتبار ولع هؤلاء المراقبين انفسهم بكشف الحب، لانهم يجدون متعتهم في ذلك اسوة بالمولعين بالتلصص ، ولهذا السبب تراهم يساهمون بدورهم في خلق حالات كهذه. فهنالك تعاطف اكيد مع كل من يقع في شراك الحب. وان لم يكن هذا الحب متبادلا، خفت حدة علائمه او حولت الى موضوع آخر، اللهم الا في بعض الحالات حيث تتفاقم وتشتد فتجعل من حياة المحب جحيما .ويتوقف ذلك الى حد كبير على موقف المريض من مرضه. فبقدر ما يكون مازوخيا، وميالا الى الشك في قدرته على الظفر بمن يحب، ينزع بقدر مماثل الى الاكتواء بنار العزلة . ومع ان الموضوع المحبوب يكون في كثير من الاحيان على جهل مطبق بالعاصفة التي يفجرها في نفس الآخر، فانه يعد مسؤولا عما وقع،

ويتهم بالقسوة وبنكران الجميل ازاء شخص لايريد له سوى الخير. واذا ما اعتدى المحب على الموضوع المحبوب انتقاما لعدم اكتراثه ولامبالاته، تعاطف معه القضاة، ولا سيما اذا ما اعتبر الموضوع المحبوب غير جدير بالتقدير والاحترام .

وهنالك اجماع على الاعتقاد بأن النساء لا يصلن الى مثل هذه الحالة الا اذا ابتعثها فيهن الرجل عن قصد وتصميم . لكن بما ان الحب يصور على انه حالة مرتجاة ومرغوب فيها، وبما انه يحاط بهالة من السحر يضفرها تراكم الشهادات بصدده، تنزع المراهقات مع الاسف اكثر من المراهقين الى انفاق اوقاتهن في عذابات الهوى . ومع ذلك، فان الميثولوجيا الشعبية ترفض الاعتراف للفتيات بالمبادرة الى الحب ولا تقر لهن بأي دور سوى الانفعال مع مغازلة الرجال لهن. والقبلة، التي لا يعلو شأن على شأنها، هي التي تكشف للفتاة عن اسرار الحب .

«كانت تلك القبلة قبلتي الاولى، وقد بلبلت كياني وجعلتني احلق في النشوة. فمنذ زمن طويل وانا هيمانة بحب مارك. وعندما رحنا نتبادل القبل ادركت انه يحبني بدوره » (١) .

يخلق احتكاك الشفاه واللسانين نشوة حقيقية اذن لدى العاشقين الولهانين. بيد ان الحب، في الحالة المشار اليها، لم يكن حقيقيا واصيلا على الرغم من تماثل دلائله. فبتسي، بطلة هذه المغامرة ، كانت قد قبّلت للتو من قبل مارك «افضل رياضي في المدرسة، واغنى صبي في المدينة. يا لحظي الرائع!». لكن جارها وصديقها هيو حذرها من غطرسة مارك وانانيته. وقد تشجع هيو ذات مرة على البوح بغرامه فعانق بتسي وكاشفها بحبه. «عندما قبلني تسارعت دقات قلبي، وانتابني شعور اعجز عن التعبير عنه، شعور بالسير فوق الغيوم». وفي المرة الثانية كان

---

(١) القلوب المعذبة ، السنة الثانية ، العدد ٥٧ ، كانون الاول ١٩٦٠. «القبل قد تكون كاذبة » .

الحب حقيقيا على ما يبدو. هذا على الاقل ما تؤكده الخاتمة : «لقد اخطأت في المرة الاولى، وقد ادركت خطأي عندما استطعت ان اقارن. فالحب ليس كما نتصوره على الدوام، والقبلات قد توقعنا في الضلال» (٢).

ويستحيل في الواقع التمييز بدقة بين الاحاسيس التي اثارتها القبلتان. فقد وصفت القبلتان، في كلتا الحالتين، بعبارات تصلح لوصف الآثار التي يحدثها المخدر : خفقان في القلب، طنين في الاذنين، ارتخاء في الساقين. والحب في الواقع هو المخدر الذي تغلف به الميثولوجيا الشعبية الحياة الجنسية. فالجنسية بلا حب تعتبر اشباعا فظا لحاجة حيوانية. اما اذا اقترنت بالحب فتغدو وجدانية متسامية. بيد ان بتسي لم تجر مع ذلك تمييزا بين القبلتين الا لدوافع عملية. فقد رات انه من الانسب ان تتزوج من شاب ينتمي الى طبقتها الاجتماعية، ولم نكن لنعترض على هذه السياسة فيما لو افصحت عنها بلا مواربة بدلا من ان تغلفها بتلك السفسفة عن قبلتين لا سبيل الى المقارنة بينهما. فالمقاييس المعتمدة في كلتا الحالتين هي اقرب الى مقاييس الهلوسة منها الى المعايير التي تعتمد في تقييم الزواج المعقول والمنطقي. وهي لم تأخذ في اعتبارها سوى الانفعالات الانوية، ولم تحسب اي حساب لما يفترض فيه ان يكون اتصالا بين شخصين يتساءلان حول مشاعرهما وعواطفهما .

هذا الخلط هو الصفة المميزة لكل الادب الذي يصف الحب «الحقيقي». فالاحكام المسبقة في الميدان العاطفي تحمل على الاعتقاد بأن الحب غير قابل لان يخضع لسلطان العقل والارادة، في حين يقابل الهوى الفوضوي بالحذر والارتياب . ويصار بوجه عام، كما في المثال الذي اسلفنا ذكره، الى تصوير الزواج الانسب على انه الاكثر اثارة لا الاكثر واقعية ومنطقية. والفارق الاجتماعي

---

(٢) المصدر نفسه.

بين الحب الواقعي والحب الخيالـــي هو ان الاول يؤدي الـــى الزواج. ومن اجل بلوغ خاتمة الزواج فلا غضاضة اذا ما تراجعت نسبة الاثارة تراجعا ملحوظا، فهذا التراجع مقبول وان كان غيــر مسلم به رسميا. وتبقى علاقات الزنى على هــذا الاساس اكثــر اثــارة من العلاقات الزوجية، بيد ان حضارتنا ترغمنا على ادعــاء العكس. ان المقالات الصحفية التي نشرت حول كتاب تايلور كالدويل **دع الحب يأتي اخيرا** قد تطرقت، بين جملة المواضيع التي تطرقت اليهــا، الى المسألة التالية : «هل يقارف المرء ذنبــا اذا مــا تزوج قبــل ان يكون قد وقع في غرام الشريك المختار؟». ويشــاء الادب العاطفي ان ينتصر الحب على جميع العقبات التي تواجهـــه، وان يطهر ويقدس الزواج والعلاقات غير المشروعة في آن معا، على مــا فــي ذلك من مفارقة .

يتغنى الادب الشعبي بلاعقلانية الحب مــن خـــلال قصص النســاء اللواتي تخلين عن طموحهن وعن المتع الباردة التــي كـــان يحققها لهن عملهن من اجل الحب الحار والآسر للزوج المخلص. فهذه مديرة مؤسسة تجارية رائجة تقاوم، طوال الشهر، حب منــدوب تجاري شاب، الى ان يقابل جفاءها ببرودة توقظ شيطــان الغيــرة فــي نفسها. بعد ذلك يتعرض لحادث فترافقه في سيارة الاسعاف الــى المستشفى. فعندما يرسل الحب نداءه تتلاشى كل مقاومة..

ان هذه الازمات السيكولوجية التي يصفها الادب العاطفـــي تحمل الضحايا غير الواعيــة على اكتشــاف حقيقــة مشاعرهــا الغرامية، تماما كما قد يحمل المصاب بداء البرص على اكتشـــاف دائه بصب محتوى طشت من الماء المغلي فوق ساقــه المخدرة . وقــد يكون هذا الضرب من الاستبارات مفيــدا ، بــل مطلوبــا بالنسبة الى الاشخاص الذين يشكون في حقيقة مشاعرهم . «ان الحب لن يكون بالفعل حبا، ما لم يخض تجربة الواقع». وتجربــة الانفصال قد تثبت ما اذا كان الهوى الاستحواذي قابلا للاستمرار ام لا . وقد وضع الخبراء في هذا الفن العلاجي لائحة باسئلـــة

يتعين على المريض بالحب الاجابة عليها. بيد ان هذه الطريقة لا تعطي نتائج حاسمة. وتتدرج هذه الاسئلة من السؤال التقليدي: «اذا هجرك الحبيب فهل تقوى على العيش من بعده؟» الى السؤال الواقعي: «هل تلاحظ ان رائحة فمه كريهة؟» .

ومن نافل القول ان مثل هذا الوصف ومثل هذه الاسئلة لا تحيط بسائر اشكال الحب. انها تقتصر على الهاجس الاستحواذي المدمّر الذي تقع ضحيته بطلات قصص الحب الكبرى، بطلات القصص المصورة والروايات الملفقة التي تكرس آلام الهوى وعذاباته. ويتعين على النساء ان يدركن ان مهمة ميثولوجيا الحب الفظة هذه تنحصر في تشجيعهن على اتخاذ مبادرات لاعقلانية يكون من شأنها القضاء عليهن. اذ ليس ثمة علاقة بين الهوس وبين الحب الذي ما هو بغشيان، او مسّ او هوس، وانما هو «فعل تعرّف، والطريقة الوحيدة لادراك الماهية الحميمة للشخص» (٣) .

---

(٣) و. شوارتز، سيكولوجيا الجنس، لندن ١٩٥٧، ص ٢٠ .

الفصـــل العشرون

الحب الرومانســـي

ربما لم يعد صحيحا ان الفتيات يحلمن بالحب. وربما كـان لثـورة البوب Pob ، التي احلت الرغبة الجسدية مكان العاطفية باقحامها الاخلاق الجنسية للموسيقى الزنجية المدينية على الثقافة التـي اوجدتها الشبيبة برسم استعمالها الخاص، اثرها الهائـل عـلى العادات الجنسية. وربمـا استبدلت فتيات اليـوم الاوهام الرومانسية لمراهقتي بمعركة جنسية فعلية. بيد ان ذلك كله ليس بالامر الاكيد . فقد كشف التحقيق الذي اجراه البروفسور بيتر مـان، من جامعة شيفيلد، ان فريقا كبيرا من النساء اللواتـــي تتراوح اعمارهن بين ٢٥ و ٤٥ عاما لا يزال يطالع بشغف الروايات العاطفية، وعلى الاخص ربات البيوت والسكرتيرات. ويصل الامر ببعضهن الى شراء ثمانين كتابا في العام الواحد، حتى غدت سوق هـذا النوع من الادب اليوم اوسع منها في اي وقت سبق (١). ان

---

(١) الناشران ميلز وبون هما اللذان طلبا من البروفسور بيتر مان اجراء هـــذه الدراسة التحليلية لزبائنهما ثم نشراها تحت عنوان : القصة العاطفية، ١٩٦٩.

الرومانسية لم تمت! هذا ما اكدته مجلة **وومنز ويكلي** (اي **اسبوعية المراة**) في مقال نشرته في اب ١٩٦٩ .

«على الرغم من الحريات التي يتمتع بها شباب اليوم فان معظمهم لا يزال يهدهد احلام الجيل الاسبق عينها، ويجد الحياة غنية بالمغامرات، ويحترم اسمى القيم وارفعها ... كانت كاتي عشية ذلك اليوم تبدو، وهي جالسة فوق ارض الحديقة المعشوشبة، وكأنها صورة غلاف لقصة حب من العهد الفيكتوري. كان ثوبها الابيض، المصنوع من قماش شفاف، معقوداً بأزرار حتى عنقها، ويتهدل مغطيا ساقيها حتى خفها الحريري الاسود. وكان شريط من المخمل الاسود يلتف حول خصرها، وسلسلة ذهبية تتوسطها ميدالية تحيط بجيدها. اما شعرها الاسود فكان منفرقا بخط في وسط الراس ... وقد سارتني امها قائلة : «انها ذاهبة الى حفلتها الراقصة الاولى، وهي في حالة انفعال لا توصف» ... ومقابل كل فتاة واحدة تستنشق الماريجوانا بحزن وكآبة في حانة مظلمة، هنالك الآلاف من امثال كاتي اللواتي تهتاج احاسيسهن لفكرة ارتدائهن اول فستان للسهرة » (٢) .

ذلك هو الحب الرومانسي في ظاهره . ان الحماسة التي وصف بها كاتب المقال ، وهو رجل ، ثياب الفتاة الشابة لهي نموذجية بالنسبة الى هذه الميثولوجيا. فالحفلة الراقصة هي احتفال مقدس ستظهر فيه كاتي في أوج مجدها كيما تغدو موضع غزل وعبادة. وسوف يقفو رفيقها الشاب اثرها، وقد اخذته النشوة، وسوف يضغط على يدها الطرية، ويعانق خصرها النحيل ويطير بهذه المخلوقة التي رمت سلاحها فيحلقان معا على حلبة الرقص، هو في بزته السموكنغ السوداء، وهي في ثوبها الابيض الفضفاض. وسوف يمتدح الشاب جمالها، والرشاقة التي اظهرتها

---

(٢) وومنز ويكلي ، ٢ ـ ٧ ـ ١٩٦٩ .

في الرقص ، ويشكرها على هذه السهرة التي لا تنسى .

في عالم الرومانسية العاطفية لا يحصل تبادل قبل ما لم يعلن الحب عن ولادته، اللهم الا اذا حاول دون جوان حقير ان يخدع فتاة بريئة، وانما لبرهة فقط، اذ سرعان ما يهب لنجدتها بطل شهم وكلي القدرة. فالقبلة الاولى هي رمز النشوة، وتعارف القلوب، ووشكان الزواج. وان لم ترمز القبلة الى جميع هذه الامور، كانت **كاذبة**. ومع ان هذا الكلام هو الحماقة والسذاجة بعينهما، فانه يشكل الاساس الذي تشيد عليه اساطير الصحافة العاطفية. ان الحالة التي يفترض في القبلة ان تتمخض عنها هي في الواقع من صنع الخيال، اذ نادرة هي الشفاه المزودة بمثل هذه الطاقات الكهربائية والانتشائية ...

تتوهم الفتاة ان الحب، عندما سيدق باب قلبها ويقتحم حياتها، سيكون رائعا، عظيما، لا ينتسى. ربما لن تغرم فورا بفتى احلامها. فقد يشعران ازاء بعضهما بعضا بمودة تنمو باطراد الى ان يأتي اليوم الذي يتبادلان فيه تلك القبلة ــ المعجزة . ويفترض بعد ذلك ان يواظب الشاب على اظهار مودته، وتقديره، وان يبدي عن اعجابه الشديد، وعن شهامته ونبله في شتى الظروف والمناسبات. فالبطل الرومانسي يتقن فن معاملة النساء. فهو يبعث اليهن بالزهور، وبالهدايا الصغيرة، وبرسائل الحب، وربما بقصائد الشعر التي تتغنى بجمال شعورهن وعيونهن. كما انه يقيم على شرفهن حفلات العشاء على ضوء الشموع، على الشرفات السابحة في ضوء القمر،وعلى انغام الموسيقى الناعمة. وهو لا يستعجل الامور، ولا يهتم بالناحية الجسدية. كل ما هنالك ان انفاسه قد تضطرب،وشفتيه المضطرمتين بنار الحب قد تطبعان قبلة على وجنتها. كما انه سيبمس بكلمات حب وهو يداعب شعرها الغزير. فللاشياء الصغيرة مكانتها الكبيرة في الحب الرومانسي. فعلى الحبيب مثلا ان يأتي لحبيبته بقطع الشوكولاته التي تؤثرها، وان يطلق عليها اسماء غنج ودلع ، وان

يقـدم لها هدية بمناسبة عيد مولدها، وان يحتفل بذكرى لقائهما، الخ. كما يتعين عليه ان يتذكر ابسط التفاصيل التـي تتعلـق بحبيبته، وان يهيم برائحة عطرها، وبثيابها الداخلية المخفخفـة، وبمناديلها المزركشة، وبالهرر الصغيرة التي تداعبها فوق ركبتيها. فالنساء لا يرتوي لهن غليل من السحر، والغموض، والشامبانيا، والالتفاتات اللطيفة واللبقة، والحنان ، والاثارة، والعبـادة ، والتقدير. اما الرجال فانهم في غالبيتهم يجهلون كل شـيء عـن هذه التخيلات الانثوية لانهم لا يطالعون الادب عينه ولا يتعرضـون لتجارة الرومانسية العاطفية. ان الرجل الذي يفتعل هذا السلوك لارضاء النساء، ان بدافع الرغبة الجنسية وان بدافـع الجشـع، يكون موضع خشية او احتقار من قبل رفاقه الذين يتهمـونـه بالتذبـذب .

تلقى الصحافة العاطفية رواجا عظيما في بريطانيا. فمجلـة **جاكي** التي تتوجه الى مراهقات تتراوح اعمارهن بيـن العـاشرة والسادسة عشرة، تطبع مليون نسخة. والعجيب في هذا الادب العاطفي هو ذلك الاهتمام الذي تخص به بعض الاشياء التي تؤدي دور الصنم Fétiche . فالرومانسية العاطفية تبدو وكأنهـا مرتبطة بالاسطوانات، والكتب، والترهات، بل بمقعد في حديقـة عامة،كما هي الحال في القصةالتالية التي تكاد ان تكون سيريالية. فهاري وكات فتى وفتاة متحابان. وقد اعتادا على الالتقاء فـوق مقعد في حديقة عامة حيث كانا يتبادلان عبارات حب مـن النمط التالي : «ايه كات، اني احبك اكثر من اي شيء آخر فـي هـذا العالم» ــ «وانا يا عزيزي احبك اكثر من اي شيء آخر فـي هذا الكون» . وقد ارتدى المقعد مع الايام اهمية قصوى في علاقتهمـا. ويـوم قرر المجلس البلدي نقل هذا المقعد الى خارج الحديقـة هرولت كات الى مكتب هاري،في البداية، وناشدته بـان يفعـل المستحيل لانقاذ هذا المقعد ، ودعته الى ان يظل واياهـا جالسين فوقه ليمنعا العتالين من اخذه. ونزل هاري عند مشيئتها . بيـد

ان رئيسه، المفتش في دائرة المساحة، هدده بالتسريح اذا ما ظل يتحدى ارادة المجلس البلدي. فرضخ هاري في نهاية الامر، وترك كات تدافع وحدها عن المقعد. وقد رات في موقفه الاستسلامي هذا دليلا على عدم وفائه واخلاصه. غير ان واحدا من بين الذين عهد اليهم بمهمة نقل المقعد، وهو عاشق له قيمته ولا ريب نظرا الى شعره المسدل على طريقة بايرون والى حنكه الصلب كالصوان، يتنطع لحماية الفتاة ويحتل المكان الذي اخلاه هاري الى جانبها. «سندافع عن هذا المقعد من اجلك انت، ومن اجل جميع العشاق في المستقبل»، هذا ما يقوله لها. وتبدو البطلة في الصورة الاخيرة وهي تنظر الى منقذها بعينين مغرورقتين بالدموع، وفمها الطفلي والحرِد يكاد يلامس جانبيا وجه البطل البارز الاسنان والفكين. وتقول الكلمات التي طبعت الى جانب الفقاعة الخارجةمن فمها(١): « لكنك ستخسر عملك هدرا . فهل تعتقد حقا اننا قادران على الانتصار؟» . وتجيب الكلمات التي طبعت الى جانب الفقاعة الخارجة من فمه هو : «اني لواثق من اننا سننتصر. فكل شيء يغدو ممكنا اذا ما توفرت العزيمة والمحبة الصادقة. فلنحاول..»

ان بطل هذا النوع من الروايات انسان مسيطر، متفوق على حبيبته من اكثر من جانب، اكبر منها سنا، واعلى منها منزلة اجتماعية، او على الاقل اكثر ذكاء واطلاعا على الحياة. انه متحكم ومستبد، ولكنه رقيق مع حبيبته، عطوف عليها، وحريص على انارة طريقها وتجنيبها المطبات الخطيرة وكأنه اب عطوف . وقد يكون قاسيا، بل جافا ومتجهما. لكن البطلات ينجحن على الدوام

---

(١) تتحدث المؤلفة هنا عن ابطال رواية مصورة، اي «فوتو-رومان»)، وقد جرت العادة في هذا النوع من المنشورات ان تقترن عبارات الحوار بحلقات او دوائر صغيرة تحدد هوية المتكلم، وقد سمتها المؤلفة «فقاعة» من باب السخرية ورأينا ان نترجم الكلمة حرفيا حفاظا على روح النص . (م).

ـي استدرار عطفه وتليين قلبه بفضل تواضعهن، وجمالهن، وسحر زينتهن. وغالبا ما يكون البطل انسانا عانى من خيبة عاطفية او رجلا يحتقر النساء. غير ان نار الهوى تكمن تحت رماد ظاهره المتصلب، وان كان يكبتها رأفة منه بالبطلة وادراكا منه لحاجاتها العاطفية. ان نموذج هؤلاء الابطال رومانسي بالمعنى التاريخي للكلمة، لانه يتحدر من روشستر، وهيتكليف (٢)، ومستر دارسي واللورد بايرون. لكن المنطق السليم الذي نلقاه عند جين اوستن والاخوات برونتي يتلاشى ويمحى لصالح العواطفية لدى الليدي كارولين لامب. وقد ابتكرت جورجيت هاير، التي استغلت عن سابق تصميم النجاح الجنسي للبطل البايروني، النموذج المثالي لعصر البلاستيك، اللورد ورث. انه مثال موفق عن النموذج المقولب، اذ ان جميع ابطال قصص الخيال العاطفية يشبهونه بقدر او بآخر.

«كان مثالا للرجل العصري. وقد اضطرت مس تافرنر الى التسليم بأنه رجل جذاب، لكنها شعرت على الفور بالنفور من هيئته. فقد بدا مغرورا بذاته. ان عينيه، اللتين راحتا ترمقانها بسخرية من تحت جفنين سأمانين، كانتا اقسى عينين راتهما حتى الان، وما كانتا تكشفان عن اي انفعال، وانما عن ضجر وملل. وكان انفه اكثر استقامة مما ينبغي في نظرها. اما فمه فكان مشدودا ومرسوما باتقان، لكن شفتيه كانتا رقيقتين. وقد قرات فيهما سخرية وتهكما ...» (٣).

بعكس جورجيت هاير، التي تجنبت، من قبيل الحشمة او التزمت، استغلال الجانب الجنسي في علاقة الحب بين بطليها، تعمدت بربارا كارتلاند بالمقابل الاسراف في وصف القبلات، مبرزة على هذا النحو الطابع الاساسي للادب العاطفي. في روايتها

---

(٢) بطل رواية اميلي برونتي مرتفعات ويزرينغ.

(٣) جورجيت هاير : The Regency Buck لندن ١٩٦٨، ص ١٥٢ .

اجنحة الحب يتنافس رجلان على موضوع محبوب واحد. الاول، اللورد رافنسكار، رجل عياش، في العقد الرابع من عمره، يتأجج رغبة في امتلاك أماندا الرائعة وجسدها النحيل، ويفرض عليها بالقوة مغازلته المقززة .

« كان يعتصر جسدها اعتصارا . أما شفتاه فقد التصقتا بشفتيها وكأنهما كلابة (كذا !) . كانت تشعر بالرغبة تصعد في جسده وكأنها لهب شيطاني. وفجأة رفعها بين ذراعيه وقال بصوت اجش :

ـ بحق الشيطان ، يا اماندا ، لماذا ننتظر ؟

« كانت شفتاه الغليظتان تلتصقان بعينيها، بوجنتيها، بعنقها. وشعرت بانه يضعها على اريكة، فيما كانت تحاول عبثا النهوض والهرب، وتدرك عجزها التام عن ذلك. ثم سمعت صوتا احدثه خمار ثوبها وهو يتمزق بين يديه» (٤) .

ان هذه البطلة، التي لا حول لها ولا قوة، هي العنصر الاهم في القصة. فهي عاجزة عن حماية نفسها من الاغتصاب . اذ كيف يمكن لمخلوقة رقيقة كهذه ان تركل بقدمها نبيلا من نبلاء المملكة؟ وقد دللت على سلبية مماثلة ازاء اشكال امتع من الغزو الجنسي، وحيال الرجل الثاني، البطل الذي سيتولى حمايتها من شبوته الحيوانية بالذات، ومن جرائم العالم وحماقاته .

«استدارت نحو الباب، وفجأة جثا بيتر هارفي على ركبتيه امامها. نظرت اليه، مذهولة، فيما كان يلثم حاشية ثوبها المصنوع من الموسلين الابيض. وقال :

ـ اماندا ،هكذا ينبغي ان يخاطبك الرجال، أيا كانوا . وما من واحد منهم، ورافنسكار قبل غيره، يستحق منك اكثر من قبلة مطبوعة على حاشية ثوبك. فهل ستذكرين كلامي؟» (٥).

وبالفعل، اما ان تتزوج المرأة رجلا كهذا والا فلا : فقد ركع

---

(٤) بربارا كارتلاند : اجنحة الحب، لندن ١٩٦٨، ص ٢٢٨ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٤٧ .

امامها وراح يلعق حاشية ثوبهـا المغطاة بالوحل ، مع انه الوصي المعنوي على الفتاة التي شرّفهـا بكل هذا الاهتمام. ويشاء تعاقب احداث لامعقولة ان يلتقي العشيقان في احدى غـرف ماخــور فيبادر البطل الى انقاذ البطلة. ولم تصارحه هذه الاخيرة بحبـها الا عندما انتقلا الى مكان اكثر وقارا. لكنه اجابها بصوت مختنق:

ـ اماندا، انك تضعينني في موقف حرج .

ـ الا تشعر برغبة نحوي ؟

ـ سأرغمك يوما على الاعتذار عن هذه الكلمات. سيأتي يوم اظل اقبلك فيه الى ان تسترحميني بأن اتوقف .

«وشعرت بانه يقبل كفيها بمزيج من الشغف والتقديـــر ، فاضطربت لذلك حتى الاعمـاق وانتابـــت جسدهـــا رعشـــة نشوانـــة » (٦) .

لم يقبلا بعضهما بعضا لان بيتر صارحها قائـلا : « اذا مـا تلامست شفتانا، فقد افقد السيطرة على نفسي». والواقع انـــه اذا كان من شأن قبلة على الكفين ان تحدث الرعشة، فقد يخشـى ان تحدث القبلة على الشفتين نوبة صرع ...

لقد اشتريت هاتين الروايتين من السوبر ماركت. لكـــن اختياري لهما لم يأت مصادفة، اذ ان اسمي هاير وكارتلاند كـانا يشكلان جزءا لا يتجزا من اوهام مراهقتي. وقد التقيت ببربـارا كارتلاند خلال مداولة جامعية حول الموضوع التالي : «كوني فتـاة عاقلة ووديعة، ودعي الذكاء للآخرين». وقد دافعـت بربـــارا كارتلاند بالطبع عن هذا المبدأ، كما لو في امكان المرء ان يكون عاقلا بدون ذكاء. ويبدو انها تقوم اليوم بدور المستشارة العاطفيـــة ، وتوزع على طالبي نصائحها منشطا جنسيا يدخل فـي تركيبـــه العسل. وتستطيع كارتلاند ان تفاخر بالنجاح الذي حققته ابنتها التي تزوجت من نبيل بريطاني معروف. واذا كانت حركات التحرر

---

(٦) المصدر نفسه ، ص ١٣٧ .

النسوية ترغب في ان تكون فعالة، فعليها ان تأخذ بعين الاعتبار الظاهرة الصناعية التي تمثلها روايات بربارا كارتلاند التي تدر ارباحا خيالية .

ذلك اذن هو البطل الذي تحلم به النساء. انهن لا يعشقن في الحقيقة، من خلال السمات التي يضفينها عليه، سوى قيودهن بالذات. ويزعم الرجال ان النساء لا يحببن الا الفاشلين. والحال انهن لا ينجذبن الا الى الرجل الذي نجح في الحياة والذي يبدو وكأنه سيد مصيره. انهن يتمنين ان يعهدن اليه بمسؤولية السهر على مصالحهن . صحيح انه ليس هنالك رجال مطابقون لهذا البطل، لكن النساء الشابات ، المصابات بحول الاستيهامات الجنسية، يرين هذا البطل متجسدا حيث لا وجود الا للاوهام. ففتح باب السيارة للمرأة، ورشوة رئيس الخدم في الفندق او المقهى، واختيار الهدايا الجميلة، وكسب المال، امور تعتبر صفات رومانسية، ولا تتردد النساء في التضحية بمحاكمتهن الاخلاقية للامور في سبيل بطلهن. فكم من ربة بيت تأثرت وانفعلت لدى مطالعتها مذكرات شارمين بيغز، زوجة الرجل الذي كان يسرق القطارات. فعندما روت هذه الاخيرة، في الصحف اليومية، قصة حياة غامضة، وادنى الى الحقارة والدناءة، اجادت اختيار الجوانب التي ينبغي الالحاح عليها (٧) ـ ربما يعود الفضل في هذا الاختبار الى مستشاريها. فما ونت تنوه بقامة بيغز، بقوته الجسدية ، بجراته، بوقاحته امام المحاكم وفي مراكز التوقيف، بازدرائه بالمال، وبطاقاته الجنسية الخارقة. ان جميع الجرائم التي قد يقترفها رجل كهذا حقيقة بأن تغتفر، بما فيها جريمة الزنى.

ومع ان وظيفة الادب العاطفي تنحصر في توفير بعض التعويض، فان السحر الذي تمارسه التخيلات والاستيهامات

---

(٧) نشرت هذه المذكرات على شكل قصة مسلسلة في صحيفة «الصنداي ميرر »، من ٢ تشرين الاول الى ١٦ تشرين الثاني ١٩٦٩ .

هو من القوة بحيث يؤثر على السلوك. فهنالك اقتناع شبه عام لدى النساء بأن الرجل لا بد ان يكون اقوى واكبر منهن سنا. ولا استطيع ان ادعي شخصيا باني قد تحررت تماما من صورة الرجل الضخم الجثة، العريض المنكبين، رجل يسحقني على معطفه التويد، وينظر في عيني من اعلى الى اسفل، ويخلف على شفتي الظمآنتين نكهة سماوية او لسعة الحب الجامح. وقد تزوجت من رجل من هذا النوع، ودام زواجنا ثلاثة اسابيع .

ان الميثولوجيا العاطفية تؤثر بوجه خاص على العلاقات بين الصبي والبنت. فالصبيان لا يأخذون بعين الاعتبار مدلول القبلة في عرف الادب الرومانسي، اللهم الا اذا عقدوا العزم على استغلال العواطفية الانثوية. فالقبلة بالنسبة اليهم لا تعدو كونها بداية، تمهيدا للعلاقة الحميمة . اما بالنسبة الى الفتاة فهي تتويج للاثارة الغرامية، لذلك ينبغي الا تحصل الا عندما تبلغ هذه الاثارة ذروتها. وحتى وان لم تؤمن الفتاة فعلا بدور القبلة هذا، تظل بالمقابل عاجزة عن فهم موقف الصبي. فقبلات المراهقين تكون بصورة عامة مجردة من الهيام التوقيري الذي ترتقبه الفتيات. وقد يتظاهر به الرجال الاكبر سنا، ولكن حتى من غير ان يعوا انهم يتظاهرون به. ويسعى جميع المراهقين ، بمن فيهم المهذبون، وراء اغواء الفتيات. وان كانت المراهقات يسلمن بهذا الواقع، فانهن يحلمن مع ذلك بحب رومانسي، حب لا يسعين وراءه وانما يسعى هو وراءهن. وتصطدم رغبة الفتاة في التجاوب مع الشاب بتطلعها الى التقيد بالاشكال التي تفرضها الرومانسية العاطفية. لذلك عندما تنفح الفتاة روحها على شفتي عشيقها العديم الاحساس، فانها تغوي نفسها بنفسها بتضخيمها هذا الحدث. فهي تعطي اكثر واقل مما ينتظر منها الشاب. والبلبلة التي تعقب انتهاك الشاب للبروتوكول العاطفي تشهد على سيطرة التصورات الخيالية العاطفية، لذلك سرعان ما يدرك أقل المراهقين خبرة في العلاقات الغرامية ان السلوك الانسب مع

الفتيات هو الذي يكشف عن «رغبة مكبوحة تهدد بالانفجار»، رغبة تترجم عن نفسها ببعض التنهدات والنظرات الملتهبة. ان العبارة التي تفوه بها بطل بربارا كارتلاند «اذا ما تلامست شفتانا فقد افقد السيطرة على نفسي» لها مفعول الديناميت.

وللبطل الرومانسي جملة من الصفات المميزة. فهو لا يظهر ابدا بمظهر الرجل الاخرق، لكن يحق له ان يكون وقحا، بل مهينا. وهو لا يعرف النرفزة، ولا التواضع، كما أنه لا يشك في نفسه. ثم انه، علاوة على ذلك، جميل الشكل، جذاب المحيا.

ويشهد الديكور والثياب والاشياء طرا على الطقوسية في الحياة الجنسية، تلك الطقوسية التي تشكل الطابع الاساسي للادب العاطفي. فعندما تصف بربارا كارتلاند البطل وهو يقبل حاشية ثوب معبودته وقد احاطت بها ازهار الزنبق، فانما تشير الى ان المقصود هو نوع من الديانة الجنسية. فالمطلوب هو العبادة لا الحب. وثمة نساء يعتبرن هذه الطقوس شرطا لا غنى عنه لقبولهن بالعلاقات الجنسية، حتى في حياتهن الزوجية. فان لم تراع هذه الطقوس غدت العلاقة الجنسية واجبا بين جملة الواجبات المنزلية. ولئن كانت المراة تبدي عادة عن بعض التذمر من العلاقةالجنسية، فمرد ذلك الىافتقارها الى الاجواء السحرية، وليس بدافع عقد مساومة حقيرة. ان الرغبة في تحويل العلاقة الجنسية الى احتفال طقوسي رسمي ترتبط ارتباطا وثيقا بالبطء المزعوم للانفعالات النسوية. فما يبحث عنه العديد من النساء في العلاقات الجنسية هو العبادة الجنسية التي وعدن بها خلال احتفال الزواج، وليس اشباع رغبة جسدية جامحة. وكثيرا ما يطلبن من الرجل ان يقيم معهن احتفال «التحول الى جسد واحد» الجنسي، في حين يتوهم الرجل انهن يسعين وراء رجولته.

هذا الخليط من التفاهة والورع هو الذي يبرر رفض المراة لبعض الاعمال الجنسية النوعية والميكانيكية، وتقبلها بالمقابل لبعض التصرفات المنحرفة والشاذة، الخاضعة لطقوسية واضحة.

ويستطيع الرجل ان ينال الشيء الكثير من الناحية الجنسية عن طريق الاطراء، لان الاطراء ضرب من الصلاة. فاكثر العشاق اقداما وخبرة بالنساء يتقيدون بممارسة طقس عبادة جسم المرأة العاري، كما ان اكثر النساء فسقا وانحلالا يطالبن بالمداعبات التمهيدية وبتكرار عبارة «احبك». وتعرف رعشة الحب في المجلات الجنسية بعبارة «التجربة الاسمى»، وهذا ما يكشف عن ضرب آخر من الرومانسية وعن الاعتقاد بأن العلاقات الجنسية هي نوع من التضحية الروحانية.

«كنت انتظر، اسوة بمعظم الفتيات، ان يأتي امير احلامي ويوقظني من سباتي العميق بقبلة سحرية. لكن عندما اختبرت القبلة الاولى، والعديد من القبلات الاخرى فيما بعد، شعرت بخيبة امل مريرة. ولم ادرك المعنى الحقيقي لقصة **الحسناء النائمة** وطبيعة القبلة السحرية التي ورد ذكرها في هذه القصة الا بعد اول جماع ناجح عرفته» (٨).

ولطالما اعتقدت شخصيا، عندما كنت لا ازال داعية اصلاح جنسي شابة وصلفة، ان القبلة الروحانية في الروايات العاطفية لا بد ان تفسر على انها الرعشة الجنسية. لكني عدلت عن هذا الراي اليوم. فالرعشة، من منظور التصور الرومانسي للحياة الجنسية، هي التي ترمز الى القبلة، وليس العكس.

تجدر الاشارة هنا الى ان اعمال د. هـ. لورانس وارنست همنفواي تندرج في اطار تقاليد الرومانسية الجنسية، وأن كانت تتوجه الى قراء اعلى ثقافة واكثر اطلاعا. وصحيح أن مفرداتها اغنى من مفردات روايات بربارا كارتلاند، لكن بنيتها تكاد تكون واحدة مع الفارق البسيط التالي: فالقبلة هي خاتمة المطاف عند كارتلاند، اما عند همنفواي ولورانس فان المغامرة الرومانسية

---

(٨) التصنع في الجنس، نقلا عن فيليس وابرهارد كرونهاوسن في «الاستجابة الجنسية عند النساء»، لندن ١٩٦٥، ص ٦١.

تنتهي بالمجامعة . وما دامت هذه الاعمال الروائية تتنطع لوصف الواقع الجنسي، فان التضليل الذي تمارسه يبقى متماثلا. فدور المراة فيها يقتصر على الدوام على الانتقال من حالة اثارة الى اخرى، مع مراعاة المهل المناسبة. وبالمناسبة فقد اتهم بعضهم كلا من لورانس وهمنغواي بالعنة الجنسية. واليوم، وبعد ان تم الاعتراف رسميا بدور النساء الجنسي، فان المنحى المازوخي للروايات الانثوية ازداد بروزا وتكلفا، لكن دون ان يطرا تغيير جذري عليه. فقد اعترف للنساء بحقهن في الشعور بالمتعة الجنسية، لكن بشرط الا يحطن من كرامتهن فيتجاوزن عتبة المعبد المنزلي البورجوازي. فالجنسية تاتيهن الى بيوتهن وكانها ضرب من الشعائر الطقوسية، كتجربة صوفية يمنحها اياهن الرجل ، تماما كما منح الله متعة الوجد للقديسة تريزيا دافيلا .

تشعر المراة بأعلى درجات السعادة عندما تغازل وتمالق . فهي تتحول وقتئذ الى محط انظار محيطها وتفرض هيمنتها عليه. وتظل المراة تعيش في هذه الاجواء الى اليوم الاعظم الذي تجتاز فيه عتبة الكنيسة، وقد تلفحت ببياض شفاف وسماوي، وامسكت بذراع ابيها القوية قبل ان يسلمها هذا الاخير الى ابيها البديل الجديد. واذا كانت على درجة كافية من الحذق والارابة، واذا كان زوجها يتمتع بالمال وباوقات الفراغ، فقد تنعم بالمغازلة والممالقة طول حياتها. لكن اغلب الظن انها ستكتشف بسرعة ان الزواج غير رومانسي على الاطلاق، وان زوجها ميال الى نسيان تواريخ الاعياد وذكرى ميلادها، وانه نادرا ما يمن عليها بكلمة مديح . فما من احد يتملقها ويجعلها تشعر بأنها مرغوب فيها. لقد كان حبها الرومانسي مغامرتها الوحيدة في هذه الحياة، وقد جاء الزواج يضع حدا له. وتحثها المجلات النسائية على الا تسمح بزوال اللمسة الرومانسية عن علاقتها الزوجية. فهي تتجنب الاهمال، وتجاهد للحفاظ على شبابها وجمالها، وتحاذر ان تسأل زوجها يوميا عما اذا كان لا يزال يحبها، وان كانت في صميمها

تتمنى ان تكون قبلته الصباحية، وهو يودعها، اقل رتابة وروتينية. فالحب كما تخيلته، حب احلام اليقظة، والشفاه المتكهربة ، الخ ، ما وجد في يوم من الايام قط. وسرعان ما تدرك انها كانت غبية وحمقاء، وان الزواج واقع قاس. وتتحول رومانسيتها الى رغبة في الهرب. فتشتري لنفسها توابع رومانسية، كالعطور مثلا التي قد يفوت زوجها ملاحظتها. وتتابع بمفردها حلما بات يفتقر الى كل مضمون. «**فيليبسي**، حب اجازة يدوم ويدوم. **مس لنتريك**، مغامرة عاطفية. انه اكثر العطور الجديدة رومانسية، جربيه فتكتشفي ما كان ينقصك .. **أكوا ماندا** ، كلمتان تبدلان حياتك » .

وما دامت المراة المتزوجة لم تعد تجد الان من يغازلها ويمالقها سوى شخصها بالذات، فقد غدت السوق تغص بالمستحضرات التي هي بديل عن القبل والمداعبات .

«من زنجبار العابقة بعطور توابلها ... الى بورما السابحة في ندى الصباح، تفضل نساء العالم بأسره **لوكس** على سائر انواع الصابون الاخرى، نساء جميلات متألقات رونقا. فرغوة **لوكس** غنية بزبدة الزيوت الطبيعية ...وهي ناعمة بحيث تحافظ، بالوسائل الطبيعية، على نعومة بشرتك الحريرية. انضمي الى اجمل نساء العالم باستعمالك **لوكس** ..» .

اما دعاية صبغات الشعر فتراعي على الدوام رغبة المراة في الهرب من واقعها، وتعدها بالتحول «الى امراة جديدة، خارقة وجذابة»، تنفتح امامها ابواب امكانات جديدة وحتى الحمام قمين بان يصبح طقسا رومانسيا :

« **نيو ديو** يأتي بسحر جبال الالب الى مغطسك . زهرة تفتحت لتوها الندى ، واستعدت لتحية الصباح المطل : كذلك يكون شعورك كلما استخدمت **نيو ديو**... لن تحتاجي الى اكثر من مكيالين من هذا العطر الاخضر كيما تنطلقي في عالم الطبيعة، والازهار، والنضارة» .

لكن الحب يبقى المغامرة الاسمى. وتصر النساء على ان

يعشن هذه المغامرة من جديد وان كان الحلم قد تبخر واندثر. فقصة الحب هي القصة الوحيدة التي تستأثر باهتمامهن. لقد شاهدت على مركب بخاري في البندقية امراة شابة، لم ينقض في ارجح الظن على زواجها سوى اشهر معدودة، غارقة في مطالعة رواية مصورة فيما كان زوجها يحاول عبثا التحدث اليها ومداعبتها . فحتى في هذه اللحظة بالذات كانت التصورات الخيالية اكثر قدرة على اجتذابها من الواقع .

ان الدين الجنسي هو افيون المراة المسترقة والمستعبدة . وقد عثرت في مجلة نسوية على رسالة ساذجة تفصح بوضوح عن ذلك :

«هل فكرتم يوما بمدى الاذى الذي تلحقه معظم الاختراعات العصرية بالجانب الرومانسي للحياة؟ فالزوجة لم تعد مضطرة الى رفأ جوارب زوجها، المصنوعة من خيوط النايلون التي لا تهترىء، ولا الى كي قميصه. واي رجل سيكلف نفسه مشقة الانحناء لالتقاط منديل الورق الذي سقط، عمدا، من يد حسناء؟ ومن ذا الذي سيفكر بجر كيس مشترياتها، المحمل بالبضائع، وانما المزود بعجلات ؟ كذلك لم تعد ثمة حاجة الى مساعدة امراة ترتدي الميني ـ جوب على الصعود الى الباص، ولا الى ايلاع سيجارتها لان ولاعتها الغازية تعمل باستمرار » (٩) .

ان الرومانسية، بتعبير آخر، هي تعويض عن الاعباء المنزلية، والقيود الجسدية، والبغاء : فمشكلة الولاعة تهم على الاخص سيدات الارصفة اللواتي يتذرعن عادة بحاجتهن الى ايلاع سيجارتهن ليتحرشن بالمارة. واذا ما صدقت صاحبة هذه الرسالة، يكون على الرومانسية العاطفية السلام. بيد انني لن اسمح لنفسي بالتفاؤل بهذا الصدد ما لم احصل على ادلة اكثر يقينية. فالثياب النسائية قد باتت اكثر رومانسية مما كانت عليه خلال سنوات

---

(٩) امراة مقابل امراة، مجلة «المراة» ، ١٩ تموز ١٩٦٩، العدد ١٦٧٥ .

الحرب والضائقة الاقتصادية. واذا كانت موضة الميني - جوب قد اطلقت حرية الحركة، فان الشعور والاهداب المستعـــــارة، والحياء المزيف، قد كبتتها من جديد... واذا كنا نرغب فـي ان تتحرر المراة، وان تغدو حرة في ان تحب فعلا ، يتعين علينـــا ان نحارب اوهام الرومانسية العاطفية العقيمة. والادب الوحيد الكفيل بطرد الرواية العاطفية من السوق هو الادب البورنوغرافي الصريح.

الفصل الواحد والعشرون

موضوع التخيلات الذكرية

ان الاطفال من كلا الجنسين يطالعون قصص المغامرات . وصغار السن يطالعون كتبا احادية الجنس ، فيها ابطال وبطلات على حد سواء . لكن مع تقدمهم في السن ، يحصلون على ادب نوعي تكون المغامرات والبطولات فيه اما انثوية خالصة واما ذكورية خالصة . واذا كان واقع الامور لا يسمح لمؤلفي القصص المعدّة للبنات بأن يقصوا عنها كليا الشخصيات الذكورية ، فانهم بالمقابل يتجنبون كل اشارة عاطفية او جنسية. اما بالنسبة الى الصبيان ، فان اقصاء الجنسية يؤدي الى اقصاء الشخصيات النسوية عن ادبهم . وعندما تبلغ الفتاة، فانها تكفّ عن التماهي مع بطلة مثل بوني التي انقذت حياة بوفالو بيل كودي بأن رمت نبّالا من الهنود الحمر بحجر في راسه ، وهو النبّال عينه الذي ستسارع الى انقاذه من بين فكي تمساح بعد صورتين . فمع سن البلوغ تتحول المراهقة الى صحافة القلوب التي تدربها على الانفعالات السلبية لبطلاتها الطفليات السلوك . اما بالنسبة الى المراهقين فان التصورات

الخيالية لادب المغامرات تتسع لتشمل النساء ، باعتبارهن مجالا لتحقيق البطولات والاعمال الخارقة . فالجنسية تصور على انها ضرب من المجازفة او الاقدام . وما دام الجديد هو جوهر المغامرة ، فمن الطبيعي ان يصار الى تنويع الاهتمام الجنسي ، بالاعتماد على الفرق تارة ، وعلى الشكل الخارجي او الطبقة الاجتماعية طورا . لكن البنية المعتمدة في ارواء رغبة القراء وفضولهم الجنسيين تتسم بالبساطة . فهي تدور حول فئتين من النساء . فئة المراة الشريرة وفئة العذراء المغوية .

المراة الشريرة ، او العاهرة ، خطرة ولا ريب ، وهي جديرة بان تكون خصما للبطل الكلي القدرة . انها منحطة ، قاسية، ماهرة ، لئيمة ، ومتفوقة على ضحاياها . وقد يجعل البطل منها حليفته فيعمد ، مثله مثل المروض ، الى اطلاقها كاللبوءة ضد اعدائه . وقد يضطر ايضا الى ان يخوض ضدها صراعا مستميتا.

« كانت ديبورا عاهرة شريرة ، لبوءة حقيقية ، ولم تكن لتقبل الا باستسلام بلا قيد او شرط . فحتى العاهرة ، في نهاية المطاف ، تخسر قليلا اذا ما هجرها الرجل . وبما ان مبداها القضاء على كل ذكر حدث به شجاعته الى معرفتها جسديا ، فهي **تنكث** بدورها (١) . .

لقد صمم نورمان مايلر بطلته ، ديبورا كولين منغرافيدي كيلي ، بحيث تجسد في شخصها اكبر قدر ممكن من السمات المميزة لنموذج المراة الشريرة . ولا يصف مايلر بطلته بتجرد وموضوعية تامين ، لان الراوي ، الخاضع لسحر هذا الحلم الاميركي ، يهذر ويدمدم في اثناء نومه . وتنبع طاقة الرواية على اجتذاب القارىء من التوتر الذي يربط الجراح بجرحه . فالبطل يتخبط في مواجهة الجهود المضنية التي تقتضيها الحياة الجنسية المنزلة منزلة البطولة ، ويرزح تحت عبء ضرورة

---

(١) نورمان مايلر : حلم اميركي .

التأكيد المستمر للذات بحيث يغدو كل اتصال مستحيلا ، وينوء تحت وقد معركة الجنسين الوهمية وانما القاتلة . ومع ذلك كله يفلح ستيفن روجاك آخر الامر في النجاة بجلده ، لكن الرواية تتوقف عندئذ فجأة اذ لا مجال لان تكون لها تتمة بعد ذلك . فليس ثمة حل بديل في الميثولوجيا الجنسية المعاصرة ، اللهم الا بالنسبة الى الذين يصغون الى صوت الهيبيين الضعيف. والجانب الاهم في شخصية ديبورا يتمثل في السمات الطبعية التي اسلفنا الاشارة اليها . فالوصف الذي عهدناه عند سبيلن وفليمنغ (٢) ، اللذين تتميز بطلاتهما بعراقتهن وغناهن وانتمائهن الى الطبقة الراقية ، بشحب وينمحي امام غلو نورمان مايلر الجنوني . فسياق الرواية ، وما تضمنته من معان مضمرة لم يفصح عنها ، يكشفان عن طبيعة اللعبة الدائرة ، وان كانت بعض نصيرات المرأة ، من امثال كيت ميليت، يصررن على اتهام نورمان مايلر بالغباوة (٣) .

« التقيت جاك كنيدي في تشرين الثاني ١٩٤٦ . كان مثلي بطلا من ابطال الحرب وعضوا منتخبا جديدا في الكونغرس . وقد خرجنا ذات مساء معا ،وكل منا تصحبه فتاة . وكانت خاتمة ذلك الليل ، بالنسبة الي شخصيا ،رائعة. فقد نجحت في غزو قلب امرأة ما كانت امام اكبر ماسة في العالم لتحرك فيها ساكنا » (٤) .

وهذا يعني ان روجاك هو نموذج للبطل الاميركي الذي يعيش في دائرة غريس كيلي وجاكلين لي ــ بوفييه (٥) ،

---

(٢) من كتاب الروائية البوليسية والرواية الجاسوسية في اطار من المغامرات الجنسية . «م» .

(٣) كيت ميليت : « السياسية الجنسية » : « مبلر ومايلر وجينيه » ، في « نيو اميركان ريفيو» ، العدد السابع ، آب ١٩٦٩ .

(٤) نورمان مايلر ، حلم اميركي .

(٥) اي جاكلين كنيدي ، ومن ثم جاكلين اوناسيس «م» .

والذي يتمتع بقضيب اكثر اثارة بكل تاكيد من اي ظاهرة وصفها سكوت فيتزجرالد . والحرب والجنس يتداخلان بحيث يستحيل الفصل بينهما . والخصم هو شاذ جنسي يتعين سحقه وهرسه من الزنار وما تحته . اما الالم فهو الم نظيف وصحي ، لانه دليل دمار نظيف وصحي ، لا دليل تعفن : فالعفونة تولد الحياة . وللبطن رائحة العفونة ، لان مصدر الحياة هو ، بالنسبة الى روح روجاك القاحلة والمجدبة ، مصدر اليأس . وليست ديبورا رمز الحرب فحسب، بل هي ايضا نوع من الرياضة :

« لقد فتحت امامي ابواب المجتمع الراقي الذي كانت لها فيه ساعة مجدها ، وحيث اختارت عشاقها من بين مجموعة من المشاهير : سياسيين مرموقين ، ابطال في سباق السيارات، ملك الفولاذ . وحيث اخذت نصيبها من اشهر شبان البلاي بوي الذين عرفهم الغرب » (٦) .

ولهذه المخلوقة صفات جسدية شبيهة بتلك التي تتسم بها بطلات الروايات الشعبية الغنيات والغيورات . وبديهي ان بربارا كارتلاند أو جورجيت هاير لن تتعرفا بطلاتهما في هذه المراة الشرسة والمسترجلة ، ذات النهدين الناضجين ، والقامة الطويلة ، والشعر الكثيف ، والتي تسحق الابطال سحقا من النظرة الاولى . صحيح ان اسلوب نورمان مايلر اقل تكلفا من الاسلوب المألوف للروايات الشعبية المبتذلة ، بيد ان السمات الجسدية التي يعزوها الى ديبورا هي السمات المميزة لبطلات هذا النوع من الادب :« ان ديبورا لامراة جميلة ، امراة طويلة . فبكعبيها العاليين كانت تتجاوزني بثلاثة سنتمترات على الاقل . كان لها شعر اسود كثيف وعينان خضراوان خارقتان ... وانف ايرلندي كبير ، وفم واسع ومتحرك .واجمل

(٦) نورمان مايلر : حلم اميركي .

ما كـان فيهـا بشرتهـا الرائعة ، بشرة بيضاء كالقشطة تبـدو متوردة عند الوجنتيـن » (٧) .

اننا لسنا بعيدين في الحقيقة عن اولئك البطلات الخرافيات ذوات الشعـور الملتفـة كالافاعي واللواتي يجسن على اطـراف اصابعهن في القصص المصورة لينقضضن علـى حيـن غرة علـى البطل بغيـة تمزيقه شر تمزيق بمخالبهـن . ان افواههن ضخمة، مكورة ولماعـة كسيف معقوف . اما عضلات اكتافهن وافخاذهن فمضخمـة على نحـو مضحك ، واثداؤهن منفوخـة كالرمانات ، وخصورهـن محاطـة بحلقات فولاذيـة ضيقـة للغاية اسـوة بالتي اشتهرت بها مراقصات الثيران في جزيرة كريت. وتقود نساء ايان فليمنغ سيارات السباق ، ويجدن ركوب الخيل والرماية . اما ديبورا فلهـا ميزة اكثر اثارة : فهي تجيد القتل . « وكانت تصطاد فعـلا ، وعلى نحـو خارق . فقـد ذهبت في رحلة صيد فـي الادغال مع زوجهـا الاول وقتلت ، من مسافة ثلاثة امتار ،اسدا جريحـا كـان يتأهب للوثب ، وقتلت دبـا من الاسكا برصاصتين في قلبـه » (٨) .

ان المصير الوحيد الذي يليق بالمرأة الشريرة هو الموت، بالمعنى المجازي للهيجان الجنسي المسعور . او بالمعنـى الحرفي للكلمة . فبطل نورمـان مايلر يتخلص من زوجته بخنقهـا . وبذلك كـان لهـا مـا تريده : « ابتسمت كخادمة في مزرعة ،وابتعدت، ثم اختفت . ووسط روعـة هذا المشهـد الطبيعي الشرقـي شعرت باصبعها يلامس كتفي ويرسل . في حالة النعمة الجديدة، موجـة من الحقد ، تكـاد ان تكـون ملموسة ؛ ولكن غيـر قابلة للمحو . وفتحت عيني . كـان جسدي مثقلا بوزر تعب مشرّف وقـد بدا لي جديدا تماما . لم اشعـر بارتياح مماثل منذ كنت

(٧) المصدر نفسه .

(٨) المصدر نفسه .

في الثانيــة عشرة . وقــد بدا لــي في تلـك اللحظة انه من غير المعقول ان تنطوي الحياة على اي امر منغص (٩)» .

قتل الزوجــة اشبه مــا يكون اذن بقتل دب او وحش اسطوري. انه يحرر الذكورة من هيمنـــــة الجنسية والهواجس الاستحواذية . وهكذا يغدو العالم من جديد عالم رجال . ومن المحتم في الواقع ان نلقى مثل هذا الموقف في حضارة يسودهـــا التمييز الجنســـي على صعيـــد التعليم ، ويفرض فيهـــا علـــى الصبيـــان نظام حياة اسبارطي قائم على الجهد ، والرياضة ، وعلى وسواس النظافـــة . لكـــن لا بد ان ينتابنا الذعـــر عندمـــا نفكـــر بعواقب هذا الموقف على العلاقات العاديـــة واليوميـــة بيـــــن الجنسين والتي ما هي مجرد موضوع للروايات .

تقدم لنـــا بطلـــة مايك هامر ، فيلدا ، نسخة اخرى عــــن العاهرة الشريرة ، فهي اشبه مـــا تكــون بالكلبة الطيعـــة وانمـــا الشرسة . تقتل من اجل سيدهـــا وترمي بفريستها عند قدميه. ويكافىء هامر بطلتـــه بالامتناع جنسيـــا عنهـــا . فهي لن تنـــال على مـــا يبدو المكافأة المناسبة لهـــا الا في عالم الآخرة ، حيـــث سيتكيف هامر مع ضرورات الحياة المنزليـــة . امـــا فـــي الوقـــت الراهـــن ، فـــان العلاقات الجنسيـــة كفيلة بتحطيـــم فيلــــدا وتدميرهـــا .

لا ريب في ان مشاهدي افلام جيمس بوند قد سخروا من كميـــة الاسلحـــة القضيبية التـــي ينقلهـــا بطل ايان فليمنغ معه، والتي حمله اياهـــا المخرج عـــن سابق تصميم على الارجـــح ، ولدوافع هجائية وتهكميـــة . بيـــد ان هؤلاء المتفرجين ما كانـــوا سيشعرون بالرغبة فـــي الضحك فيمـــا لو تذكروا ان العكس قد غـــدا صحيحـــا ايضـــا ، اي ان القضيب قـــد تحول بدوره الـــى ســــلاح .

---

(٩) المصدر نفسه .

يشهـر هذا السلاح ، لاغراض عدائية ، ضد العاهـرة الشريرة . اما فـي العلاقة مع العذراء المغوية ، فانه يصبـح سلاحـا دفاعيـا . وعذراء روايـة نورمـان مايلر تدعى شيرّي. انهـا طاهرة ، وعذراء فرضا : « لقـد حصل ذلـك معك . فقد عرفت الرعشة ... ولم اعرفهـا قط من قبل . عرفتهـا بجميع الطـرق الاخرى . لكنهـا لـم تحصل لي على الاطلاق وانا بصحبة رجل، اي عندمـا يكون الرجل في داخلي » (١٠) .

وعندما التقى بطل مايلر للمرة الاولى بشيرّي كانت كوكبة من المخلوقات المخيفـة تتحلّق من حولهـا في تلك العلبة الليلية في غرينويش فيلاج حيث كانت تغني : زنوج ، ابطـال ملاكمـة سيئو السمعـة ، تحريون ، اشرار وعاهرات . وقـد اتى روجاك عليهم جميعـا بالرصاصات الوهميـة التي اطلقهـا عليهم فـي مخيلته . اما شقـة شيرّي فملك شقيقتهـا التي قتلت بسبب فحل شرير يدعى شاغـو مارتن . وقد عاش روجاك ساعـات لا تنسى في تلـك الشقـة بصحبة شيرّي لا يعكر صفو سعادتهما سوى هاجس عودة الساحـر الاسود المرتقبة . انه مغن ، ولكن اي مغن ! « فـي النهايـة كنت تشعـر بالسعادة ، وكانت اذنك تنعم بالاغتباط ، فقـد هُزمت وانمـا من قبل بطل » (١١) .

اما الفرسان الآخرون الذيـن عاشروا الحسناء المعنية فقد لاذوا بالفرار علـى نحـو حقير ومخز . لم يصمـد سـوى روجاك ، فتصدى ، وهـو الذي لا يملـك من سلاح سـوى قضيبه ، للزنجي المسلح بمدية قاتلة . لكنه خرج مـن تلـك المواجهـة منتصرا بطبيعـة الحال . وتحبل منه العذراء المغويـة وتتهيأ للدخول الى عالم الامهات السماوي . لكـن ثمة شيطانـا اخيرا يودي مـع الاسف بحياتهـا . فالرومانسية الذكورية تقضي

---

(١٠) المصدر نفسه .

(١١) المصدر نفسه .

بان يقتل الرجل من احب . ذلك انه يستحيل على البطل ان يتزوج لان البطولة الجنسية تقضي بتطويع المراة والظفر بها لا بالتعايش معها تحت سقف واحد .

يكشف لنا كتاب جون فيليب لوندين LUNDIN **نساء** عن مدى التأثير الذي تمارسه هذه التصورات الوهمية بصدد المغامرة الجنسية على الحياة الواقعية . وهذا الكتاب عبارة عن سيرة ذاتية . وقد جاءت مقدمة ر.ا.ل. ماسترز تؤكد صحة الاحداث المروية . وقد ركز الفصل الاول على تصوير واحد من استيهامات الرجال المفضلة ، اي على القيمة المالية للمفاتن الانثوية . فسواء اكانت المراة متزوجة من رجل غني ، ام كانت تعمل كمضيفة في ناد خاص ، او كموديل في مرسم فنان او عاهرة تزرع الارصفة ذهابا وايابا ، فانها ، في عرف الرجال ، تتاجر على الدوام بمفاتنها . والبطولة الخارقة التي يحققها لوندين هي حصوله مجانا على ما يدفع سواه ثمنه باهظا . صحيح انه ليس بقواد يتصبب عرقا كيما يمنح النشوة لعاهرة ، ويؤمّن بالتالي لقمة عيشه . وانما هو عشيق في مستوى شهوات المحترفات . اما الازواج فانهم زبائن يدفعون غاليا ثمن متعتهم ، او بالاحرى اغبياء وحمقى . ويتعرض لوندين ، باعتباره محتالا ، لمخاطر جمّة . والنساء اللواتي يخصهن باهتمامه يجمعن بين فتنة العذراء المغوية والبطولات الرياضية للعاهرة الشريرة .

اما مغامرته العظمى ، بحسب مقاييسه بالذات ، فهي فلورانس ، زوجة معلمه . ومما زاد في متعة المخاطر المترتبة على علاقة الزنى بفلورانس ، غلمة هذه الاخيرة الشديدة ، وتحلق عملاء زوجها من حولها دفاعا عن حرمتها . وفي نهاية المطاف ينحّى لوندين ويفصل عن عشيقته . فثمة رجال آخرون قد هاموا بدورهم حبا بفلورانس التي يتمناها الجميع ويرغبون فيها . فمن الشروط الاولية للتصورات الخيالية

الذكورية ان تكون المراة موضع رغبة الرجال جميعا كيما تتعاظم اهمية الفتح الذي انجزه البطل باستمالتها والظفر بها . وتنجح فلورانس في اقناع عملاء زوجها بأن يجمعوها بلوندين ، فيكون بينهما لقاء محموم فوق المقعد الخلفي للسيارة لكن حرّاس الزوج يحاولون مضاجعتها بدورهم ويهددونها بالابتزاز ، فتهرب الى المكسيك حيث تتزوج من رجل غبي جديد ، من اصحاب الملايين طبعا . ثم تهجره هو الآخر . لتعيش في كنف حارس شرس جديد ، اي في كنف امها . وبعد ذلك تصاب بالسرطان فتغدو حب لوندين الابدي والوحيد . « منذ ان علمت بنبأ وفاتها ، ادركت اني سأظل اشكو من الفراغ الذي خلفته برحيلها » (١٢) .

ان المفهوم المصطنع عن الحياة الكاملة مفهوم اساسي في التصور الذكوري عن الحب . فالرجل لا يأمل في العثور على ابنة مثلما تامل المراة في العثور على اب جديد ، كما انه لا يأمل في العثور على ام . انه يحلم بامراة كاملة ، امراة تلبي حاجته الى التفاهم ، الى الرفقة ، والى الاثارة الجنسية في آن معا . ووراء هذا المطلب يكمن تصور مبالغ فيه لطاقة الرجل على الشهوة ، على التهيج ، على المصاحبة وعلى التفهم . لذلك يتعين في شريكته ان تكون في مستواه او قادرة على التكيف معه . والمراة المثيرة في تخيلات الذكور ، هي تلك التي تولد الشهوة لدى الرجل وتحرر طاقته الجنسية الكامنة بمجرد ظهورها ووقوع انظار سائر الرجال عليها . والرجل يلذ له ان يستعري مع امراة يشتهيها الآخرون . ذلك ان العلاقة وثيقة للغاية بين الاستيهام والرجولة . وكما ان المراة قد تبقى باردة اذا لم تشبع حاجتها الى الرومانسية ، كذلك فان الرجال قد يقعون ، في رجولتهم بالذات ، ضحايا الحياة البيتية

---

(١٢) جون فيليب لوندين : نساء ، لندن ١٩٦٨ ، ص ٢٨٢ .

العاريــة من كل نشوة .

لا استطيــع ان اعيش معــك
فتلك ستكــون هي الحياة
والحيــاة هنــاك
هي من سقط المتاع (١٣) .

(١٣) قصائد اميلي ديكنسون ، جمعهــا برنشي وهامبسون ، لندن ١٩٢٣، ص ١٣١ .

الفصل الثاني والعشرون

اسطورة الحب والزواج لدى الطبقات الوسطى

تدين حضارتنا الزواج الذي لا يقوم على الحب . فحياة بلا حب امر غير معقول . لذلك يفترض في المراة العزباء اما ان تكون قد فقدت خطيبها في ابان الحرب ، واما ان تكون قد تخلفت عن قطار الحب والحياة ، واما ان تكون قد احتارت وترددت في اختيار الرجل المناسب فوجدت نفسها وحيدة في نهاية المطاف . عن الرجل العازب ، بالمقابل ، يقال بكل بساطة انه لم يلتق قط رفيقة العمر ويفترض في جميع المتزوجين ان يكونوا محبين .

يشفق الناس على مصير الملوك والملكات البائس عندما تضطرهم ظروفهم الى عقد زيجات ، الحب منها براء . ومن منظور الخيال الشعبي فان الراهبات نساء فشلن في حبهن . اما النساء اللواتي يتفوقن في مهنهن فانهن يحاولن ان يعوضن ، بنجاحهن الاجتماعي ، عن افتقارهن للسعادة

الزوجية التي يفترض فيها ان تكون خير سعادة يلقاها الكائن البشري في وادي الدموع هذا . بيد ان اسلافنا القدامى ما كانوا يشاطروننا هذا الاقتناع الذي يبدو لنا وكأنه امر مسلم به . فقبل فترة ليست ببعيدة كان لدى الناس تصور مختلف تماما عن الحب الذي لم يكن غريبا عن الغزل ما قبل الزواجي فحسب ، وانما عن الزواج ايضا . وقد تعرض مفهوم الحب الزواجي الحديث بدوره للتغيّر والتبدل . فالمدافعون عن زواج الحب في القرن السادس عشر كانوا سيستفظعون دون ادنى ريب الرومانسية والغلمة الجنسية اللتين وُشح بهما اليوم مثلهم الاعلى .

ان التحول التدريجي للمفاهيم الاساسية يجعل من العسير علينا ان نتتبع تطور اسطورة الحب والزواج . والمعلومات الديموغرافية عن المراحل الاولى لهذا التطور قليلة للغاية . لكننا نستطيع مع ذلك ان نجازف باقتراح بعض الافكار والآراء، مع اخذنا بعين الاعتبار عدم اليقين هذا .

ثمة راي شائع اليوم مفاده ان الحب، في الادب الاقطاعي، كان مناهضا للمجتمع في جوهره، وقائما على اساس الزنى فحسب. ان اعمال دنيس دو روجمون او على الاقل موضوعاتها الاساسية قد غدت معروفة (١) . فبطلات الادب الاقطاعي امثال غونييفر وايزولت، هن نتاج ثقافة اقلية، اي ثقافة الطبقة الاقطاعية المسيطرة. وكانت هذه الثقافة تدهش الفلاحين ولا بد عندما تصلهم في صورة اغنية او خرافة شعبية. وكانت هذه الخرافات ناجمة عن وضع لم تكن فيه المرأة النبيلة زوجة الا في اوقات انقطاع زوجها عن الحروب والقتال، اي في اوقات نادرة. وكانت المرأة النبيلة، في غياب زوجها، تتأمر بمجموعة من الرجال، ومنهم شبان تضطرم فيهم الشهوات الجنسية. وكان من الطبيعي

(١) دنيس دو روجمون : الحب والغرب .

ان تثير خيالهم تلك المرأة المستحيلة المنال، والتي لم يكن في وسعهم حتى مغازلتها او الافصاح عن اعجابهم بها. وكانت المرأة النبيلة تستغل انصياعهم ـ مبدأ الفروسية الاساسي ـ سواء اشبعت رغباتها الخاصة ام لا. اما في علاقتها بزوجها، فكانت خانعة وراضخة ،وكانت تقدم له جسدها وكأنه اقطاعة خاصة به.
وقد عبر مثقفون من العصر الفيكتوري عن استنكارهم لوصف الحب الزوجي، كما ورد في بعض الرسائل الهجائية، ومنها **نداء الى العذارى**، وهنأوا المصلحين البروتستانتيين لانهم ادخلوا نفحة من الهواء النقي الى «اسطبل النظريات حول الزواج» (٢).
فمؤلف **نداء الى العذارى**، وهو راهب من القرن السادس عشر ، دعا العذارى اللواتي يهوين مطالعة الكتب اللاتينية ، وزخرفة المخطوطات، والزركشة والتطريز والحياكة، ونظم الشعر وتأليف الالحان الموسيقية، دعاهن الى اختيار مجتمع الدير الانثوي الخالص،حيث لا يصل اليهن صخب الثكنة وفظاظتها،ولا يرغمن على حبل وانجاب يعرض حياتهن للخطر، ولا يقسرن على احتمال المداعبات الجلفة لزوج اعتاد على اشباع رغباته الجنسية مع اسيرات كافرات او مع عاهرات . ومع ان كاتب هذه الرسالة لم يأت بذكر الغراميات بين الرهبان والراهبات ، فبوسعنا ان نستنتج ان هذه الغراميات كانت ابعث على الرضى واكثر تلبية واشباعا من العبادة الافلاطونية لمدرب الفروسية الشاب ومن الاثارة المستمرة للرغبة اللامشبعة، وهما المصدران الرئيسيان للشعر الغربي عصرئذ.

لقد وصف راتراي تايلور العصر الاقطاعي بانه عصر اموي (٣). ومهما يكن هذا التصنيف قابلا للنقاش، يبق ان

---

(٢) ل. باويل : العلاقات العائلية الانكليزية ، ١٤٨٧ ـ ١٦٥٣ ، كولومبيا ١٩٢٧ ، ص ١٢٦ .

(٣) غوردوان راتراي تايلور : الجنس في التاريخ ، لندن ١٩٦٥، ص ١٣٨ .

المرأة مارست فعلا تأثيرا عظيما على حضارة القرون الوسطى. وتجدر الاشارة الى ان معظم النساء اللواتي ساهمنا في هذه الحضارة كن راهبات او نساء يعشن حياة عازبات، امتزوجات كن ام غير متزوجات.

كان العشيق في العصر الاقطاعي هو حامل السلاح الفض العود، الذي ما كان يرسم فارسا قبل بلوغه الحادية والعشرين من العمر. ولطالما وصف شبابه وجماله الامرد بعبارات مخنثة، اذ كان شعره طويلا،وثيابه مزركشة،كما انه كان يجيد الغناء، والعزف على الآلات الموسيقية، والرقص، ونظم الشعر. وكان محتما على ذلك الفتى الصغير، الذي ينتزع من بين احضان امه ليغدو غلاما في خدمة الامير او النبيل، ومن ثم فارسا، ان يرغب في عطف زوجة سيده. وكانت متطلبات سن المراهقة الجنسية تقض مضجعه ولا ريب، وتقترن في ذهنه بصورة سيدته. وكان موقفه يتسم بالخضوع، والاكتئاب، والخنوع. لكن مع بلوغه سن الرشد كان يكتشف عالم العساكر الاباحي. وطردا مع تقدمه في مدارك الرجولة، كانت وطأة الهاجس الجنسي تخف، وكان التعلق القسري يأخذ طابعا فكريا ولا يعود مباشرا كما في السابق. وكان الموقف محفوفا بالمخاطر. فزوجة السيد النبيل كانت في كثير من الاحيان اقرب الى تابعها الشاب، من حيث السن والطبع، منها الى زوجها. وكان هذا التابع في نظرها اكثر فتنة وجاذبية من زوج جلف تكاد لا تعرفه. لكن اذا ما سقطت السيدة النبيلة في الخطيئة معرضة شرعية ورثته للشبهة، كان الخطب عظيما. فالطلاق كان محرما، وكانت عقوبة الزنى الموت، سواء اصدر هذا الحكم عن محكمة ام نفذ مباشرة من قبل الزوج. وكان المجتمع يحاول التحرر من خوفه من المآسي العاطفية بالتعبير عنه. فما الحكايات عن الحب القاتل وعن العلاقات الغرامية الوخيمة العواقب سوى شكل من اشكال التحذير. فالحب، من منظور تلك الحكايات، آفة لا تتمخض الا

عن العذاب والموت. وكانت الجنسية نفسها محظورة، اللهم الا لاغراض الانجاب. ويكشف حزام العفة، بكل ما ينطوي عليه من فظاعة، عن التوتر الذي يولده مثل هذا الموقف. وكان مبدأ التناقض والتعارض بين الروح والجسد،المميز للفكر القروسطي، يعزز الوضع القائم. فالخادمات والعاملات في الريف كن يعتبرن فاسقات وفاجرات، اما سيدة القصر فكان الحب الذي تثيره من حولها يأخذ شكل عبادة دينية. وكانت قصص الزنى، شأنها شأن قصص اليوم عن الهواجس والصنمية الجنسية والانحراف، مجرد نظرات خاطفة تلقى، بالوكالة، على عالم هو من الخطورة بحيث لا يتجرأ الا المجانين على اقتحامه والتغلغل فيه. وكان كل كاتب من الكتبة يتعلم من معلميه واساتذته كيف ينبغي ان ينظر الى الحب. «اي شر واي جنون ذلك الذي يدفعك الى ان تحب، وتشحب، وتنحل، وتبكي، وترضخ لامرأة فاسقة تفوح منها روائح القذارة والعفونة النتنة؟ اي حماقة تلك ألتي تجعلك تراقب نوافذها طيلة الليل وتستأذنها في كل عمل تقدم عليه، وتحثك على الرضوخ لمخلوقة حمقاء تؤنبك، وتشاجرك، وتسخر منك، وتسيء معاملتك، وتبعدك عن الصراط المستقيم ؟ فهل هذا السلوك جدير برجل، وبعقل نبيل خلق ليبتدع الاشياء الجميلة؟» (٤) .

لكن بقدر ما كان طالب الادب يسعى جاهدا الى التقيد بنصائح معلميه والى الاستخفاف بالحب والتعالي عليه، كان يعرض نفسه للوقوع على حين غرة فريسة نظرات الزوجة الفاضلة لرجل آخر. وهذا ما حصل مع بترارك. وقد انعكست آثار هذا الحب، طيلة خمسة قرون، على الادب الاوروبي. لم يكن بترارك انسانا عبقريا فحسب، وانما ايضا حذقا وداهية، وقد ادرك تماما طبيعة هواه. غير انه نجح في دمجه ضمن مذهب فلسفي

(٤) اراسموس : المحاورتان .

بفضل عملية تصعيد متعمدة . وهكذا غدت حبيبته، لـــــورا ، وسيطة كل حب وكل معرفة ينفرد الله في خلقهما. وقد جـاءت وفاة حبيبته لتسهل عليه مشروعه. فقد تحول حبه للورا الـى صليبه وبركته . وبحمله هــذا الصليب طيلة حياته ، جعــل منه خلاصه . وقد نجح بترارك ،في جميـــع سونيتاته (٥) تقريبـا ، فـــي التوفيق بين الفرح والالم، بين الروح والجسد. لكـــن منافسيه ومقلديه العديدين ما كانوا يتمتعون بذكائه وبقدرته على الموازنـــة بين الامور. وحده دانتي استطاع في الواقع ان يحــقق التوازن الديناميكي عينه مع معبودته، بياتريس. امــا بالنسبـة الى الكتاب الاول رحابة وشمولية فقد تحولت البتراركية الـــى تعبير مرهف عن الشهوانية في الزنى. ومن جملة العوامل التي ساعدت على استمرار البتراركية وبقائها كون بترارك لم يجـــد نفسه في وضع اقطاعي. فلورا لم تكن زوجة سيده، وانما زوجة احـــد الاعيان، زوجة مواطن في حاضرة ـ دولـــة غدت بنيتهـا بيروقراطية ولم تعـد متراتبــــة هرميا . ومأثرة بترارك تتلخص فـــي كونـــه نقل الحب الغزلي للقصر الاقطاعـــي الى المجتمـــع المديني في شكل سمح له بالاستمرار في الوجود لاحقا حتـــــى في ظل مجتمع مركنتيلي توجهه سلطة مركزية .

ومع انهيار النظام الاقطاعي راحت المراتبية والدوغمــائيــة الدينية تتآكلان وتتفتتان. فقد كانت الكاثوليكية فـــــي العصر الوسيط شيدت سلطتها على التبعية البنوية لاكليروس نذر لحياة العزوبيـــة. وكانت براءات الكنيسة توصي على الدوام بالعزوبية، ولم تكن تطالب رجال الاكليروس وحدهم بالتعفف، بل المتزوجين ايضا. ولسنـــا هنا بصدد تعداد المحظورات العديدة التي كانـت تحرم كل علاقة جنسية بين الزوجين قبـــل التنـاول، وخـلال مقدمات الميلاد، واثناء صوم الاربعين، وابتهالات الربيع ، وايـــام

(٥) السونيتة قصيدة من ١٤ بيتا . «م»

الصوم الاسبوعية ... فقد كان الزواج يعد احط مقاما من العزوبية والعذرية الطفلية وتعفف الارامل. ولم يكن الزواج الثاني يحظى ببركة الكنيسة. وكان اولى بالكاهن ان يضاجع مئة عاهرة من ان يتزوج من امراة واحدة. اما المتصوفون والقديسون المضطرون، بحكم وضعهم الاجتماعي، الى عقد زواجهم من امراة، فكانوا ينذرون العفة في زواجهم القسري : وبصدد هذا الانتقاص من قيمة الزواج، خاض انصار الاصلاح البروتستانتي احدى معاركهم الرئيسية ضد الكثالكة . فلوثر، الراهب الاوغسطيني، سارع الى عقد زواجه حالما علق لائحة بنوده التسعة والثلاثين على باب كنيسة فورتمبرغ.

ربما كانت خير طريقة لفهم الاصلاح البروتستانتي هي النظر اليه على ضوء افول النظام الاقطاعي في الاقطار الاوروبية الشمالية. وفي انكلترا يبدو تاريخ هذا الاصلاح وكأنه يعكس بوضوح كبير تأثير قيم الطبقات الاجتماعية الدنيا في ثقافة الطبقة العليا. فزيجات الفقراء لم تكن تعقد لاعتبارات سلالية، ولا لمصاهرة الاعيان من خارج مجتمعهم . فما كان يحصل في القصور لم يكن له من مرادف في الاكواخ. ونادرا ما كان السيد النبيل يعقد زواجه على فلاحة لتكون بحكم اصلها هذا طوع بنانه، كما هي الحال في قصة غريزيليدس التي رواها بوكاشيو في القرن الثالث عشر والتي اعاد اقتباسها اكثر من اديب في عصر النهضة. ان الرواج العظيم الذي عرفته هذه القصة في سائر ارجاء اوروبا خلال عصر النهضة يفصح عن اعادة نظر تدريجية ومضمرة في الافكار السائدة حول الزواج. فغريزيليدس ، التي انتزعها سيدها من كوخها الحقير، رفعت الى مرتبة الزوجة المتواضعة والطيعة. وحتى عندما اقدم زوجها وسيدها على عقد قرانه ثانية من امراة شابة، جميلة ونبيلة، لم تثر غريزيليدس ولم تتمرد، بل استقبلتها بالترحاب واشرفت بنفسها على زينتها من اجل الزفاف، وبذلك ظفرت من جديد بحب سيدها.

وقد ادعى هذا الاخير بطبيعة الحال انه لم يكن يرغب فعلا في الزواج من امرأة جديدة، وان كل ما كان يرمي اليه هو ان يجربها، وتعبر هذه القصة عن تأثير العادات والاعراف الشعبية في الجنسية الضامرة والعصابية للطبقة السائدة .

لقد فرض انصار الاصلاح البروتستانتي ايديولوجيا جديدة للزواج، فغدا عاما ومقدسا. وقد جرى التمجيد به الى حد اعتباره الشكل الاسمى للحياة والسبيل الاوحد الى الارتقاء الى مرتبة المواطن والانسان. وبما ان عدد الذين يجيدون القراءة ازداد بفضل اكتشاف الطباعة، فقد عرفت الايديولوجيا الجديدة انتشارا واسعا بشكلها النظري تارة وفي شكل القصة والحكاية طورا. ففي تلك الحقبة على وجه التحديد ظهرت أولى القصص العاطفية المكتوبة او المطبوعة . وكانت هذه الحكايات تعليمية في المقام الاول، وتعرض مقومات الزواج السليم وكيفية عقده. وكان بعضها بمثابة تحذيرات، وبعضها الآخر يتغنى بالحب البريء او ينطوي على مناقشات ومجادلات. وكانت الموشحات والقصائد الغنائية تتغنى بخصائل الفتاة المعدة للزواج .

ان كل صبية جميلة المظهر، حسنة الطبع، صحيحة البنية (٦)، كانت تجد من يغازلها بصدق وايمان ، غير ان الحب كان لا يزال يخضع لاعتبارات مصلحية واجتماعية. فقد كان يفترض في الزوج الا يكون عجوزا، او مشوه الخلقة، او قاسي الطبع، او زير نساء. ولم تكن الفتاة تزوج من اجل المال. وكان ابطال الاهازيج الشعبية والموشحات الغنائية يدينون بشدة النبلاء الذين يعاملون أولادهم وكأنهم ادوات لاعادة الانتاج. ولم تكن البنت تغادر اصلا دار ابيها لتتزوج الا اذا تقدم لها عريس مناسب ووفق الشروط المطلوبة. وكانت الفتاة تعد بحسن معاملته، وباحترامه، وبتلبية رغباته بكل رحابة صدر في فراش الزوجية.

---

(٦) جون كانيون : كتابا الكبرياء المصطنعة .

لكـن ما من شيء يحمل على الاعتقاد بأنهـا كانت تتصور ان الحـب سيغير وجه حياتها. كانت تنظر الى نفسها كما ينظـر اليهـا الاخرون، اي ككائن جنسي بلغ سن المجامعة، وكان زوجها يختار بدوره على اساس المقاييس نفسها. ويوم زفافها كان يأتيها، فـي الصباح الباكر، وفد من الشباب والفتيات من طرف خطيبهـا، فيوقظونها. فترتدي اجمل اثوابها، وتتعطر، وتتـوج راسهـا فـي بعض الاحيان باكليل من سنابل القمح، ثم تتوجه، مع جوقة من المرافقين، الى الكنيسة حيث ينتظرها العريس الذي سيضمن لها حمايته وجزءا من املاكه. وكان الكاهن، وهو يبارك اكليلهما، يتمنى لهما ذرية صالحة ، ويطرد عنهما شياطين الخوف والغيرة. وكـان ينقضي النهار بأكمله في الاكل والشراب والغناء والرقص، ومـع هبوط الظلام كان العريسان يزفان الى سريرهما ويتركـان اخيرا بمفردهمـا .

هكذا كانت تجري الامور على الاقل من منظور هواة فولكلور القرن السابع عشر. واغلب الظن ان الواقع كان ، فـي معظم الحالات ، اقل جمالا . بيد ان الاسطورة كانت تعزز مزاعم الريفيين بتفوقهم على اهل البلاط الملكي وسكان القصور في معرفة اسرار «الحب الحقيقي» القائم على الالفة وعلى حسن الاختيار مـن قبـل الاهـل (٧) .

في اواخر القرن السادس عشر كان الحب والزواج قـد غدوا من موضوعات الادب الاساسية . وكانت الاسرة النوويـة هي الاسرة النموذجية عند ساكني المدن، وكان عدد هؤلاء السكان يتنامى باطراد. لكن المزارعين راحوا يتحولون بدورهم باتجـاه الاسرة الثالوثية. وكانت المدينة تقتدي بمثال الريف حيث كان الزواج يقوم على التسامح وعلى التعايش المشترك في حجرتين ، وحيث كان الشتاء اطول من الصيف والمجاعة اكثر تواترا مـن

---

(٧) نيقولا بريتون ، البلاط والبلاد ،١٦١٨ .

الرخاء، وخير من دافع عن الزواج، باعتباره نمطـــا للحيـــاة وللخلاص ، هو شكسبير . صحيح اننا لا نستطيع ان نجـزم بمــا نديــن له بصدد ما هو ايجابي في المثل الاعلى للحب القاصر على موضوعه وللتعايش تحت سقف واحد، لكن ثمة شيئـــــا اكيدا بالمقابل : وهو ان شكسبير لم يهتم في اعماله الكوميدية بالوصول الــى خاتمة سعيدة بقدر ما اهتم بتحرير فكر جمهوره من رواسب الرومانسية، والشعائر، والانحرافات، وضروب الهوس. وحالمـا ندرك هذا المبدأ، تنحل المشكلات التي تثيرها حبكاته من تلقــاء ذاتها. ولقد تحدث الكثيرون عن النزعة التنكرية فـــي أعمـــال شكسبير، لكن من غير ان يدركوا انها كشف ووسيلة لاثــــارة الرعشات والقشعريرة. فجوليا في **نبيلان من فيرونا** وفيولا في **ليلة الملوك** بطلتان متنكرتان، تشهدان الجمهور علـــى اعمالهمـــا، وهمـــا تقفان على طرفي نقيض من المعبودتيـــن البتراركيتيـــن، سيلفيا واوليفيا، اللتين تتحركان في اجواء من التفخيم. فهاتان الالهتان تلوثان سمعتهما خلال مســـار الاحـــداث، بسبـــب استراتيجيتهما الانسانية اكثر مما ينبغي، وتتعرض احـــداهمـــا، سيلفيا، لمحاولة اغتصاب. اما الفتاتان المتنكرتان في زي ذكوري، فانهما تتجشمان في استمالة من تحبان مشقة اكبـــر لانهمـــا لا تستطيعان اللجوء الى الحيل والاغواء. فهما تعرضان خدماتهمـــا بدلا من ان تطالبا بخدمات الرجل . كما انهما بصفتهما ، خادمين شخصيين، تشاهدان الرجلين اللذين تحبان فـــي مواقف غيـــر بطولية على الاطلاق. امـــا روزالندا في **كما تريدها** (٨) فتنجـــح في تخليص اورلندو من عادته المتطلينة التافهة فــــي تشويـــه الاشجار بشعره الرديء. ان حبه الفجائي والجامح لامرأة مجهولة كلمته بلطف في يوم نصر ينقلب الى حب انيس لمراهق لا جنس لـــه علمه كيف يكتشف النساء وعصره. أن روزالندا، بتاديتـــهـا

---

(٨) ملهاة اخرى لشكسبير في خمسة فصول وضعهـا سنة ١٥٩٩ . «م» .

هذا الدور التوجيهي بالنسبة اليه،تكتشف دورها بالذات وتتحرر من قيود الانوثة. وفي **روميو وجولييت** يفاجىء روميو جولييت وهي تجهر بحبها له، فيتعذر عليها بعدئذ ان تتقيد بالشكليات، بالرغم من حرصها على ذلك. ولان حبهما لم يحظ بتأييد مجتمع مريض، فلن يعرفا من مصير غير الموت. فالحب عند شكسبير ظاهرة اجتماعية. انه ابعد ما يكون عن اندفاعه رومانسية تسعى الى الانعزال عن المجتمع، عن الاسرة، وعن السلطات القائمة. ففي **حلم ليلة صيف** يوصف الهوس بأنه هلوسة او جنون. وفي **تاجر البندقية** تنجح بورشيا في حمل باسانيو على ادراك قيمة ما يحتويه الصندوق الرصاصي عندما ترتدي ثوب المحاماة وتدافع عن انطونيو، صديق زوجها وولي نعمته. أن حبها يساهم في الجمع بين الناس، لا في التفرقة بينهم.

عندما يكون على شكسبير ان يختار بين المرأة الانثوية الخالصة والمراة المسترجلة، فان تعاطفه يذهب الى هذه الاخيرة. فالشخصيات النسوية في مآسيه هي جميعها مخلوقات انثوية، بما فيها الليدي ماكبث التي يخطىء بعضهم اذ يتصورها امراة منحلة، وجرترود (٩) التي لا تملك اي حس اخلاقي، والمستسلمة للشهوات. وما اوفيليا (١٠) الا نسخة طفاية عنها. اما الشقيقتان الشهوانيتان، غونريل وريغان (١١)، فتقفان على طرفي نقيض من شقيقتهما الثالثة كورديليا، الاميرة المحاربة، التي ترفض المداهنة وتملق رغبات والدها اللامعقولة. وفيما يتعلق بديدمونة (١٢)، فانها مثال للانثى المغوية، لكنها تدرك ذلك وتموت وهي تعي تماما معنى خيانتها لعطيل. وحدها كليوبترا تدلل على قدر من

---

(٩) والدة هملت . «م» .
(١٠) خطيبة هاملت . «م» .
(١١) بنات الملك ليـر . «م» .
(١٢) زوجـة عطيـل . «م»

المبادرة والرغبة يؤهلهـا لان تكون بطلة .

ان التعارض بين النساء اللواتي يمكننا ان نعتبرهن اشخاصا وبين النساء الاخريات لا يقوم على التضاد بين شخصيات الملهاة وشخصيات المآساة فحسب. فثمة امثلة اكثر وضوحا عن نساء ظفرن بحب الرجل، نظير هيلين التي تلاحق زوجها في المواخير العسكرية في مسرحية **الامور مرهونة بنهاياتها** وعن اخريات خسرنه بسبب خمولهن وانعدام شخصيتهن، نظير كرسيدا (١٣) على سبيل المثال . وفي **ترويض النمرة** يقيم شكسبير تعارضا بين نمطين من النساء. فهنالك كيت التي تناضل في سبيل ان تعيش في مجتمع لا تكون فيه شيئا مهملا، والتي تعي ان قيمتها التجارية هي دون قيمة شقيقتها، بيانكا. وكيت هذه اختارت ان تثور على هذه الاوضاع، وغدت نمرة شرسة مستحيلة المعشر. وهنالك بيانكا التي ادركت فوائد المكر والنعومة المتكلفة . وبيانكا هذه تعلي من شأن ذاتها باللجوء الى الحيل وبالتلاعب بعقل ابيها وعقول عشاقها، مورطة نفسها في لعبة خطيرة من شأنها ان تقودها الى هلاكها. وتكاد تجازف كيت هي الاخرى، وان بطريقة مختلفة، بركوب المركب الخطر، لكنها تقع لحسن حظها على بتروشيو الذي يملك من الرجولة ما يكفي ليدرك ماذا يبغي وكيف يحصل على ما يبغي. فقد عقد العزم على الظفر بعقل كيت وبحيويتها لانه يرغب في امراة جديرة بأن يحتفظ بها. انه يروضها كما يروض الصقر او الحصان الجامح، فتكافئه على جهوده بحميتها الجنسية واخلاصها العارم . اما لوشنسيو (١٤) فيجد نفسه وقد ابتلي بامراة باردة جنسيا، مخاتلة، لا تجد من غضاضة في اهانته، واذلاله امام الناس. ان خضوع امراة مثل كيت لهو خضوع اصيل وحافز للحيوية لانها تملك اصلا ما تضحي

(١٣) بطلة مسرحية شكسبير : ترويلوس وكرسيدا . «م» .

(١٤) زوج بيانكا . «م» .

به: كبرياءها كعذراء، ونزعتها الفردية. اما بيانكا فهي مثال للرياء والنفاق، وهي تتزوج عن غير ما اخلاص او حسن نية. وخطاب كيت في آخر المسرحية هو خير دفاع عن الزواج الاحادي . انه يعتمد على تصور محدد للزوج باعتباره حاميا وصديقا . وهذا التصور ينطبق على زوج كيت ، اذ ان بتروشيو يجمع بين النعومة والقوة. ونكون قد شوهنا المسرحية في الواقع اذا ما صورناه على انه رجل يضرب زوجته ويسيء معاملتها. ان لرسالة المسرحية معنيين : فالنساء اللواتي يشبهن كيت هن وحدهن الجديرات بان يصبحن زوجات صالحات لرجال هم على شاكلة بتروشيو .

ان تصور شكسبير للزواج لا ينطوي على اي رومانسية. فقد كان شكسبير يدرك ان الزواج امتحان يقتضي الانضباط ، والطاقة الجنسية، والاحترام المتبادل، والكثير من التسامح. كما كان يعي تماما انه ليس ثمة أجوبة جاهزة عن المشكلات الزواجية، وان الهوى لا يشكل اساسا لتعايش مستمر . لقد كان شكسبير في الواقع اديبا مخضرما، موزعا بين ثقافتين: الثقافة الكاثوليكية المتقهقرة، والثقافة البروتستانتية الانكليزية المتعززة التي ادخلت تغييرات على تصور الخليقة، وعلى الاخلاق والعلوم والفنون، وهي التغييرات التي اطلقنا عليها اسم «النهضة الانكليزية» . وترتبط معظم اعمال شكسبير بهذه التغييرات وتقيم تعارضا بين الطبيعة والرحمة من جهة اولى، وبين الثأر والاستبداد من الجهة الثانية .

لقد كانت ايديولوجيا الزواج الجديدة بحاجة الى ميثولوجيا وفرها لها شكسبير. فقد حاول البروتستانتيون جاهدين ان يثبتوا ان الزواج ليس مجرد علاج ضد الفسق، فانتقصوا من قيمة العامل الجنسي ليلحوا على دور الزوج كصديق ومعين.

عندما تساهم المراة في الانتاج مساهمة فعالة وتساعد زوجها في اعمال الحقل الى جانب قيامها بمهامها المنزلية

الخاصة، فانها لا تعود تملك من اوقات الفراغ ما يمكنها من اداء دور المستهلك الرئيسي في الاسرة. ولئن لم يقع الاختيار عليها من اجل جمال شكلها في المقام الاول، فهي لا تحاول ان تستغل مظهرها الخارجي لتحقيق غاياتها الشخصية، ولا تجد متسعا من الوقت للتبختر في ثياب انيقة سعيا وراء المغامرات. ونساء المدن هن اللواتي كن يقدمن مادة للقصص الهزلية الشعبية التي كانت تدور حول الخيانات الزوجية. فنساء المدن ما كن يساعدن ازواجهن في ادارة اعمالهم. وكان شغلهن الشاغل طيلة ساعات النهار اغتياب الناس، ومغازلة الرجال، وتجرع الكحول، والترويج لتقليعات جديدة، وضرب المواعيد، واختلاق الشائعات. وقد اعطى عنهن انطوان دو لا سال صورة مفصلة في كتابه **متع الزواج الخمس عشرة** الذي عرف رواجا عظيما طيلة بضعة قرون وترجم واقتبس من قبل ديكير في نهاية القرن السادس عشر. ولم يكن هذا الكتاب مجاهرة بالعداء للمراة، وانما صرخة صادرة من قلب رجل شعر وكأنه قد استغل طول حياته من قبل النساء. وفي المجتمعات المدينية كانت المنافسة الجنسية قوية، وكانت الفتيات يتعلمن منذ سن مبكرة فنون التبرج، ويتعمدن ابراز نهودهن وارادفهن، وكانت امهاتهن يشرفن على توجيههن في هذا الحقل ويعلمنهن فن المساومة الجنسية. وعندما كانت الفتاة تقع في ورطة وتجد مستقبلها مهددا من جراء حملها من شاب مقدام، كانت الام تدبر لها اجهاضا او زواجا مستعجلا من غني ما احمق. وقد تفاقم هذا الوضع بعد ان حرم القانون على العمال المتدربين ان يتزوجوا قبل انتهاء مدة عقدهم. وكان على المتدرب ان ينتظر ساعة انعتاقه وتمتعه بلقب معلم حتى يتزوج. وكان يعقد قرانه على فتاة مغرية وشهية ليكتشف، في معظم الاحيان، انه ورث فضلات جندي او عامل متدرب. كانت نساء المدن عاطلات عن العمل، وكن يتجولن حيثما شئن دون اي رقيب. وليس من قبيل المصادفة ان كان الموضوع التقليدي

للادب الهزلي والتهريجي في فرنسا وانكلترا هو الزوج المرهق، المضطهَد ، الذي تخدعه زوجته بدون علمه ، وترفض الاعتناء ببيته واعداد الطعام له. ويشتكي الزوج من ان زوجته ترغب في اي رجل كان، باستثنائه هو بالذات، ومن انها لا تمسك عن مشاجرته الا عندما تسعى الى ملاطفته كيما تحصل منه على ثوب جديد تغوي به الغرباء . وما ان تحمل للمرة الاولى حتى تضعف صحتها وتدعي انها اصبحت عاجزة الى الابد . ونلمس في هذه اللوحة خصائص الزواج المميزة لدى الطبقات الوسطى. فالمراة هي المستهلك الاساسي فيه، كما انها المؤشر الخارجي الى ثروة الزوج. انها مكايدة، كسولة، غير منتجة، ونرجسية. لقد اختارها الزوج كموضوع جنسي، لذلك فان صور الهوس الاستحواذي تغدو اكثر مطابقة لحالتها .

كان المصلحون الدينيون قد تذرعوا بالتوراة لتمجيد المتعة الجنسية في الزواج. لكن الزواج ظل رغم ذلك يعتبر كابحا للشبق والدعارة. فالزوجة الصالحة هي التي تفرض قيودا على شهوات الزوج، وتتحلى بالحياء والعفة، ولا سيما اذا كان لها اولاد . فقد كان هنالك اعتقاد راسخ بأن المغالاة في الجنس تسبب المرض، والعقم، والتقزز، كما انها تتسبب في تشويه الذرية. كما كان هنالك من يدعي بانه لا يجوز للرجل ان يتزوج من امراة كان قد هام بحبها، وتذلل لها، وارسل اليها قصائد الشعر والاغاني على سبيل الاطراء والممالقة .

مع اختراع الطباعة لم يعد الادب امتيازا موقوفا على طبقة النبلاء. وجاء تطور التعليم في ظل حكم اسرة تودور، ذلك التطور الذي شجعه البروتستانتيون بدافع توفير فرصة مطالعة الكتاب المقدس للجميع، ليوجد سوقا لسائر اشكال ادب الهروب الذي كان يصف الزواج بأنه مغامرة. وكانت فتيات البورجوازية الصاعدة يتعلمن الرومانسية العاطفية وآداب السلوك من مصادر واحدة. وللمرة الاولى في تاريخ الادب غدا الزواج يصور وكأنه

فتح او ضرب من البطولة، ولا سيما في القصص المعدة لطائفة الاسكافيين، تلك القصص التي كانت بطلاتها اميرات جميلات يقعن في حب مصلحي الاحذية . وكانت صناعة الرواية تعتمد بشكل اساسي على حجرات المطالعة التي كانت تروج في المقام الاول لادب عاطفي تلتهمه ربات البيوت بنهم شديد. اما اليوم فان كتب الجيب، والسينما، والمجلات النسائية، ومجلات الرسوم المسلسلة، والروايات المصورة، هي التي تتنازع السوق. وقد عرضت مجلة نسائية على جيليان فريمان كتابة مسلسل تتوفر فيه المواصفات التالية : «يتعين في بطلة القصة الشابة ان تكون سكرتيرة ... اما حبيبها فيجب ان يكون اعلى منها مرتبة اجتماعية، كأن يكون ابن رب العمل، او من الكوادر،او طالبا جامعيا، او عسكريا او طبيبا شابا. ويفترض بالخاتمة ان تأتي سعيدة، كما لا يجوز التعرض من قريب او من بعيد الى الدين او العرق. اما العلاقات الجنسية فينبغي الا تتخطى حدود القبلة » (١٥) .

ان الاسطورة لا تزال تتمتع برواج عظيم وان كانت قد طعمت بقدر من الاباحية على حد زعم بعضهم. صحيح انها لا تمت بصلة الى ما يجري في الواقع، لكن ذلك لا يقلل من اهمية الجذب الذي تمارسه . انها تقوم على غنى، وجمال، وسخاء، وعطف رجل من بين مليون رجل . بيد ان عدد النساء اللواتي يؤكدن انهن عثرن على هذا الرجل يكفي لاقناع الاخريات بأن عجزهن عن الاهتداء الى العصفور النادر انما مرده الى انعدام جاذبيتهن وقلة عطائهن. ان اكثر من نصف ربات البيوت في انكلترا يمارسن عملا خارج البيت لان ازواجهن لا يكسبون دخلا كافيا لتأمين نفقات الاسرة. واكثر من نصف نساء انكلترا يدركن ان ازواجهن متكرشون، او نحيلون ، وانهم يشخرون اثناء نومهم ، وان رائحتهم

---

(١٥) جيليان فريمان : اشواك الادب ، لندن ١٩٦٩، ص ٥٠ – ٥١ .

كريهة، وانهم لا يعرفون اصول الترتيب والنظام. وثمة نسبة كبيرة من النساء لا يعرفن الاشباع الجنسي في العلاقات الزوجية، كما ان معظم النساء يشتكين من اهمال ازواجهن للاشياء الصغيرة التي لها قيمتها الكبيرة في نظرهن . ومع ذلك فان الاسطورة لم يعد النظر فيها. فهنالك على الدوام ظروف مخففة. والتبعة تقع على الحكومة، او على الضرائب، او على العمل المستمر وراء المكتب، او على المرض، أو على الهفوات والاخطاء الفردية. ان معظم النساء اللواتي صدقن الاسطورة يكررن فعل ايمانهن بها، ويؤكدن انهن سعيدات بالرغم من مصاعب الحياة اليومية، وبالرغم من ان هذا التأكيد يتعارض تماما مع الوقائع. ذلك ان الاقرار بخيبتهن يعني التسليم بفشلهن والعزوف عن بذل اي جهد. ولا يدور لهن في خلد على الاطلاق ان تصوراتهن الزائفة عن الحب هي سبب خيبتهن .

ان النساء المنتميات الى الطبقات الشعبية لم يتوقفن يوما عن العمل، اما كخادمات او عاملات، واما كخياطات او ربات بيوت . لذلك كان من المفروض ان يكون سلطان الاسطورة على عقولهن اخف وطأة. غير ان معظم الاسر العمالية تتبنى نموذجا عن «الارتقاء الاجتماعي» يؤدي الى تبرجزها. وفي كثير من الاحيان لا يعدو عمل المراة ان يكون عملا اضافيا، مساهمة من اجل شراء بيت او اثاث، والزوج ينتظر بفارغ الصبر اليوم الذي تتمكن فيه زوجته من لزوم جدران بيتها لتنجب له الاولاد، وتؤمن له ولهم سبل الراحة. ويذهب بعض الازواج، في حالات قصوى، الى منع زوجاتهم من مسح ارضية البيت وتنظيفها لان هذا العمل الشائن هو بمثابة اهانة للنزعة الرومانسية الذكورية.

يمثل الزواج الاحتفال الرئيسي في ميثولوجيا الطبقات الوسطى، وهو يشير الى انتماء الزوجات رسميا الى فئة البورجوازيات. ويكافح الزوجان الشابان من اجل تجسيد صورة الحياة المرفهة التي سيحكم عليهما فيما بعد بالامتثال بها.

وبقدر ما تكون مكانة اسرتيهما الاجتماعية مرموقة يضطران الى رفع مستوى معيشتهما والى الانفاق على بيتهما . مخازن **هارودز** البريطانية تؤكد للفتاة الشابة ان مهمتها تقتصر على ايجاد الزوج المناسب،اما الباقي فتتولاه هي، اي مخازن **هارودز** . وعديدة هي المخازن الكبرى التي تنهال بالعروض على الشابات اللائي اعلن عن خطوبتهن في الصحف . وثمة مخزن لندني يحقق سنويا رقم اعمال يتراوح بين مليونين وثلاثة ملايين ليرة استرلينية عن طريق التلاعب بعواطف امهات الفتيات المخطوبات. وتلعب الافلام، والمسرحيات، والكتب، دورها في التحريض على الاستهلاك : فكل بيت فيها فخم، وكل زوجة نحيلة وانيقة، وكل زوج ينعم برصيد هام في المصرف .

تفعل الاسطورة فعلها على طريقة الامل في الربح الذي يلوح به اليانصيب. فما من امرأة مرهقة بالعمل وغير محظوظة بالجمال الا وتحلم، لدى مطالعتها في **الصنداي تايمز** مقالا عن زوجة احد اصحاب الملايين، ان لها ثلاثة اطفال، وطباخة ، ومربية اطفال، وخادمتين، وبستانيين، وسيارة رولز – رويس واخرى فيات ، وطائرة هليكوبتر ، ودارا ريفية ، وشقة في حي من احياء لندن الانيقة. «لقد اشترى لي زوجي محفظة يد من جلد التمساح مع سلسلة تصلح لاكثر من استعمال. ولا ادري بالطبع ما ثمنها. وقد اهداني معطفا من الفيزون البني الغامق يمكن ارتداؤه في كل مناسبة ... اما قمصان النوم والثياب الداخلية فاشتريها بالطبع من عند **فورتنوم**. لا، لا ادري ما قيمتها. وقد يهديني اياها زوجي في بعض الاحيان وهذا ما يسرني. . ويتقن زوجي اختيار المجوهرات على نحو مدهش»(١٦) . وكان السحر قمينا بأن ينقشع تماما فيما لو عرفت قارئة **الصنداي تايمز** ان سكرتيرة الصناعي المليونير هي التي تذكره

---

(١٦) **الصنداي تايمز** ، ١٥ ، ٦ ، ١٩٦٩ .

بالاعياد والمناسبات، وهي التي تقوم، خلال فرصة الغداء، بشراء الحلية او المجوهرة التي يتولى البائع الرئيسي في مخزن الصاغة اختيارها. ان الحب يبدو وكأنه ينتحر ويندحر عند وضعه على محك التجربة اليومية، او يغدو على الاقل غير مرئي . لكن الزوجة الشجاعة تؤكد جازمة : «اعلم انه يحبني. صحيح انه لا يبوح لي بذلك لاننا تخطينا طور الافصاح عن العواطف. لكنه لن يحاول ابدا ان يسبب التعاسة لا لي ولا للاطفال». من السهولة بمكان ان نتصور الحب وقد تغلب على امتحان الزمن في بيت تحيط به الورود، او في قصر في الريف تصدر سيدته اوامرها الى طابور من الخدم، وتتربع على عرش الاناقة والجمال لتستسلم ، سعيدة ومعطرة، لعناق زوج مظفر .

لكن ذلك ليس صحيحا. لم يكن صحيحا في الماضي ولن يكون على الارجح صحيحا في المستقبل .

الفصل الثالث والعشرون

الاسرة

ان الاسرة التي يرئسها الاب وينفق عليها ماديا ، وتعتني بها الام وتوفر لها الغذاء، تبدو وكأنها جزء لا يتجزأ من النظام الطبيعي. وقد كان آدم يحرث الارض وحواء تغزل الصوف، وكان الاله الاب يجالسهما ويسامرهما ما داما عاقلين. وبعد سقوطهما في الخطيئة طردا من جنة عدن واسسا اسرتهما الخاصة. وتشاجر اولادهما وتقاتلوا، شأنهم شأن الاولاد جميعا، فأطلت جريمة القتل على العالم. وقد تزوج احفاد آدم بنات شهوة الجسد. والحق ان اسطورة اصل العائلة الابوية في العهد القديم غامضة ملتبسة . فالاب حقود ، والام تابعة له ، والاشقاء يقترفون الجريمة الاولى، القتل حبا بالاب، في حين ان العاهرة ليشيت (حسب ما ورد في الاناجيل المزيفة) تقف لهم بالمرصاد خارج سجنهم المنزلي، داعية اياهم الى الدعارة والفسق، مهددة تلاحم الاسرة وتماسكها. وعلى هذا الاساس شيدت المسيحية تصورها الخاص عن الاسرة، فرأت فيها نتاج قانون طبيعي . وكانت بنية الدولة، التي كانت تعتبر بسذاجة مجموعة متضافرة

من الاسر، تعكس المبدأ الطبيعي عينه . فالملك المتزعم هو الاب الحليم، وانما المنصف لاسرة ضخمة. وقد اعترفت الكنيسة بدورها برئيس لها، يمثل الله على الارض. وكان الرجل، بحسب التصور المسيحي للاسرة ، هو الروح ، اما المراة فالجسد . والرجل هو العقل، اما المراة فهي القلب. والرجل هو الارادة، اما المراة فالهوى. وكان الاب يعلّم الصبيان دورهم الذكوري، فيما تتولى الام تعليم البنات دورهن الانثوي. وكان كل شيء يبدو واضحا، بسيطا، غير قابل للتغيير. فالاب مسؤول عن الاشخاص التابعين له. واليه تعود ملكية مجمل ثروة الاسرة التي كان ينقلها الى بكر اولاده مع اسمه .

لكن ما كان يبدو جوهريا ومحتوما كان في الواقع عرضيا. فقيام الاسرة الابوية النسب مشروط باعتراف المراة للرجل بحق الابوة. ذلك ان الابوة ليست علاقة جوهرية. ولا يمكن اثباتها اساسا، الا سلبا. ومهما بالغ رجل في مراقبة زوجته فانه لن يستطيع ان يضمن ابوته لاولاده مئة بالمئة .

وما دامت هنالك أموال للتوريث، وشرعية يتعين الحفاظ عليها، فقد احيطت النساء بالحراس، وحجر عليهن، وفرضت القيود على فضولهن الطبيعي وحاجتهن الى العمل والى التعبير عن الذات . ان حزام العفة، الذي كان السيد النبيل يفرضه على زوجته قبل ان يذهب الى الحرب، خير دليل على بطلان هذا الصراع. اما اليوم فان النساء يطالبن بان يكن موضع ثقة، وبألا تحوم الشكوك حول توكيداتهن بصدد نسب اولادهن. وهن يتعهدن بالوفاء بالتزامهن بتأمين الخلود لازواجهن من خلال اولادهم مقابل التزام هؤلاء الازواج بحمايتهن والانفاق عليهن .

بيد ان الاسرة التي تنشأ متى ما اسكن الزوج الشاب زوجته في دار مستقلة، لا تضمن، من حيث تكوينها بالذات، الابوة الشرعية. فالزوجة تنفرد في البيت طيلة النهار، لا حارس عليها او رقيب. ويتعين على الرجل في هذه الحال ان يمحضها

ثقة اكبر. ففي البيت الحديث لا وجود لاهل او لخدم يتولون السهر على مصالح الزوج. ومع ذلك فان الاسرة الحديثة تعتبر الخاتمة المنطقية والمناسبة لاشكال الحياة الابوية التي سبقتها. والواقع ان هذه الاسرة النووية، التي تقتصر على الزوجين، قد تكون اقل الخلايا الاجتماعية قدرة على الاستمرار والصمود. ففي العصر الاقطاعي كان الناس يعيشون في ظل الاسرة ــ الذرية التي كان يتراسها اكبر الرجال سنا، والذي كان يمارس سلطته على اولاده ونسائهم واولادهم. وكانت المهام المنزلية توزع بدالة وضع النساء. فالفتيات العازبات كن يهتممن بغسيل الثياب، وبالغزل والنسيج. اما الامهات فكان اطفالهن الرضع شغلهن الشاغل. وكانت النساء الاكبر سنا يعتنين ببقية الاطفال وبشؤون المطبخ. وكانت اكبر الزوجات سنا تسهر على تأمين الانسجام داخل الاسرة وعلى حسن سير الامور برمتها. ولم يكن للانزواء، الذي يجعل من الجناح العائلي الحديث مركز امراض عصابية، من وجود. ولم تكن الخلافات والمشاحنات مرشحة لان تتحول الى قلق عاطفي كما عندما ينفرد الزوجان واحدهما مع الآخر. وكانت النزاعات العائلية قابلة لان تناقش علنا، وكانت قرارات الشيوخ تحترم وتطبق. ونادرا ما كان الحب الرومانسي هو ما يدفع الى التعايش تحت سقف واحد. فالرجل الذي كان يرغب في ذرية كان يختار امراة قادرة على ان تندمج في البيت العائلي. وقليلا ما كان الناس يشكون من الخيبة، او المرارة، او الضجر. وكان الاولاد اول المستفيدين من هذا النمط التنظيمي الذي لا يزال سائدا في بعض ارجاء اليونان ، واسبانيا، وفي جنوب ايطاليا. فقد كان هنالك على الدوام جد، او عم، او عمة عزباء، على استعداد لان يجيبوا عن اسئلتهم، او ليقصوا عليهم الحكايات او ليلقنوهم دروسهم، او ليذهبوا معهم الى صيد الاسماك. وما ان يقتدر الطفل على المشي حتى تعهد اليه بعض المسؤوليات الصغيرة : اطعام الدواجن والحمام ، الاعتناء بحمل او بجدي .

ومـــا كان مرغما على الايواء الى فراشه فيما ذووه يتناقشون في المطبخ. بل كان يسمح له بان يصغي الى الحديث ريثما يستسلم الـــى النوم بين ذراعي واحد من افراد الاسرة. ولم تكـــن ثمـــة هوة بين الاجيال لان سائر الاعمار كانت ممثلةداخل دائرة الاسرة. ولقـــد عشت فـــي كفر صغير في جنوب ايطاليـــا ورايت عائلـــة من هذا النوع تواجه فقرا مدقعا، في غياب معظم رجالهـــا الذيـــن ذهبوا للعمل في المانيا. وكان الاولاد في هذه الاسرة اسعد اولاد قـــدر لي التعرف اليهم واقل الاولاد خجلا وعصبية (١) .

ان الاسرة ــ الذرية هي مصدر تلاحم وتعاضد ثابتيـــن، لا تطالهما سلطة الدولة. لكن عندما تتصدى الاسرة ــ الذرية للسلطة القائمـــة وتدخل في نزاع معها، فقد تتحول الى شـــــيء يشبـــه اسرة المافيا الشائنة . لقد تمخضت طقوس الشرف العائلـــي عـــن ظواهر مناهضة للمجتمع، كالثأر الشخصي، لكن هذه الطقـــوس ما كانت تنمو وتترسخ الا عندماكانت السلطةالسياسية تهدد المجتمع المحلـــي .

ان التغييرات التي احدثها التصنيع وانتشار المـــدن علـــى صعيد توزيع السكان، وحراك اليد العاملة المتنامي، ادت الـــى افول الاسرة ــ الذرية في اوروبـــا الغربيـــة ابتـــداء مـــن مطلـــع القرن السادس عشر. بالمقابل، فان تحول الملكية العقارية، وتفكك السلطة المحلية لصالح حكم مركزي، واقامة الاسوار والاسيجـــة، ودفع ايجار الارض نقدا للمالك الغائب، امور ساعدت على تطـــور الاسرة النووية.لكنها ما صارت الى ذلـــك الشكل الابتر الشائه من

(١) يخيل الينا ان الكاتبة تقع هنا في ما حذرت منه على امتداد كتـــابهـــا: الرومانسية المثالية الاسطورية . ففي الشرق، حيث ما يزال للاسرة الابويـــة الكبيرة وجود ملموس (الشاهد عليه ثلاثية نجيب محفوظ) ، لا يبدو الاولاد على الاطلاق انهم فـــي منجى من القمع ومن الامراض العصابية .وهذا الشرق يستحضر الى حد بعيد صورة الجنوب الاوروبي. «م» .

الحياة الجماعية الذي نعرفه الا في زمن متأخـر . ففـي البـدء حافظت الاسرة النووية على طابعها العضوي وظلت مفتوحة علـى التاثيرات الخارجية. ولم يكن الزوجان يجدان متسعا من الوقت ليجترا خلافاتهما الزوجية، كما ان ضغط الاسرة والاشخـاص العديدين الذين يشاركونهما سقفهما كان يدعم ويعزز رابطتهمـا الزواجية. وكان الاشخاص المسنون يقضون ايامهم الاخيرة الـى جانب اولادهم. بيد انه لم تعد هنالك منشاة عائلية، ولا ميـراث عائلي تتوجب تنميته وخدمته. وكانت ضرورة البحث عن عمـل تجر الابناء الى خارج المدار العائلي. كما قضى تطـور التعليـم بالتدريج على تلاحم الاسرة الثقافي، ولا سيما عندما ادى التعليم الالزامي الى خلق جيل جديد اكثر ثقافة مو الاهل. ثم ان التزايد المطرد لعدد سنوات الدراسة ما فتىء على كل حال يعمق الهـوة الفاصلة بين الاجيال. وعندما كتب ابسن وسترندبرغ مآسيهمـا العائلية، كانت الاسرة قد تحولت الى سجن يناضل الاولاد ضمن جدرانه للتحرر من سيطرة الوالدين الشالة، في حين ان المجتمع الخارجي ما عاد يتمثل الا برجل البوليس، والطبيب، والقس . وصار الخدم اشخاصا غرباء واعداء طبقيين. واسفـرت الاخلاق الطهرانية عن شيوع الرياء، والكبت، والبورنوغرافيا. وكـان الزوج والزوجة يتشاجران على مدى الايام مسممين حياة بعضهما بعضا. وكان الاب ــ المعيل، الذي لم يعد له من مجال آخر لاثبات تفوقه، يمارس دور الحكم الاخلاقي، مع انه لم يهيا لاداء هـذا الدور. اما المراة فكانت عبارة عن دمية، منهمكة في الدسـائس والمكايد الحقيرة، تنظر الى زوجها بعين ناقدة لا رحمة فيهـا، تتخبط في الضياع والخيبة بسبب تفاهة حياتها وبطالتها. وقد بلـغ عداء الزوجين لبعضهما بعضا حدا من التفاقم والقدرة على التدمير اباحت معه البلدان الغربية الطلاق. وقد طالبت النسـاء بحق ممارسة اعمال غير منزلية في وقت كانت فيه الصناعـة المزدهرة تعلن عن حاجتها الى اليد العاملة، ولا سيما خلال الحرب

العالمية الاولى وخلال السنوات التي اعقبتها، بسبب قلة الرجال. وقد تزايد عدد النساء العازبات، مما فاقم من حدة مشكلة برزت منذ مطلع القرن . وبالتدريج راحت البيوت القديمة الرحبة تقسم الى مساكن صغيرة. وانتشرت البنايات الكبيرة ذات الشقق الصغيرة، تلبية للطلب المتنامي عليها. وغدت الدولة هي المسؤولة عن بعض الوظائف التي كانت الاسرة هي التي تقوم بها فيما مضى، ومنها الاعتناء بالمسنين، والمرضى، والعجز والمتخلفين عقليا .

لقد اختزلت الاسرة في النصف الثاني من القرن العشرين الى ابسط اشكالها، فهي منطوية على ذاتها، وعمرها قصير: فالشاب يغادر السقف العائلي حالما يقتدر على ذلك ، سعيا وراء التأهيل المهني والعمل. والاولاد يمضون اكثر اوقاتهم في المدرسة والزوج في مقر عمله. اما الام فهي قلب الاسرة الميت، وهي تنفق المال الذي يجنيه زوجها على السلع الاستهلاكية المعدة لتزيين الاطار الذي فيه يأكل، وينام، ويشاهد التلفزيون. وقد بات الاولاد ينزعون، منذ الحرب الاخيرة، الى تأليف جمعيات خاصة بهم، آخذين بالسمات القبلية في لباسهم وتصرفاتهم . وحتى الفتيات بتن يعملن في الخارج، ويتقاسمن مع شابات اخريات شققا مفروشة في المهاجع ـ المدن التي عرفت رواجا عظيما في التجمعات السكانية الكبرى. ولا تتمتع الزوجة باهميتها كزوجة الا من خلال ولاداتها والسنوات التي تمضيها في الاعتناء باولادها الصغار. لكن شروط ادائها لهذه المهمة والالتباس السائد بصدد كيفية قيامها بها يزيدان من عزلتها ويعززان في الوقت نفسه التبعية المتبادلة التي تجمع بين الام والاولاد خلال السنوات الاولى من حياتهم .

ان الفتاة الشابة التي تعمل خارج البيت تستمر في عملها هذا لبضع سنوات بعد الزواج، ثم تنسحب من الحياة العملية لتنجب الاولاد، علما بانها لم تكن قد هيئت لعزلة البيت النووي.

فهي، وان لم تكن تشعر بمتعة كبيرة من جراء ممارستها نشاطات ثانوية كالضرب على الالة الكاتبة، او البيع، او القيام ببعض الخدمات، فانها كانت بالمقابل تتمتع بقدر من الحرية في التحرك والتصرف. وها هوذا افقها يتقلص فجأة، فيقتصر على بيتها، وعلى مخازن الحي، وعلى التلفزيون. انها تسرف طيلة النهار في احتضان طفلها ورعايته، ثم اذا ما اتى المساء وعاد زوجها من العمل ، ارسلت الطفل الى فراشه كيما يتسنى للاب ان يريح اعصابه. وهكذا يكون الموقف الاوديبي، الذي كان يتجدد في كل زواج، قد تفاقم اليوم الى حد كان فرويد سيعتبره مروعا. فقد اصبح الاب بالفعل غريما وغريبا. اما العلاقة الحميمية التي تربط الام بالطفل فما هي بالدينامية ولا بالسليمة . فالطفل يتعلم كيف يستغل اما سهلة المنال اكثر مما ينبغي، فينهال عليها بالاسئلة والطلبات دون ان يحركه اهتمام فعلي، ويحرجها امام الناس، ويمارس عليها ابتزازا فعليا كيما تشتري له السكاكر او تحمله بين ذراعيها. والحال ان التبعية ليست حبا. وموقف الطفل من المدرسة، التي تنتزعه من امه بعد خمس سنوات من علاقة حميمية قسرية، لا يقل تناقضا وازدواجية عن مشاعره البنوية. انه يستحسنها من حيث انها توفر له امكانية للهروب، لكن ما ان يطلب منه ان يبذل جهدا حتى يسعى الى حمل امه على مواجهة اساتذته. والغيرة التي تشعر بها الام ازاء الاساتذة، ومحاولات الاساتذة الرامية الى ممارسة بعض السلطة على الطفل قمينة بخلق مواقف صراعية خطيرة. ويعي المعلمون تماما ما تتسم به العلاقة بين الام والطفل من طابع معاد للمجتمع، ولا سيما عندما يكون الامر متعلقا بالانضباط او بالمشكلات الناجمة عن اضطرابات عاطفية (٣) .

ان تهمة معاداة المجتمع توجه الى الزوجة ــ الام المسكينة

---

(٢) انظر التقرير الذي نشرته «الصنداي ميرر» في ٨-٣-١٩٧٠ .

لاعتبارات اخرى ايضا. فالبيت هو مملكتها، لكنها تجد نفسها فيه وحيدة. انها تود لو ان زوجها واولادها يجالسونها لان حياتها الاجتماعية تتجرد من كل معنى بدون هذه الجماعة شبه الوهمية. انها تكافح كيما تبقي اولادها الى جانبها، وتفرض عليهم القيود، وتترقب عودتهم الى البيت، وتتدخل على نحو سافر في شؤونهم الخاصة. ويحاول الاولاد بالمقابل ان يقيموا فاصلا بينهم وبينها، ويتجنبونها بازدراء يكاد ان يكون مكشوفا. انها تتوسل لزوجها كيلا يخرج مع اصدقائه، وتستغرب حضوره مباراة كرة قدم في يوم ممطر وعاصف وهو الذي كان قد تأبى عن تصليح سقف البيت او عن قص عشب الحديقة بحجة انه مرهق. انها تلومه لانه لا يمنح الاطفال الاهتمام الكافي، وتتشكى من انفرادها في فرض النظام والانضباط. وما من احد يوجه اليها الكلام، فهي مخلوقة جاهلة، نذرت افضل سني حياتها لزمرة من ناكري الجميل. ان السياسة عالم من الاسرار ممل ومضجر في نظرها. اما الرياضة فهي لعبة طفلية لرجال ضلوا طريقهم الى الرشد. وخير ما يمكن ان يقع للزوجة الخائبة هو ان تعود الى ممارسة عمل ما اختارته اساسا الا لتأمين دخل اضافي للاسرة، عمل لا يسعها ان تتأمل منه ترقية، او تعويضا مرضيا، او توسيعا لافقها، لانها تجد نفسها مضطرة في الوقت نفسه الى الاستمرار في اداء مهامها المنزلية. وهكذا يصير العمل بالنسبة اليها نوعا من التنويم المغناطيسي. فهي تنظف، وتحيك، وتطرز، الى ما لا نهاية .

في الماضي كان الناس يعيشون في بيوت تعج بالاصدقاء، مع منشآت جماعية في مجتمعات ثابتة يعرف اعضاؤها بعضهم بعضا. وكانت لهذا النظام مساوئه. فقد كانت الامتثالية محتومة، كما كان الاهتمام الدائب الذي تحيط به المجموعة السلوك الفردي مزعجا للغاية. صحيح ان العجائز ما كن معرضات في تلك الايام لان يبقين جاثيات على الارض طيلة ساعات، بسبب

ورك مكسور، دون ان يمد لهن احد يد العون والمساعدة ، لكن النساء الصبايا بالمقابل كن يجدن انفسهن شبه عاجزات عن اقامة علاقة سرية في ظل تلك الرقابة المشددة. ان الفرد اليوم يعيش وحيدا بين الناس في المدن المكتظة بالسكان . وفي الابراج الضخمة تقطن العشرات من الاسر، التي يجمع بينها العديد من القواسم المشتركة، والتي لا تقيم رغم ذلك علاقات فيما بينها. فالابواب تغلق باحكام على عوالم خاصة لا يقوم بينها اي اتصال في الاروقة الطويلة او المصاعد المغفلة، اللهم الا نزر يسير من العتاب والشجار بسبب الضجيج الذي يحدثه جار من الجيران. والنساء اللواتي يراقبن اطفالهن وهم يلعبون في الملاعب المشتركة لا يحاولن التعارف الى بعضهن بعضا الا عندما يقتضي شجار الاولاد تدخلهن. وكثيرا ما تخلق روح المنافسة شعورا بتفوق وهمي لدى الاسر : تفوق عرقي، او اخلاقي، او ديني ، او اقتصادي، او اجتماعي . ويعرب مخططو المدن عن اسفهم امام رفض سكان الابراج السهر على صيانة المنشآت الجماعية، ويشتكي هؤلاء الاخيرون بدورهم من الضيق الذي يعانون منه بسبب علو الابنية الشاهق وما يتولد عنه من شعور بالحجر والانحباس. انهم يتلاقون في المصاعد فلا يرون بعضهم بعضا، ويحرمون على انفسهم استرقاق النظر الى نوافذ الجار ، او تبادل الاحاديث على عتبات البيوت. وقد باءت الجهود التي بذلت لاعادة خلق حياة جماعية بالفشل. فالنساء يدافعن بحمية وغيرة عن استقلالية بيوتهن، كما يتخوفن من ان يتأثر اولادهن ونمط حياتهن سلبا من جراء مداخلة الغرباء .

هناك اجماع على اعتبار النتيجة المعمارية التي تمخضت عنها مطالب الاسرة النووية، وهي الانتشار الواسع للشقق الفردية، نتيجة مفجعة . فنفقات صيانة هذه المناطق السكنية باهظة، وتأمين الخدمات لها صعب. ومهما اكد انصار المجمعات السكنية الكبرى على الفعالية الوظيفية لهذه المجمعات وعلى الرفاهية التي تؤمنها،

فانهم يصطدمون دوما بمقاومة الاسرة النووية. وان يكن للمباني الموجهة توجيها حسنا، والمتمتعة بالهواء، والشمس، والاطلالات الرحبة، اغراؤها، فان هذا الاغراء عاجز عن تذليل الحذر الذي تشعر به الخلية الاوديبية تجاه الخلايا الاوديبية الاخرى. وثمة حل بديل لهذا الوضع : تعهد الاسرة النووية من قبل رب العمل الذي يقوم في هذه الحال بدور الاب، كما يحصل في بعض المجمعات السكنية الاميركية حيث يمنح سائر العاملين في منشأة من المنشآت مسكنا يتناسب مع دخلهم ومنصبهم ويشجعون على التعاشر والتخالط. وتؤلف الزوجات جزءا لا يتجزأ من الجامعة او الشركة التي يعمل فيها ازواجهن. وتفرض عليهن الحياة الجماعية بالقوة. بيد ان نتائج هذا النظام تبدو لي ، على المدى البعيد، مخيفة. فالمنشأة تنتهي الى الهيمنة على جميع جوانب الحياة العائلية . فالرجل يوظف بناء على استبار لشخصيته يشمل زوجته واولاده،وهو يجد نفسه مضطرا الى اداء الدور الذي تعينه له المنشأة في ادق تفاصيل حياته الخاصة. وحتى سلوكه الجنسي يتحول الى مسألة مردود. وقد حدد ماسترز وجونسون معيار هذا المردود. والواقع ما من قن في عصر الاقطاع عرف مثل هذه العبودية. فروحه بالذات تعتبر جزءا من ممتلكات الشركة التي تستخدمه. تلك هي النتيجة المنطقية المترتبة على تنظيم العمالة والاستخدام بالتعارض مع حراك العاملين والمستخدمين. فأمن المستخدم مرهون بسلوك جميع افراد اسرته. والنتيجة المنشودة هي جمودية تضمن اليقين في التوقع. ولهذا السبب وهنت الطاقة الجنسية عند الجامعيين، ومرد هذا الضعف الى كونهم قد تحولوا الى فئران بيض متخمة تعيش في اجواء مختبر، وليس مرده الى وجودهم باستمرار الى جانب زوجاتهم، كما يدعي ذلك ليونيل تايغر (٣).

---

(٣) ليونيل تايغر : الرجال فيما بينهم .

لقد خصى بيغ دادي (٤) رئيس الجامعة، في مسرحية ادوارد البي **من يخشى فيرجينيا وولف،** والشبح المهيمن على اجوائها، لقد خصى ابناءه. والشكل المميز الذي يرتديه الانحطاط الاميركي هو الادمان الجماعي على الكحول، الوسيلة الوحيدة للتخلص من الرقابة المفروضة على السلوك الجنسي، ومن ثم تبادل الزوجات، الشكل المعاصر لزنى المحارم.

ان العاملين في الصحف التي تهتم ب «العلاقات الانسانية»، كمجلة **فوروم** Forum على سبيل المثال، يدعون بكثير من الجد الى ممارسة عادة تبادل الزوجات معتبرين اياها وسيلة ناجعة لبعث حياة جديدة في زيجات مهددة بالغرق في الفتور واللامبالاة. لكن تبادل الزوجات سلوك بعيد الى حد كبير عن العفوية، وعن هيمانات الرغبة الجنسية الحقيقية، بحيث تكون الجنسية هي الضحية الاولى في الصفقة. فالهوى يتحول هنا الى شبق ودعارة. والجنسية، في هذه الشروط، لن تكون اتصالا، وانما تسلية. انها تنحط الى مستوى الفليبرز، وعلب الموسيقى، والهولا–هوب، واليويو، وغيرها من وسائل التسلية. انها تلهية منزلية غير خطيرة. تلهية غير بريئة، وانما محسوبة. وعندما سيؤيد بيغ دادي هذه التصرفات الشاذة، فان الجنسية ستنضوي بدورها تحت جناحه الرحب. فلمَ لا يسمح للفأر الابيض المتخم، والضعيف جنسيا، بان يقتحم القفص المجاور لينشّط من فيه؟ وعلى هذا النحو يمكن التوصل الى احادية النمط الجنسية: فسوف يطبق السيد جونز مع السيدة جونز ما تعلمه من السيدة سميث، الخ.

لقد اختزلت الاسرة النووية في الواقع الى «الزوجين» فحسب. فكثيرا ما تشير المجلات النسائية على سبيل المثال، من باب التأسف والتحسر، الى الدور المشوش والمخل بالاستقرار

(٤) Big Daddy : **الاب الكبير**. «م».

الذي يلعبه الاطفال على صعيد العلاقات الزوجية، وتنوه بأن التزامات الزوجة الشابة ازاء اطفالها والتعب الذي تتكلفه بسببهم يحولان دون تلبيتها مطالب زوجها العاطفية. ولا تعي تلك المجلات اي حماقة هي الاسرة التي يهدد الاطفال انسجامها. ان وسائل منع الحمل قد زادت من انانية الزوجين. ولقد كانت للامومة غير المرتقبة على اية حال بعض ايجابيات المصادفة. فلقد كان الاولاد يأتون، اشاء الاهل ام ابوا.

في الاسرة النووية يصدر الاهل الاوامر ويتحكمون بالاولاد وكأنهم ادوات طيعة بين ايديهم . وتزداد الهوة الفاصلة بين الاجيال اتساعا في تلك الاسر التي يحرم فيها على الاولاد ازعاج اهلهم، ويطلب منهم الانزواء في غرفهم. ولا يجوز ان تنجب الام من الاطفال ما يفوق قدرتها على تربيتهم، اي على مراقبتهم طيلة النهار للحجر عليهم في غرفهم عند المساء. واذا ما اراد الاهل الخروج ليلا، اضطروا الى ان يدخلوا الى بيتهم خلسة شخصا من الخارج للسهر على الطفل، والا انفجر هذا الاخير في الصراخ والعويل. ولا زلت اذكر ذلك البيت الحقير، المؤلف من غرفتين، الذي شاهدته في منطقة كالابريا في ايطاليا، حيث كان الناس يذهبون ويأتون بحرية مطلقة، وحيث لم اسمع طفلا واحدا يبكي، الا عندما كان يلحق الاذى بنفسه، وحيث كانت الخالة، ابنة الاثني عشر عاما، تغني وهي تغسل الثياب الى جانب البئر فيما كان الجد يتنزه في بستان الزيتون حاملا حفيده بين ذراعيه. لقد فقد الاولاد الانكليز براءتهم لان اول شيء يتعلمونه هو استغلال رقيقهم الراشد .

ان الاب – او الام – المعقم هو خصي في حريم من الاولاد. اني اعترف بان اللجوء الى اساليب منع الحمل الفعالة امر ضروري لتأمين المتعة الجنسية، لكن عندما تكون دوافع منع الحمل اقتصادية فالامر يختلف تماما. «لا نستطيع ان نربي اكثر من طفلين» : هذه العبارة الخسيسة والمنفرة تجد من يتقبلها في

مجتمعنا برحابة صدر اكبر من الجواب الصريح وانما الفظ التالي: «نحن لا نحب الاولاد» . ان عبارة : « لا نستطيع ان نربي اكثر من طفلين» تعني «اننا لا نحب الا اولاد الطبقة الوسطى النظيفين والمنضبطين، والذين يترددون على المدارس الراقية ومن ثم يمتنهون المهن الحرة». وينفق الاطفال مجمل المال المكرس لهم، مهما كانت نسبة الدخل المخصصة لهم. والوالد ـ او الوالدة ـ المعقم هو خير نموذج للحيوان المدجن. وتحمل الثقافة الذكورية الرجال على التمرد على هذا التدجين، مع ان تجربتهم به اوهى بكثير من تجربة البنات اللواتي تعدهن تربيتهن لهذا المصير . ويتداخل في عقل المراهق تخيله للشريكة المثالية مع الذكرى التي احتفظ بها عن اسرته بالذات : «ان الزواج هو الشيء الوحيد الذي يخيفني. اذ يصعب عليّ أن اتخيل نفسي وقد اصبح لي بيت وزوجة. فانا احب ان اشعر بنفسي حرا، بلا كدر او هموم. فعندما لا يكون للشاب صديقة، فانه يخرج ويلهو بحرية مع رفاقه. ان الفتاة لا تترك لك ان تفعل ما تشاء. وكلما خرجت معها اكثر، تورطت في شركها اكثر. اني اخاف من الخطوبة. فهي تعني، بالنسبة الي، النهاية. فلن اجد الشجاعة الكافية لفسخ خطوبتي، ففي ذلك ما يسيء الى الفتاة. وعديدون هم الشباب الذين يتزوجون في سن مبكرة للغاية ... سوف اقول على الفور للفتاة التي سأعاشرها في المرة القادمة اني ارغب في ان يكون لي يوم حر كل اسبوع كيما اخرج مع رفاقي. فما ان يهجر الشاب رفاقه جميعا حتى يصبح في قبضة فتاته. فاذا هو كجرذ وقع في فخ» (٥) .

«السقوط في قبضة الفتاة»، او «الوقوع كجرذ في الفخ»! العلاقات العاطفية هي اذن قيود مكبلة. «أن معظم الشباب يختارون افضل وظيفة تتوفر لهم، ويعملون بكد كيما يفوزوا

---

(٥) شارل هامبلت وجين ديفرسون : الجيل س، لندن ١٩٦٤، ص ٤٣ .

بترقية، وما ان يغدو راتبهم معقولا حتى يرتبطوا بفتاة ثم يتزوجون منها. عند ذاك يتعين عليهم شراء سيارة وبيت، فيجدون انفسهم وقد قيدوا مدى الحياة. وفي الخامسة والثلاثين لا يعودون يتجرؤون على تغيير عملهم خوفا من عدم الاستقرار. فيحكم عليهم بأن يعيشوا في حسرة دائمة على ما كانوا يرغبون في تحقيقه ولم يحققوه» (٦) .

تكشف خيبة امل هؤلاء المراهقين عن وظيفة الاسرة الابوية في المجتمع الرأسمالي. فهي تجمد الشغيل، وتجعله عرضة للانجراح باستمرار، فاذا به يبحث عن الاستقرار قبل كل شيء. انها تفرض عليه مستوى معينا من الاستهلاك فيصبح عبده. ويتحدد سلوكه على ضوء التزاماته ازاء اسرته ورب عمله، وليس على اساس المصلحة الجماعية. لم يجر حتى الان فيما اعتقد تحليل لاثر ضغوط الزوجات على المضربين عن العمل. فكثيرا ما يندفع العامل المضرب الى التطرف نتيجة همومه العائلية. واذا كان رب العمل في موقع قوة، دفعت هذه الهموم عينها بالشغيل الى استئناف العمل. ان النساء يكرهن رؤية ازواجهن بلا عمل. فقد ثارت ثورة نساء عمال المناجم عندما ارغم ازواجهن على البطالة بسبب اغلاق الآبار، ورفضن الحل الذي توصلت اليه نقاباتهم والقاضي بقبضهم رواتبهم بدون عمل. والواقع انهن ما كن راغبات في رؤية ازواجهن قاعدين طيلة ساعات النهار في البيت، او متلهين مع رفاقهم في اعمال طيش، وتنهض الفتيات مبكرا بهذه الوظيفة المناهضة للحياة الاجتماعية بمنعهن صديقهن من الالتحاق برفاقه مقابل منحه بعض المسرات الجنسية. ولا ينبغي ان نعزو ذلك الى الانانية الانثوية فحسب. فالجماعات الذكورية، المتسمة بالتضامن، لا تقبل الفتاة في صفوفها الا في ظروف خاصة ولوظيفة محددة

---

(٦) المصدر نفسه ، ص ٤٨ — ٤٩ .

بصرامة. فهي لا تجيد اللعب بالنبال، ولا تشرب البيرة، ولا تركل كرة القدم. ولا تخشى الفتاة ان يلاحق صديقها الفتيات بصحبة رفاقه. بل ما تخشاه هو ان يجد في هذه النشاطات الذكورية متعة لا يجدها الى جانبها، وان يعلق عليها اهمية لا يعلقها عليها هي بالذات. انها لا تخشى ان يخونها جسديا، وانما تتكدر لانها لا توحي لصديقها الا بمحض اهتمام جنسي. وباختصار، انها تغار من الصداقة التي تربط بين الرجال. ففي حين يتعين على كل زوجة ان تكتفي ببيتها وبحياتها العائلية، لا ينظر الزوج الى هذا البيت الا على انه ملجأ يلوذ بحماه كمحارب مرهق، ويطلق فيه العنان لسخطه وغضبه دون ان يبذل اي جهد لنيل الرضى والاعجاب، ويلعق جراحه بانتظار ان تسنح له الفرصة لخوض مغامرة جديدة، وقد اكل وشرب واغتسل ولبس الثياب النظيفة .

من نافل القول ان كل امراة ترغب في التحرر للتمتع بالحياة وللتعبير عن طاقتها الخلاقة الخاصة ترفض مثل هذا الدور. غير ان الزواج يقوم على علاقة بنوية تأخذ المراة فيها اسم زوجها، وتسجل مداخيلها في بيان ضرائبه هو . انها تسكن بيتا هو ملك للزوج. وتعتبر هي بالذات ملكا له في نظر الاخرين، كما تشهد على ذلك الدبلة التي لا تفارق اصبعها. ولا تبدل التغييرات الجزئية شيئا في جوهر هذا الوضع . فحتى لو وافق الزوج على وضع الدبلة بدوره ، وعلى تسجيل رصيده في المصرف باسمه واسم زوجته معا، وعلى تسجيل البيت ايضا باسميهما، فان هذه الامور كلها لا تلبي حاجات المراة الشخصية، ولا تحول دون ان يشف الطابع الجوهري لمؤسسة الزواج عن نفسه رغم ذلك. وكون هذه التنازلات لا تشكل حقوقا تستطيع المراة المطالبة بها امر يحثها على العرفان بالجميل ، وبالتالي على المزيد من العبودية. لكن هل من حل آخر نستطيع الاخذ به اذا ما كن نرغب في ان تنجب النساء، اي في ان

تستمر البشرية ؟

بيد ان استمرار البشرية اولا لم يعد مرهونا بمسألة الانجاب وانما بتحديد النسل. فما يهدد البشرية هو الفناء التام بعد جيل او اثنين وليس قلة الانسال. لذلك تعفى المراة الراغبة في نمط حياة آخر من تسديد ضريبة الطبيعة. ان الاسر التي تكتفي بتأمين اعادة انتاجها فحسب، بانجابها طفلين فقط، لا تؤمن الوسط الاصح والانسب لتفتح الاطفال وازدهارهم لان الامراض العصابية الناجمة عن عقدة اوديب تتفاقم عندما تتغلب العلاقات البنوية على مشكلة التكيف مع الاشقاء والشقيقات. وليس هنالك ما يلزم النساء فعلا بالانجاب. والمراة التي انجبت طفلا لا تلزم، بصورة آلية، بالاشراف شخصيا على تربيته . ان معظم المجتمعات تؤيد مبدا نقل هذه المسؤولية الى شخص اخر عندما تمارس الام مهام رسمية. ولم يتمخض اللجوء الى مرضعات ومربيات عن خلق عرق من السيكوباتيين، اي من الاشخاص المعانين من اضطرابات في عقولهم وشخصياتهم. ان الطفل يحتاج الى الرعاية والعناية، هذا صحيح. لكن ليس من الضرورة ان يتولى شخص واحد العناية به باستمرار . فالاولاد يضطربون ويختل توازنهم من جراء تغيير المكان اكثر مما يكابدون من تغيير الاشخاص، كما انهم يعانون من سوء العلاقات التي تجمع بين الاشخاص الراشدين الذين يحيطون بهم اكثر مما يعانون من انعدام الاتصالات العائلية المستمرة. وليس المطلوب طبعا احلال منظمة بيروقراطية مكان الاهل، وتكليف مؤسسات مختصة بمهمة تنشئة الاولاد، وانما انشاء اسرة عضوية يستطيع فيها مجتمع الاطفال الانصهار بمجتمع الراشدين، واقامة علاقات مودة واهتمام شخصي معهم .

لو نظرت النساء الى الامومة لا على انها واجب وقدر لا مفر لهن منهما، وانما على انها امتياز يستحق ان تبذل الجهود من اجله، ولو عمل الرجل بحرية كيما يفوز بحقه في ان تكون

له اسرة، لاتيحت للاولاد فرصة النمو بحرية دون ان يرزحوا تحت عبء الامتنان الدائم من اجل حياة اعطيت اياهم دون استشارتهم. ان النساء اللواتي يمتهن عملا له اهميته يمتنعن عادة عن الانجاب لان تربية الاولاد تعتبر بحد ذاتها عملا يستغرق كامل اوقات المراة. ويمكن اعتبارهن، من الناحية الوراثية، نساء عواقر. لكن لو كان بالامكان، في اطار تنظيم جماعي، انجاب طفل دون تكريس الام مجمل وقتها له ، اي مع حفاظها على حرية العمل في حقول ومجالات اخرى، لما تخلفت النساء اللواتي يقمن بنشاطات ثقافية او مهنية عن الانجاب. لقد فكرت شخصيا في امكانية انجاب طفل بدون ان يعاني من عصابي، ومن مشكلاتي الزوجية، ومن استعبادي المنزلي . وقد خطر ببالي مشروع تحول الى نوع من الحلم. فلا يجوز في نظري ان يترعرع اي طفل في اجواء رهاب الاحتجاز التي يخلقها المسكن المديني حيث لا تتوفر له اي امكانية لتصريف طاقته البدنية. غير ان عملي يضطرني الى الاقامة في المدينة. ولا اعتقد ايضا ان من مصلحة الطفل ان ينمو في صحبة امه العازبة وحدها، امه المرغمة على الكفاح والكد لتغطية نفقاتهما. وقد تذكرت الاولاد الذين عرفتهم في مقاطعة كالابريا في ايطاليا، وفكرت انه في وسعي ان اشتري، بالمشاركة مع اصدقاء يواجهون المشكلات عينها، مزرعة في ايطاليا نقيم فيها كلما سنحت لنا الفرصة، وننجب اطفالنا فيها. ويستطيع آباء الاطفال والاصدقاء ان يأتوا الى المزرعة متى شاؤوا، طلبا للراحة، او للتمتع بصحبة الاولاد، او للعمل اذا ما اقتضى الامر. ويمكن ان نعهد الى اسرة من الفلاحين المحليين بالاعتناء بالبيت والحديقة. وسوف يتمتع الاطفال بحيز واسع، يستكشفونه ويفرضون سيطرتهم عليه، ونكتفي نحن بنقل معارفنا اليدوية او الفكرية اليهم . ولن تكون هذه المزرعة فردوسا ارضيا وانما مشاعة لها حظها في البقاء. ولن يحتاج الطفل حتى الى معرفة هوية امه الحقيقية، كما ان

الام لن تلزم باقامة علاقة حب وود مع ابنها وحده، وانما مع الاطفال الآخرين ايضا. واذا ما اعرب ابني بعد ذلك عن رغبته في ان يعيش في لندن او في نيويورك، او في الذهاب الى معهد دراسي من النمط التقليدي، كان له ما يشاء.

ان كل حل بديل عن الاسرة النووية لا بد ان يكون مبتكرا: وهذا ما يضفي عليه طابعا سلبيا بالنسبة الى مجتمعنا. فالاولاد الذين يترعرعون خارج اطار هذه الاسرة سيكونون مختلفين عن الاخرين في عصر يتسم بالتماثل واحادية النمط. كما ستنطرح مشكلات تتعلق بالشرعية والقومية. لقد خلق مجتمعنا اسطورة الاسرة المفككة الاواصر وحملها مسؤولية جميع الآفات والادواء. غير انني استطيع ان اشهد، بحكم تجربتي الشخصية، ان الابقاء على الاسرة بالرغم من عدم التفاهم بين الزوجين يتولد عنه توتر اعظم بعد. والحال ان البنية العضوية العفوية التي اقترحها بديلا عن الاسرة النووية تتميز على الاقل بعدم اعتمادها على المناكب الضعيفة لشخصين حائرين وبائسين يسعيان جاهدين لتحقيق مثل اعلى متناقض. وهذا المجتمع الصغير حقيق بخلق قيمه ومعاييره الخاصة، وقادر على اقامة علاقات مع العالم الخارجي. لكن ليس من المستبعد في هذه ان يعجز الاطفال الذين انشئوا على هذا النحو عن الاندماج بمجتمعنا فيتحولوا من ثم الى هامشيين او الى معانين من انفصام في الشخصية. بيد انهم لن يختلفوا في ذلك عن اولاد اخرين عرفتهم ... ان مفهوم الاندماج بمجتمع ينظر اليه على انه كل متجانس هو بحد ذاته مفهوم زائف. فهنالك من الشاذين وغريبي الاطوار ممن شقوا طريقهم في الحياة ما يكفي لحملنا على الاعتقاد بأن هؤلاء الاطفال لن يشعروا بانهم معزولون ومنفردون اكثر من اي اقلية داخل غالبية وهمية. وقد يذهب بعض الساخرين الى القول ان اول شيء قد يقدم عليه مثل هؤلاء الاطفال هو تأسيس اسرة «طبيعية» . وهذا ما قد يحصل فعلا . لكن ما دام عدم اليقين

امرا واردا، فمن الافضل الاعتماد على التجربة. فانا شخصيا لن استطيع، ماديا، ان انجب طفلا على غير هذا النحو، اللهم الا اذا وجدت نفسي حاملا ضد ارادتي.

قد يقول بعضهم ان مجتمع الاسر العضوية المسيرة ذاتيا هو بمثابة عودة الى الفوضى. لكن الفوضى الاصيلة اخصب من فوضى الانظمة المتطاحنة التي يدمر بعضها بعضها الاخر. واليوم وبعد ان حلت البيروقراطية مكان الوراثة بحيث اصبحت الثروة الوحيدة هي القدرة على ربح المال وعلى الحراك الاجتماعي، بات من الحماقة بمكان ان تظل الاسرة ابوية النسب. ومن الحماقة ايضا بمكان، في زمن حققت فيه كثافة السكان معدلا لم تعرفه من قبل، ان يصر الناس على ان يعيشوا، كما في الماضي، في دار تحيط بها حديقة. ومن الحماقة بمكان ان يتعهد الزوجان بالعيش معا الى اخر ايامهما في ظل شيوع الطلاق. ومن الحماقة بمكان ان نتكلم عن الحالة السوية العائلية مع ان البلبلة بلغت حدا صار معه الاولاد، الذين قد لا تفصل بينهم الا اعوام عشرة، يختلفون في التربية التي يتلقونها اختلافا جذريا. فهل ينبغي ان يرضعوا ثدي امهم ام لا ؟ هل ينبغي معاقبتهم او مكافأتهم ؟ ومن الحماقة بمكان ان ينمو الاطفال في وسط معاد لهم. ومن الحماقة بمكان ايضا ان ينقاد الاطفال الى الخوف من كل انسان راشد غريب عن اسرتهم. ومهما اختلفت الاوصاف التي يطلقها الراشدون بكثير من العجرفة والتعالي على الشباب، من خنافس، الى راقصي الروك، الى هيبيين، او ماويين، او فاشيين، فان التهمة التي يوجهها اليهم الشباب هي بالمقابل واحدة : تمويه ضياعهم هم انفسهم تحت قناع من سلطة مغتصبة.

ان النزعة الى التخريب، والمخدرات، والاختلالات بشتى انواعها هي الفوضى الحقيقية، والجهود التي تبذلها السلطات القائمة للتصدي لها هي اكثر فوضوية بعد. ان الجانحين الشباب يتحدون النظام القائم، وانصار هذا النظام لم يهتدوا بعد الى

الرد الفعال والمناسب على هذا التحدي. والوسيلة الوحيدة التي تلجأ اليهـا الدولة الابوية للتغلب على ابنائها المتمردين هي الانهيال عليهم بالهراوات او بالرصاص في شوارع المدن. هذا أن لم تدخر لهم الموت في الحرب، الشكل الاخير للفوضى .

يعرف فلهلم رايش (٧) الاسرة الاستبدادية والقهرية بأنهـا، في آن واحد، شرط الدولة والمجتمع الاستبداديين وجـزء لا يتجزأ منهما. والدولة، اسوة بالاسرة، تنكر ذاتها بذاتها لشـدة تشوشها وتخلخلها. فتارة تتحلى بالتسامح وطورا تلجأ الى فرض سلطتها باجراءات قمعية. وتكون النتيجة الفوضـى الاجتماعية والسياسية، و«الغاب الجنسي». والطابع الحلمي لمجتمـع اطفالي سيكون ضمانة لهم ضد فوضى الولاءات المتناقضة والمذاهـب التربوية المتناقضة والاحكام المسبقة المتناقضة. ولئن كنا نرغـب فعلا في استعادة الصفاء وبهجة العيش، فعلينا ان نتعلـم كيـف نصغي الى اطفالنا، لا ان نفرض عليهم تناقضاتنا والتواءاتنا فـي الاطـار الجنوني لعلاقاتنا العائلية .

---

(٧) فلهلم رايش : الثورة الجنسية، نيويورك ١٩٦٩، ص ٧١ .

الجزء الرابـــع

الكراهية

الفصل الرابع والعشرون

الامـــان

ان الامان شيء لا وجود له، وهو ما وجد اصلا يوما. ومع ذلك فاننا نتكلم عنه وكأنه حق من حقوقنا. بل اننا نؤكد جازمين ان انعدام الامان هو اساس الامراض العصابية والذهانية . ومع ان الامان ليس من طبيعة الاشياء، فاننا نبتدع الاستراتيجيات لاحباط خطط القدر في صورة تأمين او ضمان اجتماعي. ان لدينا مكاتب للامان. بيد اننا نعلم مع ذلك ان الكون يعج بقوى الدمار التي لا يسعنا التعويض عما تنزله بنا من اضرار. ان الراتب التقاعدي، او الريع الثابت، ليس في منأى عن التقلبات النقدية. والمال لا يعوض عن العاهة الجسدية، غير ان قوانيننا تقضي مع ذلك بالتعويض المالي. اننا نعي، بصورة غامضة، ان الاحتياطات التي نتخذها لندرأ عن انفسنا شر المصائب غير المتوقعة، لا تزيد الا من استعدادنا للتأذي. فرصيدنا المصرفي، وبيتنا، وتوظيفاتنا، هي جميعها عرضة لضربات القدر. وبقدر ما نجمع من الخيرات، تصبح فرص الخسارة اكبر. وبقدر ما توفر الدولة للفرد الحماية

ضد المرض والعوز، يتعزز حقها في التضحية به باسم المصلحة المشتركة، وفي هدم بيته وقتل حيواناته ووضع اولاده في المشافي او في مراكز الاصلاح .

ان المكان الوحيد الذي قد يشعر فيه الكائن البشري انه في امان هو، اغلب الظن، السجن، وهذا بشرط الا يكون مهددا بافراج قريب. اذ لا يمكن ان يكون هناك من امان ما لم يكن كل شيء منظما ومنضبطا سلفا، بحيث لا يقع شيء مما ليس في الحسبان. ان الامان هو باختصار نقيض الحياة. والكائنات البشرية اكثر استعدادا لمواجهة الكوارث والمحن منها لتحمل رتابة الامان، لكن ما دام هذا الاخير يعتبر، من الناحية الاجتماعية، القيمة الاسمى، فليس للبشر من خيار اخر غيره. وهنالك اجماع على القول ان البريطانيين قد تصرفوا على نحو مثالي ابان الحرب العالمية الثانية، وانهم كانوا اكثر مرحا وحيوية واستعدادا لخدمة الاخرين عندما كانت تنهال عليهم القنابل مما هم عليه اليوم حيث لا يبدون اي اهتمام، لا من قريب ولا من بعيد، بالمساكين الذين يموتون جوعا في افريقيا ولا يستنكرون سياسة بلادهم في نيجيريا .

والمفارقة في وهم القرن العشرين هذا، اعني الامان، كونه قد ابتدع في زمن جثمت فيه على صدر العالم مخاطر وتهديدات لم يسبق لها من مثيل. فقبل ان يدخل العالم العصر النووي ما كان يخشى حربا قادرة على افناء البشرية باسرها. ويبدو انه حكم على الانسان كلما تغلب على خطر، بأن يواجه آخر جديدا. وقد اصبحت الامراض اكثر تعقيدا. وحرم اتفاق دولي استخدام الغازات السامة. فاذا بالدول الكبرى تسارع الى صنع الاسلحة الجرثومية. ان انعدام الامان يظل عاملا ثابتا في حياتنا، على الرغم من الجهود الدائبة التي نبذلها لاستئصال شأفته .

هنالك اجماع على الاعتقاد بأن النساء بحاجة خاصة الى

امان يوفره لهن الزوج والبيت المريح. وعن اللواتي يرفضن الزواج يقال انهن يتحدين القدر، ويهيئن لانفسهن شيخوخة بائسة تكون الوحدة مصيرهن فيها، وانهن يعرضن انفسهن للفقر وللانحطاط. غير ان الازواج فانون، والنفقة التي تدفع للزوجة لا تكفي لتأمين عيشها، كما أن الاولاد يشبون عن الطوق ويرحلون وتصبح الامهات حموات. والمراة، امتزوجة كانت ام عازبة، لا تقلد الا وظائف ثانوية، واهنة الاجر. والزواج يحد من حقها في الملكية. فكيف يمكن لهذا الزواج ان يوفر لها الامان؟ ان الزوج ثروة قد تفقدها، هذا ان لم تسرق منها. والمراة المطلقة، وهي في الثلاثين ومعها طفلان، هي في وضع اسوا من المراة العازبة، سواء اكان لها اولاد ام لا. والقوانين التي تسهل الحصول على الطلاق تزيد في انعدام الاستقرار هذا تفاقما. لدى ابرام عقد الزواج توعد المراة بالامان والاستقرار: فالزواج ، من منظور الدين، سر يضمن اتحاد المراة والرجل لا في هذه الدنيا فحسب، وانما في الآخرة ايضا : فهما يؤلفان جسداً واحداً. وبالنسبة الى المراة، التي ترى في الزواج عقدا لمدى الحياة يضمن لها حماية الرجل، فان شهادة الزواج تبدو في نظرها وثيقة ناقصة وغير مرضية. فمن المفروض ان تشير هذه الوثيقة الى الضمانات والتعويضات كافة، اسوة بنصوص العقود الاخرى. فليس ثمة قيمة للسر الديني في عصر الالحاد. الذلك خير للطرفين في الزواج ان يكون الطابع التعاقدي لالتزامهما اكثر وضوحا .

لكن حتى ولو قام الزواج على عقد يلحظ الضمانات والتعويضات، فانه لن يضمن رغم ذلك المراة استقرارا عاطفيا. ان قيمته الوحيدة ستكمن في هذه الحال في كشفه عن غياب كل ضمانة، مما سيوجب على المراة ان تحاذر من مغبة الاستسلام لوضع ليس بحد ذاته ثابتا ودائما. فربة البيت تؤدي عملا غير ماجور مقابل ضمانة استخدامها بصورة دائمة

مـن قبل زوجها. انها اشبه ما تكون بالمستخدم الذي يقبل باجر زهيد مقابل حصوله على عمل ثابت. لكن حتى ابخس المستخدمين اجرا عرضة للتسريح. والامر بالمثل بالنسبة الـى الزوجـات. انهـن لا يملكن مالا مدخرا، او جدارة مهنية كيما يحصلن عـلى عمل آخر، لذلك يتعين عليهن تحمل مذلة التسريح كاملـة. ان الامل الوحيد للمستخدم وللزوجة هو رفض الامان الكـاذب والتفاوض بصراحة وعلى المكشوف. وكيما تكون المراة قادرة على الاضطلاع بمثل هذا التفاوض لا بد ان تتمتع باستقرار مـن نوع آخر، بثقة معنوية بالنفس تسمح لها بأن ترى في عدم الاستقرار بالذات شرطا لحريتها .

اذا كان الاستقلال ضروريا، حتى في الزواج، فليس ثمـة مبرر للقبول بالاستعباد باسم أمان وهمي. ان هذا البحـث عـن الامان ينبع من جانب الضعف في الشخصية، من الخوف، وعدم الجدارة، والتعب، والقلق. والنساء اقل استعدادا من الرجـال بعـد للمبادرة والمجازفة. وغالبا ما يلجمن روح المبادرة لـدى ازواجهن، ويتخلين بالمناسبة عن جميع امكانات النجاح، والتجديد وتحقيق الاماني .

«الزواج، والبيت، والمراة، والاولاد، هذا ما لـه اهميته الكبرى في الحياة. فالرجل لا يحقق ذاته تماما الا فـي الـزواج. لكن على الرجل في رايي الا يقيد نفسه بالتزامات الزواج قبل ان يكون قد حقق رغباته في هذه الحياة» (١) . ذلك هو راي مايـك راسل، الصحفي في **ادنبره افنينغ نيوز**، في الزواج وفي الامـان في عام ١٩٦٤. فقد ادرك ان وظيفة المراة هي شد الرجـل الـى موقعه في الآلة التجاريـة. فحاجـات الاسرة، والاقسـاط المستحقة، وغيرها من تبعيات الزواج المالية، تساهم في تجميـد الشغيل في عمله وتعاكس رغبته في ان يصبح سيد عمله وفـي

(١) شارل هامبلت وجين ديفرسون : الجيل س ، ص ٤٨ ــ ٤٩ .

ان تكون له المبادرة السياسية. ان الرجل المتزوج، فيما لو توفر له اجر معقول ووضع مقبول لا يشكو من نواقص فادحة، مؤهل لان يصير مستخدما طيعا تستطيع الدولة والآلة التجارية ان تعتمدا عليه .

لو رفضت النساء القيام بالدور الذي حدد لهن، وسلمن بأن انعدام الامان يعني الحرية، فان وضعهن لن يتردى من جراء ذلك. فليس اقسى من الوحدة التي يشعر بها الانسان في حضور شخص يفترض فيه ان يكون انيسه وشريكه ومحاوره. والزوجة المحكوم عليها بان تتأمل زوجها وهو مشغول عنها بمطالعة صحيفته، او بأن تصغي الى صوت تنفسه في سريره في الليل، هي اكثر شعورا بالوحدة من العازبة التي تعيش في شقة مفروشة. ان وحدة العازبات تنجم عن أنانيتهن وعجزهن عن اقامة علاقات اجتماعية لا عن غياب الروابط الزوجية . والزواج اذا ما نظر اليه على انه مصدر للامان العاطفي حكم عليه بالفشل لان مثل هذا الامان لا ينبع الا من الفرد ذاته. ان الحب الاستحواذي، على ما له من اغراءات، يدمر التوازن الشخصي ويجعل ضحاياه اكثر عرضة للتأذي وللانجراح. ان النساء التعيسات اللواتي يحملن الرجال الذين هجروهن مسؤولية عذابهن ووحدتهن، يكررن يوميا الخطأ الذي ارتكبنه اساسا عندما تخلين عن ممارسة مسؤوليتهن. وحتى لو استمر زواجهن مدة اطول لما كن سيعرفن قدرا اكبر من السعادة. وحينما يغازل رجل امراة، فانه يبذل قصاراه كيما يربطها به. بل قد ينجب منها طفلا سعيا منه وراء تحطيم روحها الاستقلالية. وقد تبدو المراة التي تناضل كيما تظل كائنا بشريا غير مستلب وغير منقوص، وكيما تحب بكامل قواها لا من موقع ضعف، قد تبدو قاسية وجافة. وقد تنقاد، من جراء التكييف الذي اخضعت له في طفولتها ومراهقتها، الى الرضوخ والاستسلام، لكن عليها ان تتذكر ابدا أن الرجل الذي احبها قد احبها بسبب شخصيتها

الصلبة بالذات. وعليها ان تدافع عن هذه الشخصية بدلا من ان تتحول الى انسانة مشاكسة، عاجزة، سريعة الغضب، ومغلوبة على امرها. وربما لم تتقدم بي السن الى حد استطيع معه ان اجزم بأن المرأة المستقلة تجد على الدوام من يهيم بها، وانها لن تعرف الوحدة ما دام هنالك اشخاص يحتاجون الى بهجتها وقوتها. بيد ان تجربتي الشخصية تبيح لي ان اؤكد ان هذا هو واقع الامر فعلا. فالرجل الذي يشعر بانه حر في ان يرحل متى شاء، يعود على الدوام. والرجل الذي يكون حرا في التغيير يظل جذابا وجديرا بالاهتمام. ان الكراهية والشكاوى الخسيسة التي يكشف عنها عند الطلاق ما كان لها ان توجد اصلا لو لم يتحول الشريكان في الزواج الى توامين سياميين. فعندما يقصد رجل فراش امرأة بملء ارادته فانه سيكون اكثر ميلا الى احتضانها طيلة ساعات الليل من الرجل الذي يأوي الى هذا الفراش لانه ليس له فراش آخر ينام فيه .

الفصل الخامس والعشرون

التقزز الجنسي

لا يدور للنساء في خلد الى اي حد يكرههن الرجال. فما من مراهق شب في مدينة صناعية انكليزية الا وعاش ليالي السأم التي يجر فيها الشباب ضجرهم الى ان تدفع بهم اكثر حاجاتهم الجنسية بدائية الى محاولة «اصطياد» فتاة. وبقدر ما تكون فريستهم سهلة المنال، تستحق منهم قدرا اكبر من الازدراء، اذ انهم يحولون اليها الشعور بالاثم الذي يبتعثه في انفسهم هذا الاشباع الدنيء. وكثيرا نسمعهم يقولون بمرارة : «يكفي في معظم الاحيان ان تقترح على الفتاة مرافقتها الى موقف الاوتوبيس حتى تتسنى لك فرصة مضاجعتها على الطريق». وتستسلم الفتيات بسلبية ولامبالاة، اعتقادا منهن على الارجح بأن المتعة التي يمنحنها للفتى ستحثه على حمايتهن وابداء العطف نحوهن. ولا تحجم اكثر الفتيات طيشا وعجزا عن تقدير عواقب الامور عن ممارسة الفعل الجنسي وهن مستندات الى جدار او مستلقيات فوق سترة الشاب الجلدية. ومن نافل القول أن مثل هذه

المجامعة السريعة لا تتمخض عن اي صلة عاطفية. فما ان يشبع الشاب شهوته حتى ينقلب فظا، ويستعجل رحيل الفتاة كيما يذهب الى رفاقه ويروي لهم مغامرته. ففي اللحظة التي تلي القذف يتملك الرجل شعور بالاشمئزاز يجعله ميالا الى القتل. هذا على الاقل ما يدعيه بعضهم. ويعاني الشباب من ضيق مالي مستمر يحتم عليهم السكن مع ذويهم. وحتى اذا ما اقاموا علاقة متواصلة مع فتاة، اتسمت بالفظاظة، وقامت على روتين رتيب تتناوبه المشاجرات والتذمرات. وينفس المراهقون عن كبتهم بالتعارك مع اقرانهم. فتراهم يهاجمون خصومهم بغتة ، ولا يحجمون احيانا عن عضهم، ثم يلوذون بالفرار بالسرعة التي انقضوا فيها، وقبل ان تتاح للخصوم فرصة للرد.

ان الانثى الصعبة المنال هي وحدها التي تستأهل الاهتمام في نظر هؤلاء المراهقين الحاقدين. لكن هذا لا يعني ان نظرتهم اليها هي اكثر ايجابية. فالمراة المتمنعة على الرجل شريرة، اما المراة السهلة المنال فمومس. وقد حتم على الرجل ان يرتبط بواحدة من الاثنتين. لذلك ينظر الى الزواج نظرة قدرية مشؤومة. فقد حكم عليه، عاجلا او آجلا، بان يرتبط بالنظام، وبأن يمارس مهنة لا مستقبل لها كيما ينفق على امراة لم توفرها السنون وعلى اولاد صاخبين يضجون في بيت غير مريح وسط مدينة ليس فيها اغراءات. وشيئا فشيئا يتلاشى حب الكفاح ويزول. ويغدو الذهاب الى اقرب حانة، لتمضية ساعة او ساعتين فيها، هو مجال الهرب الوحيد، هرب مشروط طبعا بموافقة الزوجة. وبتعبير آخر، ان الجنسية مهلكة للرجل . انها عبودية حقيرة تفرضها عليه المراة بصورة لاشعورية .

ان الرجل الذي زودني بهذا الوصف لعلاقاته بالمراة كان على اقتناع تام بان الرجال يشعرون بالتقزز من الجنس حالما يشبعون رغبتهم . وكان على يقين راسخ من ان الفتور الذي يبدر عن الرجال بعد العلاقة الجنسية هو في الواقع

ضرب من التقزز . وليس اسهل بطبيعة الحال من ان نقول عنه انه يمثل حالة فريدة في نوعها . والواقع ان رد الفعل هذا يتولد عن فقدان الكرامة الناجم عن السأم والاكراهات. فعندما يملك الناس من المال ما يكفيهم ليحيطوا العلاقات الجنسية بقدر من البذخ ، فمن الممكن ان يتراجع هذا التقزز وان تخف وطأته. لكن ما دامت الجنسية عابرة ومقرونة بالبذاءة ، فان الموقف من الموضوع الجنسي سيتسم بالضرورة بالالتباس والتناقض . وقد يتسبب ، في الحالات القصوى ، في العنة لدى الزواج لانه لا يجوز ان تكون قيمة الزوجة منحطة .

بعد ان غادر الدريج كليفر (١) سجن سان - كوانتان عمد بصورة واعية ، متعمدة ، منتظمة ، الى اغتصاب النساء. « عديدون هم البيض الذين يوهمون انفسهم بان الرغبة التي يشعر بها الزنجي حيال الفتاة البيضاء ، تلك المخلوقة الرائعة التي تكاد ان تكون من مخلوقات الاحلام ، هي نوع من الانجذاب الجمالي البحت . لكن مثل هذا الكلام بعيد كل البعد عن الحقيقة ، بل انه على طرفي نقيض منها . فكثيرا ما تكون هذه الرغبة خبيثة الهوية - اي مخيفة ، حاقدة وعدوانية - ولو ادرك البيض ذلك لما تجرؤوا على ان يجدوا فيها مدعاة للتباهي والغرور » (٢) . ومن السخف ان نرى في الاغتصاب تعبيرا عن رغبة يستحيل كبحها ، او عن سلوك قهري متعين بانجذاب لا تمكن مقاومته . ان كل امرأة عاشت تجربة الاعتداء والاغتصاب وسألت المعتدي عليها عن اسباب سلوكه ، تدرك ولو ريب كم هو مضحك الجواب الذي مؤداه : « لاني احبك » او « لانك جميلة » . فالاغتصاب هو اعتداء اجرامي ، مقترن بالتقزز من الذات ، وناجم عن كراهية الآخرين . ولا يعي

---

(١) من زعماء الزنوج الاميركان . «م» .

(٢) الدريج كليفر : زنجي في الظل ..

الرجال عادة خطورة هذه الكراهيــة وتأثلها . وهي تجد مــا يغذيهــا ويؤجج جذوتهــا فــي المقالات الملهبة التي تنشرهــا المجلات الموجهــة الى ضعاف العقول المستحوذة عليهم مشكلاتهم الجنسية . اليكس اوستــن في مجلة **ميل** (٣) يوضح للقراء كيف يمكــن لهم ان يتعرفوا المراة الشهوانية ، فيعدد بعض العــادات البريئة كخلع الحذاء او الافراط في تناول الطعام . فهذه العادات المستهجنــة تكشف فــي رايه عــن شهوة خفية . اما بــاري جاميسون فهو يصف فــي **ستاغ** (٤) التكتيــك الــذي ينبغــي اتباعــه مع تلــك الشريكــة الطيعــة ، زوجــة الصديق الحميم . وتوحي مقــالات جاميسون بان العالم مليء بالنساء المنحــلات اللواتي يرحبن ، على الرغم من قناع الوقار الذي يتسترن وراءه، بــاي عرض جنسي ، حتى ولو كــان فظــا وجلفا . انهن نساء سهلات ، مستعدات ابدا للمضاجعــة . ولان بعض الرجــال راسخــو الاقتنــاع بصحة هذه الآراء الجزافية ، تراهم يهمسون بالعبارات البذيئة للنساء اللواتي يصادفونهن فــي الشــارع ويضحكون من مذلتهن او من خجلهن ويرون فيه دليلا قاطعا علــى الرغبة البهيمية التي يعزونهــا اليهــن . وغالبا ما يفوت النســاء المعنيات فهم معنى تلــك البذاءات اصلا . والرجال الذين ينظرون بوقاحــة وعجرفــة الى النســاء في الاتوبيس او في المترو وهــم يطقطقون العملة المعدنيــة في جيوبهم يعبرون عــن كراهية مماثلة للمــراة . واذا كــان بعض الرجال يعمدون الى ملاحقة النساء في الشوارع المكتظــة بالناس ، فلانهم يتوهمون ان كــل امــراة تخفي ، تحت ظاهر محتشم ، غلمة حيوانيــة ورغبة شاذة فــي الانحطاط والتذلل . وتسدي المقالات التي اشرت اليها النصائح التي من شأنهــا تجنيب الرجل خطر الوقوع فــي شراك هؤلاء

---

(٣) Male خاص بالرجال . «م» .

(٤) Stag : الخلاعــة . «م» .

الفاجرات . لكن مهما عظمت رغبة المرأة في دحض هذه الصورة الرائجة عن جنسها وعن العلاقات الجنسية ، فانه لا يسعها الا ان تعترف في صميمها بان هذا النمط من النساء يسعين وراء المهانة بشغف لا يقل حرارة عن ذلك الذي يدلل عليه الرجال في اذلالهن . لكن دوافهن لا تمت بصلة الى استيهامات مجلتي **ميل** و **ستاغ** ، كما ان عددهن اقل بكثير مما توحي به هذه المقالات .

ان الاعضاء الجنسية مقترنة بأعضاء الاخراج ، وما دامت هذه الوظائف تعتبر بحد ذاتها مقرفة وباعثة على الاشمئزاز، فان القذف بدوره سيظل موضع تقزز . فالقذف اللاارادي للسائل المنوي في اثناء النوم ويوصف بانه **تلوث** ليلي. والمادة بحد ذاتها لزجة ، ليفية ، طعمها اميل الى الحموضة ، ولونها ضارب الى البياض ، اي انها تشبه الى حد كبير المخاط وان كانت اكثر اثارة للقرف . وفي غياب العلاقات الجنسية قد لا يجد احد الشريكين غضاضة في التحرر من التقزز بتحميله الآخر مسؤولية سلوك جنسي قهري مخجل : « ان المراة هي التي اغرتني » . وعندما يشعر رجل بالخجل من ممارسة الاستمناء ويستخدم المراة كأداة لاشباع رغبته الجنسية ـ مع فارق بسيط وهو ان الاستمناء هنا لا يتم باليد بل عن طريق الاحتكاك بالعضو الانثوي وان القذف يتم داخل المهبل ـ فانه يحول شعوره بالخجل اليها . فهو يعتبرها اناء لافراغ سائله المنوي ، اي مبصقة يشيح بنظراته عنها وقد تملكه شعور بالقرف . وما لم يتقبل الرجل جنسيته ، وما دام يصر على اعتبار المراة موضوعا جنسيا ، فسيظل محكوما عليه بكرهها ، ولو لهنيهة من الزمن . وبقدر ما تكون هذه الكراهية هستيرية ، يأتي التعبير عنها اكثر امعانا في الغرابة والشذوذ . ولا حاجة بنا الى تعداد القيود التي كانت تفرض على دخول النساء الى الكنائس فيالقرون الوسطى .

لقد كان شكسبير على صواب عندما قال ان ما من شيء يعادل عنف الرغبة الجنسية سوى التقزز الذي يلي اشباعها. وقد طور الرومانسيون الفكرة الكامنة بذرتها في الادب الايروسي والقائلة ان المتعة الجنسية هي بالضرورة دون التي كان الخيال ، المتقد بنار الرغبة ، يمنّي النفس بها . وليس من قبيل المصادفة ان كانت قصص الحب العظمى هي التي يفرّق فيها الموت بين الحبيبين ، او يحول سبب من الاسباب دون وصالهما . ويكشف ميل الرومانسيين الى البطلات المحتضرات عن تقزز جنسي وعن عداء للمراة . ان تخيل امراة محتضرة هو بديل عن اقتراف جريمة قتل . ولقد كان العاشق البايروني ، الذي أضوته نار حب محرّم يسيم روحه خسفا وعذابا ، وتقطر له شفتاه مرارة ويغشّي عينيه الكابيتين بألق الحمى ، كان يستنكف عن متع الحياة الجنسية المعاشة ومباهجها كلها لصالح حلم مستحيل التحقيق . وما عبادة امراة يتعذر وصالها الا رفض للمراة الواقعية . واننا لنجد ، حتى عند شاعر معاصر مثل دايلان DYLAN فئتين من النساء : فتاة الاقطار الشمالية ، ذات العينين الحزينتين ، التي لم تغتصب ولن تغتصب ، والنساء الاخريات اللواتي هن بشر ، وضائعات وجديرات بالازدراء . وهذه الطبعة الفظة من الرومانسية هي الاساس الذي ينهض عليه تمييز يكاد ان يكون عاما في مجتمعنا ، وعلى الاخص في الاوساط التي لم تفلح فيها الاخلاق الجنسية الطليعية في وضع حد للتقزز او في تمويهه واخفائه بنعته بالانحراف العصابي . فكل امراة تضاجع رجلا للمرة الاولى تدرك انها تجازف بأن تلقى معاملة احتقارية . فقد يبتعد عنها او يتهرب منها بعد الجماع مباشرة بان يغط في النوم او بأن يتظاهر بذلك . كما انه قد يبدي جلافة او يمتنع عن الكلام في صباح اليوم التالي . وقد يرفض رؤيتها ثانية . والكلمات التي توصف بها النساء

اللواتي لديهن استعداد لاقامة علاقات جنسية مع الرجال الذين لهم رغبة فيهن لا تعبر الا عن القرف من جنسية لم يتم تصعيدها عن طريق جمالية التخيلات الرومانسية .

يدرك الرجال المثقفون ان هذا القرف ما هو الا اسقاط لشعورهم بالخجل ، ويرفضون بالتالي الاستسلام له . لكن بما انهم جبلوا على النظافة وعلى الحضارة كغيرهم وفق المنهج نفسه ، فانهم يكابدون رغما عنهم من نتائج هذا التكييف. ومن الصعب ان نقدر مدى تأصل هذا الشعور في مجتمع متحضر ينزع الناس فيه الى التستر على ميولهم وعواطفهم حرصا على كرامتهم . لكن ما من أحد ينكر في الواقع ان التخالط الجنسي يوحي له بالقرف . والحال انه اذا كانت الجنسية امرا مستحبا ، فليس من المفروض ان تصبح مقززة من جراء تواتر العلاقات الجنسية او تغيير الشريك. بيد ان هنالك من يزعم ان التخالط الجنسي ينتقص من قيمة الجنسية ، ويبتذلها ، ويسقط عنها الطابع الشخصي الخ . لكن الشعور بالاكتئاب الذي يعاني منه الاشخاص الذين تضطرهم ظروفهم بقدر او بآخر الى التخالط الجنسي ، كالموسيقيين المتجولين مثلا ، ما هو في الحقيقة الا تعبير عن قرف اساسي . فقليلون جدا هم الرجال الذين يستطيعون ان يتكلموا بلغة انسانية مع نساء قبلن بمضاجعتهم لهن بعد لقاء جمع بينهما مصادفة . وقد ذهلت اكثر من امراة لدى اكتشافها ان تفننها في شؤون الجنس ، وتفهمها الحدسي لمتطلبات شريكها ، اي بتعبير آخر سخاءها في العطاء ، لم يولد لدى عشيقها سوى النفور والرغبة في الابتعاد عنها. وكثيرا ما يكون سبب الاعتداءات الجنسية والقتل عجز الرجال عن التغلب على كبتهم امام المراة المحتشمة التي يتزوجون منها ، والحصر الذي يتولد عن الرغبة المكبوتة التي يستحيل الاستمرار في كبحها مع الايام. وافظع ما في

الدعارة ان العاهرة تجد نفسها مضطرة الى القيام بجميع الطقوس الشاذة الضرورية لتحقيق الاشباع الجنسي لدى الانسان المتحضر . وعديدات هن العاهرات اللواتي يعتبرن عملهن المشين هذا وظيفة اجتماعية . والتعيسات الحظ من بينهن، اي اللواتي يخنقن بجواربهن او يغتصبن بالزجاجات ، يذهبن ضحية الصنمية الجنسية والتقزز الجنسي لدى الرجال. ومع ذلك ، ما من امراة تستنكر هذا التصرف المهين لجنسها صارخة : « لكن ماذا فعلنا كيما نصبح موضع كراهية كهذه ؟ » . ذلك اننا بصدد كراهية حقيقية وصارخة.

ان حضارتنا تغذي قرفا خفيا من الاعضاء التناسلية الانثوية . وهذا القرف هو السبب في التهاون في معالجة التهابات الفرج وتخرشاته بصورة فعالة . وكثيرات من النساء يكافحن بعلاجات منزلية غير ذات نجع آلاما واوجاعا يعتقدن انها من اصل عصبي ، ويثابرن على هذا المنوال الى ان يستعصي مرضهن على الشفاء . وعزو الحكة الفرجية الى رغبة جنسية مسرفة يلعب دوره هو الآخر في عدم حمل الاضطرابات التناسلية الانثوية على محمل من الجد . وتقترن هذه الصورة الوهمية عن مهبل ملتهب لانه لا يعرف الارتواء بأفكار مسبقة تتعلق بشكل اشفار الفرج . ولا ينجو حتى الاطباء من تأثير هذه الافكار المسبقة . ففرج المراة الشابة الفاضلة يفترض فيه ان كون وردي اللون ، ناعم الملمس ، البظر فيه لا يكاد يكون ظاهرا ، وغشاء الاشفار املس رقيق . وعلى اساس هذا التصور الافتراضي لشكل الاشفار عالج اطباء اميركيون في مطلع القرن مئات الحالات من الاستمناء الطبيعي بطريقة استئصال البظر البربرية (٥) . والحال انه لم يخطر في بال

(٥) ل. ديكنسون ولودا بيم : المراة العزباء، لندن ١٩٣٤، ص ١٨ ، ٢٥٢، ٢٥٨، ٢٦٢ ، ٢٦٤ .

احـد ان يعالج عـادة الاستمناء عند الرجال مثل هذه المعالجـة الجذريـة . ولم يكـن ثمة مبرر لهذه العمليـة حتى من منظـور الاعتبارات الفيزيولوجيـة البحتة ، لان الاعصاب التي تتحكـم بحساسيـة البظـر تفعل فعلهـا ايضـا في المهبل والشرج . وحتى لو افترضنـا وجـود الاستمناء وسلمنـا بأن نتائجـه هي فعـلا علـى ذلك القدر من الخطورة والاذى بالنسبة الـى الجسم الانساني ، اي انـه يتسبب فعـلا في الجنون، وفقدان الشهيـة ، وارتفاع الضغط ، وفقـر الدم الخ ، كما كان يتصور الاطبـاء ، فـان مـا من شـيء يمنع تحوله الى المناطق الشهوية الاخرى في حال استئصال البظـر . لا شـيء يبرر اذن مثـل تلـك المعالجـة سوى كراهيـة فرج المراة . ولقـد كـان لممارسة التعقيـم عنـد بعض القبائل البدائية الوظيفـة القصاصيـة والدفاعيـة عينهـا .

هذا التحقير للعضـو الجنسي الانثوي يؤثر ايضا في نظـرة المراة الى ذاتهـا . فهي لا تنفـر من الحديث عـن اعضائها وعن وظيفتها فحسب ، بل تسعى ايضـا وراء اذلال نفسها بمخالطـة من هم « ادنى » منهم ، وبدعوتهـا الرجل الى اذلالها وتحقيرها. ويمكننـا ان نعزو عددا من اضطرابات العـادة الشهرية الى عجز المراة عـن تقبل انوثتهـا . وما الهوس الجنسي عند بعض النساء الا تعبيـر عـن حاجـة قهرية الى اذلال الذات بدافع من كراهية النفس .

وحتى فيمـا يتصل بالمظهـر الخارجي قـد تصل معانـاة النساء من عمليـة التكييف الـى حـد يندر معـه ان يخلعـن ثيابهـن بزهـو وخيلاء . وكثيرا ما تساورهن الحاجة الـى الاعتذار عن عدم تطابقهـن مع الموضوع التشكيلي للرغبـة الذكوريـة كمـا تحدده وسائل الاتصال الجماهيري . فأثداؤهن وارادفهـن اكبر او اصغـر حجمـا ممـا ينبغي ، والشعـر فـي اذرعهـن او سيقانهـن اكثر ممـا ينبغي ، وعضلاتهـن اقوى او

انحف مما ينبغي ،الخ . والمراة لا تطلب ان يغدق الرجل عليها عبارات الاعجاب والمديح ، وانما تبحث صادقة عن عذر لها . والمفروض في المديح الذي يكال لها ان يبعث الطمأنينة في نفسها عن طريق نفي وجود العيوب عندها ، لا عن طريق التأكيد على عدم اهمية هذه العيوب . فالمراة التي تتشكى من انخفاض ردفيها لا تود ان تسمع الرجل يقول لها : «لا ابالي بذلك ، فانا احبك رغم كل شيء» ، وانما تريده ان يطمئنها قائلا : « لك مؤخرة رائعة ، لكنك لا ترينها كما اراها انا » . ان النساء ذوات الشعر الاجعد يحاولن تمليسه، اما صاحبات الشعر الاملس فيتقصدن تجعيده . كما تلجأ النساء بصوة شبه عامة الى صبغات الشعر ، لتفتيح الشعر الغامق اللون او لاضفاء لون قاتم على الشعر الاشقر . وليس المقصود من ذلك التقيد بالموضة فحسب . فالنساء غير راضيات عن اجسادهن ، لذلك يرغبن في تحويلها وتغييرها وفق ارادتهن . وليس الغرض من التبرج ابراز الطبيعة النسوية، وانما اخفاؤها وتقنيعها خوفا من الواقع وقرفا منه . والهيمنة التي يمارسها النموذج المقولب هي العامل الاساسي في كراهية الرجل والمراة على حد سواء للجسم الانثوي . وما لم تنجح المراة الحقيقية ، الواقعية ، في طرد هذا الشبح من خيالها وخيال الرجل ، فسوف تظل تبحث عن الاعذار ، وسوف تظل تسعى الى التنكر والتقنع ، مع تقبلها في الوقت نفسه بأن يكون الرجل مكرشا واصلع ، وبان تكون رائحة فمه كريهة . فالرجل يطالب بكثير من الاعتداد ان تحبه المراة على طبيعته ، اي كما هو ، ويرفض ان يبذل اي جهد كيما يقاوم التشويه الجسماني الذي قد يلحق به والذي قد يجرح الحس الجمالي عند زوجته . وبالمقابل ، لا تكتفي المراة بان تكون رشيقة وفي صحة جيدة بل ترهق نفسها سعيا وراء مظهر خارجي لا يمكن ان تظفر به الا لقاء توتر مستمر واعتناف

متواصل للطبيعة . فهل نبالغ اذا ما طالبنا باعفاء النساء من وجوب النضال اليومي في سبيل تقديم جمال فوق انساني لمداعبات شريك قبيح قباحة دون انسانية ؟ يقال عن النساء انهن لا يعرفن الاشمئزاز او التقزز . لكن هذا الكلام ليس صحيحا مع الاسف . فمثل هذه المشاعر تراودهن فعلا ، ولكن ليس تجاه الرجل، وانما، اسوة به، تجاه انفسهن .

الفصل السادس والعشرون

الاهـانـات

ان التسميات المشينة التي تنعت بها النساء لأكثر من ان تحصى . واذا ما وضعنا النعوت البذيئة جانبا ، فان المراة اما دجاجة ، او اوزّة ، او مهرة ، أو ثرثارة ، أو افعى ، أو كلبة ، الخ ... بيد ان ابشع الاهانات التي توجه الى النساء لا تصدر عن الرجال ، وانما عن النساء انفسهن ، فالمراة السهلة تحرج من لسن على شاكلتها في مساوماتهن الجنسية. ولكن كثيرا ما تميل المراة التي تبدل شركاءها في الفعل الجنسي الى اهانة نفسها والانتقاص من قيمة ذاتها بسبب شعورها بالخجل . فنظرتها السلبية الى ذاتها تذلها اكثر من سلوكها بالذات . ان الجنسية القهرية هي النتيجة المباشرة للتربية القمعية . فالنساء يشعرن بانجذاب نحو الاباحية الجنسية ، لانها محرّمة ومثيرة ، لكن الثمن الذي يدفعنه

مقابل خروجهن عن الصراط المستقيم باهظ للغاية . انه جنون الجنس (١) كما يصفه ناتان شيف في كتابه **يوميات امرأة شهوانية** . فالمرأة تأبى تحمل مسؤولية سلوكها وتعزوه الى امرأة اخرى مزعومة تتصرف مكانها . وهي عاجزة عن اختيار شريك جنسي دون آخر لان ارادتها معلقة، وينتهي بها الامر الى القضاء على ذاتها . وتصف كريستين ، بطلة ناتان شيف ، الحياة الجنسية بانها قذرة ومنحطة ، وتعبر عن رغبتها الجامحة في التخلص منها كيما تغدو « نظيفة من جديد»(٢) . وظاهرة تحقير الذات هذه تبرز ايضا في الرسائل التي تتلقاها الصحف النسائية : « اشعر بحقارتي وبعاري ... كنت اقرف من نفسي الى حد لم اعد استطيع معه ان اتجاوب مع حب زوجي . وقد بات الامر افظع الآن . فقد سمعت بعضهم يتكلم عن الامراض الزهرية ، واستحوذ علي الخوف من ان اكون اصبت بالعدوى .. كنت ولا ازال احب زوجي ، لكن قبل ثلاثة اعوام اقدمت على مغامرة حقيرة ، وقد غفر لي سلوكي المهين ... وهأنذا اشعر بالرغبة حيال رجل جديد . أعلم انه من المستحيل محو الماضي ، لكني حفظت الدرس جيدا وندمت على ما حصل (٣) .. » . والصحفيات اللواتي يجبن عن هذه الرسائل لا يفكرن على الاطلاق بأن يسألن مرسلاتها لماذا كانت مغامرتهن حقيرة ، وما الذي يندمن عليه ، وأي درس استخلصن من تجربتهن . وما سبب ذلك الشعور العميق بالخزي الخ ... بل هن ينصحن كاتبات الرسائل بتحمل شعورهن بالذنب بشجاعة وعزيمة ؛ وبالتكفير عن خطيئتهن

(١) او النامفومانيا : Nymphomanie «م» .

(٢) ناتانا شيف : يوميات امراة شهوانية ، نيويورك ١٩٦١ .

(٣) رسالة الى ماري غرانت في « وومانز اون » ، ١٩ ، ٧ ، ١٩٦٩ ، والى ايفلين هوم في « المرأة » ١٥ ، ٣ ، ١٩٦٩ .

بالتضحيــة وانكــار الذات • وفي زاوية « الاعترافاتالحقيقية » توجه النساء الى انفسهــن اقسى الوان اللوم لانتهاكهن الدستور الجنسي ولو بصورة عرضية . « كــان ذلــك في منتهى القبــح بحيث لن يفارقني ابدا الشعــور بحقارتي وقذارتي . فانــا لست اهــلا للحياة . انــي اكــاد اموت خجلا . ان معرفتي بهذا الرجل كانت بنت الساعــة . فكيف تركت العنان لنفسي الــى هــذا الحــد ؟ » (٤) .

اما في نظر الطالبات فان اخطــر تهمة توجه للفتاة هي « الانفلات الجنسي » • وقــد كشفت المقابلات التي اجرتهــا غائيل غريــن مــع الطالبات ان هؤلاء الاخيــرات ، اذ يؤيديــن مبدأ قيــام علاقات جنسية بيــن الاشخاص الذيـــن يربــط الحب بينهم ، يعتبرن اي شكــل آخــر من العلاقــة الجنسيــة ضربا من « الانفلات الجنسي » ، وهو مرض وهمــي ، خطيـــر العواقب بحيث اعتبره البروفسور غراهام ب. بليــن السبب الاول في تردد الفتيــات عـــلى عيادات الطب النفساني (٥) . والطالبات اللواتي يفاخرن بنزعتهــن الى العلاقــة الجنسيـــة الاحاديــة لا يدعــن كلمة في قاموس الشتائم البذيئة الا وينهلن بهــا على الاخريــات ، واصفــات اياهــن تارة ببطاقــة تأشير للطلاب الجامعيين وطورا بحذاء اهترأ نعله . وهــذه الشتائـــم تكشف عــن اقتناعهــن بان الحياة الجنسيــة تتلف المراة وتلحــق بهــا اشــد الاذى (٦) . اما جيــم موران ، فهــو اذ يتهجم على المعيار المزدوج في كتابــه **لماذا ينبغي على الرجال الا يتزوجــوا** ، يصرح قائــلا : ثمة جانب ايجابي واحــد لاستخدام عبــــارة

---

(٤) «نيو رومانس»، ٣ تشريــن الثاني ١٩٦٩ ، «ترو ستوري» ، العدد ٥٦٥ ، كانــون الاول ١٩٦٩ .

(٥) غائيل غرين : «الجنس وطالبة المعهد » ، لندن ١٩٦٩ ، ص ١١١ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٤٥ ــ ٤٦ و ١١١ ــ ١١٣ .

«الانفلات الجنسي » ، وهو الكشف عن ان الشخص الذي يستخدمها طهراني معقد، ومهووس بعبادة البكارة» (٧) .

لقد كان موران يوجه كلامه الى الرجال في المقام الاول . والحال ان النساء هن المطالبات بالتأمل في اقواله . فاذا كن يرغبن في ان يحترمهن الرجال ، فعليهن باديء ذي بدء ان يحملن صورة افضل عن انفسهن . يتعين عليهن الا يقعن بسلبية في شراك الاغواء ، بعد ان حكمن بأنفسهن على انفسهن بالشلل الاخلاقي بوضعهن كامل ثقتهن في حسن نيات مضلِلهن . ويتعيّن عليهن كذلك الا يتسللن خلسة من سرير الى آخر ، مدعيات انهن يبحثن عبثا عن الحب، بل هن مدعوات لتبني تصرفاتهن ولتحمل تبعتها دون حياء كاذب ، او خجل ، او ابتزاز عاطفي . فما دامت النساء يعتبرن انفسهن موضوعا جنسيا ، فسوف يكابدن من احتقار الرجال لهن ، بل ــ وهذا افظع ــ من احتقارهن لانفسهن .

ان النساء الشابات والجميلات لا يفطنّ الى الاهانات التي تستهدف جنسهن ، لان هذه الاهانات لن تطالهن ما دمن شابات وجميلات . لكن المراة التي تبتعد عن النموذج الانثوي المقولب تتعرض لشتى انواع الاهانات والتمييز . فالتصورات الشعبية لا تعرف انصاف الحلول . فاذا كانت المراة بدينة قيل عنها انها مترهلة ، واذا كانت نحيلة وصفت بانها مثل مقبض المكنسة . وان لم تكن ساقاها جميلتين ، وصفتا بانهما مشوهتان . واذا كانت قوية البنية ، قيل عنها انها كالحصان وانها تفتقر الى الانوثة . اما اذا كانت مقتدرة وطموحة ، فهذا يعني انها لم تحظ بنصيبها من الاشباع العاطفي .

ان النموذج المقولب للموضوع الجنسي لا يعدو أن يكون

---

(٧) جيم موران : لماذا ينبغي على الرجال الا يتزوجوا ؟ ، لندن ١٩٦٩،ص٤٣.

واحـدة من جملة الافكـار المسبقـة التي تسدل قناعـا كاذبا على طبيعـة المراة الحقيقيـة . والنساء اللواتي يمتثلن له لا يقيـن انفسهـن شر التصورات والافتراضات المهينة . فثمة نمط مـن الرجال يتصورون ان النساء يسعيـن على الدوام وراء اثـارة رغبتهم ويأبيـن فـي الوقت نفسه تلبيتهـا ، من باب التعويض عـن قصورهـن النفسي . وقد عثرت في كتاب للتربيـة الجنسية ، أعيـد طبعه مؤخرا ، **الجنس السليم والشهواني** على التوكيدات التاليـة :

« ان الرجل ، خلافا لما تعتقـده المراة ، لا يحب ان يراهـا عاريـة تمامـا . فهـو لايعيش بالضرورة على هاجس مشاهدتها في السروال والصدارية . وهـو لا يفقـد صوابه عندما يعبث الهواء بتنورتهـا ويكشف عـن ثيابهـا الداخلية . كمـا انـه لا يرحب بالضرورة بمشهـد نهديهـا وقـد عريـا بسخاء ، ولا برؤيـة مؤخرتهـا وهي تهتـز بايقاع مثير » .

« مع ذلـك تتوهم الفتيات والنساء ان هذه المفاتن تسحر الرجال وتطيش بصوابهم . انهـن يتصورن انفسهـن وكأنهـن تجسيـد للجنسية ، ويعتقدن ان كل رجل بالتالـي يرغب فيهن لا محالة ، وانه لا غنـى له عنهـن كيمـا يسترد عقله وجسده الراحـة والطمأنينة . وفي معظم الاقطار نرى القوانيـن تدلـل المراة وتغنجهـا منذ عهـد مراهقتهـا ، فتحميهـا من كل نظـرة شهوانيـة ، ومن كل مداعبة لمؤخرتهـا لا ترغب فيها . وهكذا تترعرع المراة وتنمـو معهـا عقدة العذراء مريم ، وتتوهم بانه لا يجوز المساس بها مـا لم تسمح هي بذلك » (٨) .

لا نستغربن ان كان كاتب هذا الخليط العجيب من الرغبـة والنفـور يكيل المديح للثيـاب الداخلية المخفخفة ويعرب عـن غيظه من الهيمنـة الوهميـة للمراة فـي العلاقات الجنسيـة :

---

(٨) جيابير اوكلاي : « الجنس السليم والشهواني » ، لندن ١٩٦٣ ، ص ٥١ .

« سوف تكـون للمراة الغلبة على الدوام لانهـا **تعطي** فـي حيـن ان الرجل يأخذ . لذلك لن تكـن الا مشاعـر الازدراء للنزعـة الاستعرائيـة ، وستدعي انهـا لا تكتـرث بمفـاتـن الرجـل الجنسيـة ، وستنكـر عليه حق التأنق وارتداء ما يبرز جماله ، سواء اتعلق الامر بملابسه الداخليـة ام بثيابه الخارجية . فهـي تتوهم ان الجاذبيـة الجنسية ، والسحر ، والغموض ، والفتنـة امتيازات موقوفـة على جنسهـا » . وآخـر سهم يوجهـه المؤلف يريـده مميتـا فتاكـا : « اذا اعتنـى الرجل بجسمـه استطاع ان يحافظ عليه ويصونه من ضربات الزمن، بعكس المراة. فهـو يحافظ على رجولته وفعاليته بعـد أن تكون المراة قد فقدت كـل جاذبيـة جنسيـة » (٩) .

ان الحسناوات من بيـن النساء يعشن علـى هاجس الشيخوخة حتى وان كـن لا يزلن بعيدات عنهـا . لكـن حتـى النساء اللواتي لم يدعيـن في يـوم من الايام انهـن مـن ذوات الفتنة والاغراء ، لا يستطعـن الافلات من قبضة النماذج المقولبة التي تقضـي قضاء مبرمـا على تطلعاتهـن الـى التفـرد . فمـن الفتـاة المجدة والمجتهدة يقال انهـا عديمة الشخصيـة . اما ربة البيـت فتصور على الدوام في صورة امـراة غطت راسها ملاقط الشعر فـي حين ان هذه الراس نفسهـا قد خـوت مـن الافكـار . امراة لا تكف عـن اثارة المتاعب والمشاحنات ، ولا تجيـد الطبـخ ، ولا تحسن توزيع ميزانيتهـا ، ولا تعرف كيف تنتقي ثيابهـا او تقـود سيارتهـا . وكلمـا تقدمت في السن غدت صورتهـا ابشع : فجسمهـا بديـن ومترهل ، وثدياهـا ضخمتـان ومتدليان ، وشعرهـا مفروش على الدوام بالملاقط، وصوتهـا حاد ومزعج . واخيرا تتحول الـى الصورة الانثويـة الاكثر بغضا الى القلوب : صورة الحماة .

---

(٩) المصدر نفسه ، ص ٤٥ ـ ٤٦ ، ١١١ ـ ١١٣ .

عديدون هم مع الاسف الرجال الاذكياء الذيـن يتقصدون اغماض اعينهـم عـن الحقيقـة ليمتعوا انفسهم بلذة اهانـة النساء وترذيلهن . فيليب وايلي ، على سبيل المثال ، يذهب الى القول ان حصول المرأة على حق الاقتراع هـو الاصل في الفساد السياسي في اميركا : « لقـد تلازم الظهور الاول للموم MOM (يعني بهذه التسميـة الزوجـة ـ الام) في مكاتب الاقتراع مع تدفق امواج السفالة السياسية ، وجنوح الشباب، والغانغسترية، والاضرابات ، واستبداد الاحتكارات ، والانحطـاط الخلقي ، والفساد المدنـي ، والتهريب ، والاتجار بالنفوذ ، والسرقـة ، والجريمـة ، والشذوذ الجنسي ، والسكـر ، والضائقة المالية، والفوضـى ، والحرب » (١٠). ومن نافـل القـول ان الكاتـب هنـا يتفكه . لكـن فكاهاته ليست مجانيـة ، وانما هي غنيـة بالدلالات : فعداء الكاتب للمرأة يتجلى من خلالهـا بحدة مـا بعدهـا حـدة .

ان الشرط الاساسي للنضال ضـد اذلال المـرأة وتحقيرها هـو في امتناع المرأة عـن الاتيـان بالماء الى طاحـون اعدائها. فالنساء يعطيـن صورة كاريكاتوريـة عن ذواتهـن مـن خلال اختيارهـن لثيابهن ، وتصنعهـن ، وتظاهرهن بالطيش والتردد والضعف ، وبصبيانيـة مصطنعـة يضطررن الى التخلي عنها فيما بعـد . انهـن مدعوات الى الافـادة من الثناء الحقيقي الـذي بدأت الثقافـة المعاصرة تخصهـن به ، ولو بصورة متقطعـة . فعندمـا تغنت مجموعـة **فاميلي** بمـا أسمته **جيل النساء الثاني**:

آخر ما عليـك ان تفعله
ان تحاول استدراجهـا الى حبك
فلا حاجة بـك الى ذلـك

---

(١٠) فيليب وايلي : « جيل الافاعي » ، نيويورك ١٩٤٢، ص ١٨٧ ـ ١٨٨ .

فهــي تعــرف
متى كان الاوان مناسبـا
ان تاتي اليك بـلا قتـال
فهي ايضا ترغب في ذلك

فتحـت آفاقـا جديدة امـام الصورة التـي يكـن ان تكـون عـن المراة ، معتقة اياهـا من سجنهـا الذي هـو اطار مـن القلـوب والزهـور والمجوهرات .

الفصل السابع والعشرون

العذاب

ان القلق اخف وطأة على النفس من العذاب المزمن . فالمراة المتزوجة من رجل فظ ، او سكير ، او شاذ ، تحظى بتعاطف الآخرين ، وقد تجد في وضعها نوعا من المتعة المازوخية . ونحيب المراة المهجورة التي تبرر لجوءها الى المسكنات او الكحول او الانفلات الجنسي ، متذرعة بالجريمة الاجتماعية التي ذهبت ضحيتها ، لا يبعث على الشفقة بقدر ما يبعث عليها اليأس الرتيب للنساء اللواتي ليس لديهن شكاوي محددة يفصحن عنها . ويمكننا ان نقرأ هذا اليأس على القسمات المتعبة لوجه كل امراة تشيخ . فتجاعيد وجهها هي تجاعيد المرارة ، والهم المكبوت ، لا القلق الديناميكي . وحالما تدرك المراة انها موضع رقابة حتى تشعر بالذنب لانها استسلمت لحزنها ، فتتظاهر بهدوء لا تنعم به . ان الناس يدينون المراة المتزوجة التي تثور على وضعها او تتذمر من مصيرها . فافصاح المراة علنا عن السأم او عدم الرضى سلوك خسيس ، جاحد للجميل ، وغير اخلاقي . ولئن اتفق راي الناس على ان

الزواج مشروع صعب يقتضي تكيفا مستمرا مع الآخر ، فانهم يرفضون بالمقابل التسليم بأن المرأة هي المطالبة على الدوام بتقديم التنازلات .

« في اثناء النهار تسير الامور على ما يرام . فالعمل يلهيني كليا . لكن عند المساء ، اي من الثامنة حتى منتصف الليل ، اشعر وانا احيك الصوف وانظر الى التلفزيون وكأنني سجينة . ولان زوجي يعمل في حانة الحي ، فاني لا استطيع ان اخرج عند المساء الا بصحبة شقيقتي ، وبغية متابعة بعض الدروس المسائية . وان تشاهد المراة زوجها ساعة واحدة خلال اليوم ، فهذا غير كاف . ان الشجاعة تخونني لتحمل هذا النمط من الحياة لعشرة اعوام اخرى» .

ذلك هو نص رسالة وجهتها احدى البائسات الى الصحفية ايفلين هوم ونشرتها هذه الاخيرة في احد اعداد مجلة **«المرأة»**. وقد ردت ايفلين هوم على صاحبة الرسالة على النحو الآتي :

« واجهي الامور كما هي . فزوجك لن يتغير ، ولا حتى بعد عشر سنوات . فهو لا يرى في سلوكه ضرا . وكلما تذمرت اكثر سعى الى التهرب من عتابك بالمكوث لمدة اطول في حانته . لكن انت بالمقابل تستطيعين ان **تغيري نفسك** . ابدئي بتعداد خصائل زوجك الحميدة . ثم اجعلي الوقت الذي يمضيه معك ممتعا بحيث يشق عليه فراقك . واخيرا اعيدي تنظيم حياتك الاجتماعية . فاذا ما دعوت صديقاتك للطعام او للعب الورق مرتين في الاسبوع مثلا ، فانهن سيخففن من وحدتك وان كان عسيرا ان يقمن مقام زوجك . ثم قولي لنفسك ان غياب زوجك عن البيت كان سيكون اطول بكثير فيما لو كان بحارا ، مثلا. باختصار تكيفي مع وضعك . ومتى ما ادرك زوجك انك ما عدت تفتقدينه كثيرا ، فلربما حاول ان يمضي قدرا اكبر من اوقاته بصحبتك في البيت » .

بتعبير آخر ، ان الوظيفة الاساسية الوحيدة للمرأة

هي اسعاد زوجها . اما الزوج فلا شيء يحول دون ان تكون لديه اهتمامات اجلّ شأناً من اسعاد زوجته . وعندما يشعر الزوج بان تذمر زوجته بات يهدد بتنغيص حياته ، فانه يعد نفسه باصطحابها الى بعض السهرات ، وبتقديم الزهور او الشوكولاته لها ، وبتوجيه كلمة مديح لها من وقت الى آخر . فهذه امور لا تكلفه كثيرا في المطاف الاخير . لكن اذا كانت المراة قد غدت تعاني من الخمول ومن النزق وسرعة الغضب، وهي عوارض عصاب ربة البيت ، فان شعورها بالتعب سيجعلها ترفض الخروج مع زوجها ، كما انها ستعتبر هداياه الصغيرة ضربا من السخف .

ان السعي وراء الشجار لاتفه الامور ، والبدانة ،والشيخوخة المبكرة ، هي علائم هذا النوع من العذاب . وقد عمّت هذه الظواهر الى حد صارت معه لا تستوقف النظر . ويراود النساء شعور بأنهن اقترفن خطيئة لا تغتفر ، خطيئة « اهمال الذات» . ويحاولن تبرير نزقهن وتعبهن بالتذرع بسوء صحتهن ، فيشكين من امراض وهمية تتحول مع الاسف الى امراض فعلية : صداع ، آلام في الكليتين ، فقدان للشهية ، داء المفاصل . ان ربات البيوت اللواتي يعانين من ذلك، المرض المهني الذي تحدثت عنه بيتي فريدان ، أعني تشقق اليدين والساعدين ،هن اقل تعدادا بكثير من اللواتي لا يترجمن عن ضيقهن بأي تعبير خارجي (١) . وان عدد النساء اللواتي يلجأن الى الجراح بسبب اضطرابات بطنية ليس لها اي سبب عضوي لمثير للذهول فعلا . ولربما كانت صورة الوضع ستتضح لنا اكثر فيما لو كان في مستطاعنا ان نطلع على نتائج دراسات السوق التي تجريها الشركات المخصصة في بيع مستحضرات من شانها ، على ما يقال ، ان تزيد من

---

(١) بيتي فريدان : « الروحانية النسوية » ، نيويورك ١٩٦٣ ، ص ٢٠ – ٢١.

النشاط والحيويـة ، وان تجعل المرء يرى الحياة وردية . والمفروض في هذه المستحضرات انهـا لا تخلق ادمانـا لدى من يستهلكهـا. لكـن بمـا أن المسكنات تقدم على انهـا معالجـة نفسانيـة تسمح بمكافحـة الوهـن العصبي وسرعة الغضب والنزق وبتسكيـن الالـم فـي آن معـا ، فـان الطريقـة لا تخلو من خطورة . وليس هنالـك احصاءات حول عدد الاشخاص الذيـن يدمنون علـى الاسبيريـن او الكودئين، لان بيع هذيـن الدوائين غير مقيد (٢). ولم تشـن حتى الآن اي حملة اعلاميـة لتحذيـر النساء من مغبة استعمال الحوامض الصفصافية (٣) . ونجـد احيانـا في بريـد الصحف النسائيـة وصفـا نموذجيـا لاعراض العصاب الـذي تشكـو منه ربة البيت : « اشعـر على الدوام بالارهاق ، وبالتالي بالخمول والكسل . علمـا بان لدي الكثيـر من الاعمال مع اطفالي الخمسة الذيـن لا يذهب منهم الى المدرسـة سوى ثلاثة . فعندما استيقظ في الصباح اكون متعبة الى حد تخونني معه الجراة علـى مباشرة عملي . فانـا لا اقوم الا بمـا هـو ضروري . وقد لا البس صغيـر اولادي ثيابه الا عنـد المساء ، قبيل عودة زوجي الـى البيت ، خوفا من ان يغضب اذا شاهده في منامته . ويقـول زوجـي ساخرا اني اعاني من « داء التعب » . ولكـم احسد النساء اللواتي يستيقظـن في السادسة صباحا ، وينجـزن اعمالهن المنزليـة ، ويشعرن دومـا بالحيوية ! اني اود لو انجـز من الاعمال نصف مـا ينجزن . بيـد انـي اشعـر بارهاق شديد،

---

(٢) يفيـد تحقيق اجرته صحيفـة الاوبزرفر حول الادويـة وبقيـة المستحضرات التي تباع في الصيدليات ان من اساس ٥٠ مليـون ليرة استرلينيـة ثمـة ١٥ مليـون ليرة تنفق على المسكنات ، و٦ ملاييـن ليرة استرلينية علـى المقويات ، والفيتامينات ، و ٦،٥ مليـون ليـرة استرلينيـة علـى الدعايـة .

(٣) هي الحوامض الداخلـة في تركيب الاسبرو والاسبريـن وما شابـه. «م».

ولا اجـد لدي الرغبة في ان اجرّب . ان الافكار التي تنتابني في هذه الايـام مخيفـة حقا . والاطفال وحدهم هم الذيـن يحولون دون ان اضعهـا موضع التنفيذ ، ذلـك انني احبهم حتى ولو لـم اظهـر لهم هـذا الحب » .

ان في هـذا ما يلخص الوضع بمجمله . فهنالـك شعـور بالذنب لان الادب النسائي يعـج بالستخانو فيات (٤) العائليـات اللواتي يتباهيـن قائـلات : « انظـروا كيف احقق المستحيل ، ان الجميع يحبونني » . وهنالـك ايضا الشعور بعدم الكفاءة ، الذي تحول ، لدى التعبيـر عنه ، الى مرض ووهن ، والعلاقـة الغريبة مع زوج تنظـر اليه المراة وكأنه منتقـد دائم ، والحيرة بصـدد الحب الاموي ، وهي حيرة لا يبددهـا التأكيـد على وجودهـا . وكـان حريـا بتلـك المراة ان تستكمل عبارتهـا عن اولادهـا فتقول : انـي احبهم ولكني لا اشعـر بهذا الحب .

وقد جاء رد ايفلين هوم نموذجيا ، وما من طبيب سيشكرها عليه وان كـان من الصعب تصور رد آخـر : « انت على حق ،ولا بد انـك بحاجـة الى العنايـة الطبية . استشيري طبيبـك ، واشرحي له تعبك ، ووهنك ، وانحطاطك . ولسوف يساعدك. تشجعي . فعديدات هـن النساء اللواتي لا يقمـن بواجب خمسة اولاد وزوج ميال الى الانتقاد ويشعرن مع ذلك بانهن اكثـر منك ارهاقـا علمـا بأنهـن يعملن اقل منك بكثير . فانت لا تشكين من شيء ، كل مـا هنالـك انـك مريضة (!) . اهتمي بصحتك اولا فتزول متاعبك الاخرى من تلقاء ذاتهـا » (٥) .

كل شيء اذن متعلق بالطبيب . لكـن لنفرض ان صاحبة الرسالة قويـة كالثور او انهـا لا تشكـو من اي وهن عضوي ؟

---

(٤) نسبة الى العامل السوفياتي ستخانوف الذي ابتكـر طريقـة طوعيـة وبطوليـة لزيادة مردود العمل . «م» .

(٥) رسالة الى ايفليـن هوم ، في مجلة « المرأة » ، ٢٢ ـ ٣ ـ ١٩٦٩.

لنفرض ان الطبيب لن يصف لهـا سوى المنشطات والفيتامينات؟ او لنفرض ايضا انـه سيدعوهـا الى الكف عن التذمر وعـن الانتحاب ، والى القيـام بواجبهـا ،وهذا مـا قد يفعله فعـلا طبيب مرهق بالعمل ؟ وقـد يقترح عليهـا ايضـا ان تقوم برحلة استجمام ، في حيـن تكـون الاسرة عاجزة عـن تحمل نفقاتها . وقـد تقوم بمثل هذه الرحلـة فلا تحصـد منهـا سوى الخيبة، وعندئذ يشتد الخناق من حول عنقهـا أكثر . فليس هنالك مـن معجزات . وقد يلجأ الطبيب، نزولا عند رغبة مريضتـه ، الـى وصف الانفيتامينات (٦) لها . وتنشر الصحف الانكليزيـة بيـن الحيـن والآخـر تقاريـر غامضـة حول تعاظم استهلاك المنشطات والمهدئات من قبل ربات البيوت . «ان عدد النســاء البريطانيات المدمنات على تناول المسكنات قدر بمليـون تقريبا ، بحسـب المعلومـات التي وردت في احـد البرامج التلفزيونيـة . ان هذا الرقم الضخم مقلق ولا شك لمن لم يتعـودوا علـى تنـاول هذه المسكنات ، لكنه بالمقابل مرعب بالنسبة الى اللواتي اصبحن منـا اسيرات هذه الانواع من الادويـة المخدرة . فلقد ادمنت شخصيا، طيلة عـام بأكمله ، على نـوع من الحبوب المهدئة والمناهضـة للوهـن والقلق . وكنت قد بدأت بتناولهـا يوم ذهبت الى طبيـب استشيـره بصدد مشكلة زوجيـة » .

لقد نشرت هذه الرسالة فـي فوروم لتحذيـر النساء مـن مغبة اللجوء الى الادويـة لمعالجـة عوارض حالة سيكولوجيـة لا تطاق . « عندمـا نفدت ذخيرتي الجديدة من الاقراص عقـدت العزم على عدم تناولهـا ثانية . وفي اليوم الاول شعـرت بتوتر عصبي ، لكـن بعـد كأسين من الكحول تحسنت اوضاعي. الا ان الوضع فـي اليوم التالـي كـان اصعب. فقد ازدادت سرعـة غضبي حيـال زوجـي واولادي الـى حد لا يطاق . واضطـرب

---

(٦) الادويـة المنبهـة . «م» .

خفقـان قلبي ، وراح العرق يتصبب من راحتيّ . واضطررت مع الايـام الى التسليم بأنـي ادمنت على المسكنات وبانه لا مفر لـي من المواظبة عليهـا » .

قصدت صاحبة هذه الرسالـة طبيبا آخـر كيمـا يزيـل تسممهـا ، بيـد انه اكتفى بنصحهـا بتناول نـوع اخر مـن الحبوب . ومهمـا يكـن من أمر ، فـان المشكلـة الجديدة التي غطست فيهـا هذه المراة كانت اكثر الحاحـا واقل تعقيدا مـن الوضع الصعب الذي كـان قـد آل اليه زواجهـا . ولم يكن ثمة مخرج لقضيتهـا : « وجدت نفسي مرغمـة على الاستمرار في تناول المهدئات كيـلا اشغـل رأسـي بهمومي الجديدة . ولم يعد فـي مقدوري اليـوم ان استغني عـن اقراصي ، تمامـا كمـا يعجـز المدمـن على الكحول عـن الاستغناء عن كأس شرابه . وقد تحدثت عـن مشكلتي في الاسبوع الماضي مع صديقـة تتعالـج عند طبيب نفساني . وقـد ذكرت لي ان التحليل النفسي شـيء رائع وان طبيبهـا ساعدهـا كثيرا . وقـد امضينا بضع ساعات معـا ، ولاحظت انهـا فتحت حقيبة يدهـا مرتيـن على التوالي لتتناول منهـا قرصا . وانـي لأقسم بان الاقراص التي تتناولها هي من النـوع الذي اتناوله انـا بالضبط . لكنهـا على يقين تـام من ان هذه الاقراص تحقق المعجزات . ولم اشأ ان أكشف لهـا عـن قلة جدواها » (٧) .

مايكيل رايمان ، الذي يعمـل فـي قسـم المخدرات فـي مستشفى **جميع القديسين** في بيرمنغهام، صرح بأنه لاحظ ، خلال الاعوام العشرة الماضية ، تناميـا مطردا في عدد النساء اللواتـي يقصدن المستشفى لازالة التسمم من دمائهن بعد افراطهـن فـي تناول المهدئات والمسكنات . ويعترف بان معالجتهن نادرا ما تكلل بالنجـاح . وموقف رايمـان ادنى الى موقف الاخلاقي الواعظ ،

(٧) فوروم ، السنة ٢ ، العدد ٨، ص ٦٩ ـ ٧٠ .

وهذا اعوجاج مألوف لدى الاطباء . فلئــن كانت النساء يلجأن في نظره الى تناول المهدئات ، فلأنهن يعانيــن مــن الارق او لا يتجاوبــن مــع العروض الجنسيــة لزوج حــار الدمــاء . كمــا ان المراة قــد تلجــأ الى الاقراص المهدئة لــدى مواجهتهــا اي متاعب في حياتهــا المنزليــة . فهــو يذكر حالات كانت فيهــا النساء يشعرن بالحاجــة الى تناول الاقراص المهدئة لمجــرد انهن حرقــن البطاطــة اثناء قليهــا ، او كسرن مصباحــا كهربائيــا، او تخلفــن عــن غسيل ثياب الاسرة في الموعــد المحدد .

ولا يتساءل مايكيل رايمان عن الاسباب التي تجعــل النساء في مثل هذه الحالة من القلق النفسي بحيث يعجزن عن مواجهة اي ازعاج . فاذا كان التحليل الذي يتناول اوضــاع المدمنــات على الاقراص المهدئة هــو على هــذا القدر من السطحيــة، فــلا عجب ان كانت حالات الشفاء من هذا الادمان نادرة للغاية(٨) . امــا **لجنــة غلاسكــو للجمعية الاسكوتلندية الملكيــة لحماية الاطفال من سوء المعاملة** فقــد اشارت الى تزايــد عدد الامهات اللواتي يدمن على العقاقيــر هربا من الواقــع (٩) . والحال ان حياة ربة البيت هي اللاواقعية . فهــي مفارقــة تاريخيــة ، واقع بائد لا يمكــن ان يتولد عنه سوى الشعــور بالاحباط . فالاتصالات التي حققتها النساء مع العالم الخارجي اوسع من ان تسمح لهن بتحمل حياة الاسر بيــن جدران البيت الاربعــة ، برفقــة اولادهن وحدهم . ورفضهــن لهــذا النمط من الحياة لا يعني رفضهــن للواقــع . ان عوارض التعب ، والملل ، والنزق التي يعانيــن منها هي عوارض النوراستينيــا في الواقــع . ولن تجدي العقاقيــر معهــن فتيلا الا اذا امكــن اقناعهــن ، بعــد عمليــة غسل دمــاغ ، بــأن لعبوديتهــن المنزليــة فائدتهــا . فالاعمال المنزليــة فريضة لا

---

(٨) ذي بيبــل The People ، ٢٣ ، ١١ ، ١٩٦٩ .

(٩) تايمــز ، ٩ ، ٥ ، ١٩٦٩ .

مناص من معاودة ادائها يوميا . وتربية الاطفال لا تشكل بحد ذاتها عملا لان الاولاد يربون انفسهم بانفسهم . والالتباس السائد بصدد التربية التي يفترض ان يحصلوا عليها ، والاخطاء العديدة التي قد تقع فيها الام بدون ارادتها والتي تلام عليها اذا كشف الطفل عن شكاسة في الطباع وعسر في المعشر ، امور تدل على ان المراة ، التي تقع على عاتقها اجسم المسؤوليات ، تفتقر في الغالب الى المعارف اللازمة للاضطلاع بها .

كثيرا ما تتوهم النساء بأن حياتهن كانت ستكون اقل شقاء فيما لو كن اكثر غنى وثراء . بعضهن يتوهم انه بحاجة الى من يهتم باطفاله ويسهر عليهم ، وبعضهن الآخر يتصور ان عطلة طويلة او التحرر من الهموم المالية هو طريقه الى الطمأنينة والراحة . والواقع انه بقدر ما تخف وطأة المشكلات المادية يزداد وعي للنساء لحقيقة ان وضعهن الزواجي هو مصدر متاعبهن وتبرمهن . ان احدث تجسيد للبطل في المجتمع الغربي هو رائد الفضاء . وزوجته تنعم بثروته وباشعاع مجده . ان رائد الفضاء هو الارستقراطي الاميركي . فالرؤساء يزورونه ، وهو يصلي من اجل الامة عندما يحط على القمر ، كما ان بيته تحفة من حيث التخطيط والرفاهية المتوفرة فيه . غير ان عالما نفسانيا تابعا لوكالة النازا (١٠) اكد ان كاب كنيدي (حيث يعيش رواد الفضاء والعاملون في الابحاث الفضائية) يشهد عددا لا يحصى من حالات الطلاق . فمعدل الطلاق في هذه المنطقة هو ضعف المتوسط القومي . ونسبة النساء المدمنات على الكحول في كاب كنيدي اعلى من بقية انحاء اميركا ، باستثناء واشنطن . و« يبدو ان الصناعة الفضائية تفقد الرجال حساسيتهم » . فالتدريب الذي يخضع

---

(١٠) النازا N.A.S.A. : الوكالة الاميركية لابحاث الفضاء . «م».

له رواد الفضاء له سلبياته . فهم لا يتعلمون كيف يسيطرون على انفسهم فوق سطح القمر فحسب ، وانما على الارض ايضا، وفي سرير زوجاتهم بالتالي . وهنالك اجماع على القول انالنشاط الجنسي في كاب كنيدي ضعيف للغاية (١١) . ولا تسمح زوجة رائد الفضاء لنفسها بان تصبح بدينة او مهملة الشكل ، لذلك فانها تلقي بنفسها في دوامة الادمان والانفلات الجنسي ، الرذيلتين « الانيقتين » في عرف المجتمع الراقي . اما في انكلترا فان ربة البيت المتروكة لنفسها ، والمعانية من الملل والوحدة، تجد العزاء في الافراط في الطعام . وتستغل دعاية السكاكر احسن استغلال هذه الحاجة الى الهرب عن طريق الشراهة. فهي تؤكد جازمة ان مذاق هذه القطعة من الحلوى مثير ، رائع، هائل ، فيه طعم الجنة. اما الدعاية المتلفزة للسكاكر فتعد بالهلوسة والنشوة . وثمن السكاكر ابخس بكثير من ثمن الطلاق .

يأخذ التمرد النسائي اشكالا معوجّة ولامعقولة تزيد وضع المراة تفاقما. فهي تبعد زوجها عنها بعدائيتها المدمرة، وتأخذ موقفا سلبيا من عروضه الجنسية لانها تشعر، بدون ان تستطيع تحديد السبب، بأن كل شيء في علاقتهما كاذب ومضر. وتظل برودة المراة الجنسية المشكلة الاساسية والاهم، مشكلة لا يكفي لتذليلها التعمق في معرفة تكوين المراة الجنسي واوالية المتعة الجنسية لديها. فالتكييف الذي تخضع له النساء يتعارض مع تقبل الواقع الجنسي والمتعة الجنسية. وكثيرا ما يؤكد الازواج ان زوجاتهم لم يصبن بالبرودة الجنسية الا بعد انقضاء فترة من الزمن على زواجهن وبعد ان يكون بدا عليهن وكأنهن يجدن متعة اكيدة في العلاقات الجنسية. والواقع ان الحب الجنسي ليس مشكلة رعشة جنسية او رومانسية. فالزوج والزوجة ينطلقان من

---

(١١) نيوز اوف ذي ورلد ، ٦ ، ٧ ، ١٩٦٩ .

قطبين متعارضين، ويعانق واحدهما شبح الآخر في عتمة لياليهما الزواجي. وتأتي وسائل منع الحمل لتزيد الطين بلة. ومما يثير الدهشة فعلا ان يكون الكيس العازل هو وسيلة منع الحمل الاكثر انتشارا في انكلترا. وكل زوجين من اساس خمسة ازواج يمارسان **الجماع المبتور**. اما عدد النساء اللواتي يستعملن اقراص منع الحمل فلا يتعدى المليون والسبعمئة وخمسين الفا، اي ما يقل عن ثمن النساء المتزوجات. وحتى عندما تتعاطى المراة هذه الاقراص فان مشكلتها لا تحل. اذ لا يمضي اسبوع واحد دون ان تنشر الصحف بحثا مخيفا عن مساوىء هذه الاقراص. فقد نشرت صحيفة **نيوز اوف ذي ورلد**، على سبيل المثال، تقريرا صادرا عن **جمعية التخطيط العائلي** جاء فيه ان اربعمئة الف امراة من بين اللواتي وصف لهن استخدام اقراص منع الحمل يعانين من نحو خمسين اثرا من الآثار الثانوية لهذه الاقراص. اما البروفسور فيكتور واين من مستشفى **سانت ماري** في بادنغتون، فهو يؤكد ان اقراص منع الحمل قد تتسبب في تخثر الدم، او في امراض الكبد، او البدانة او الاكتئاب النفسي (١٢). وفي صيف ١٩٦٩ نشرت مجلة **لانست** Lancet رسائل تتحدث عن الاكتئاب النفسي الناجم عن تعاطي اقراص منع الحمل. وقد اعترف كاتبو هذه الرسائل بأن الهورمون الذي تحتوي عليه هذه الاقراص يؤثر في افراز التربتوفان، وهي مادة كيمياوية اساسية للصحة وتتحكم بمزاج الانسان. ولا تخلو وسائل منع الحمل الاخرى كافة من سلبياتها ومفاعيلها الضارة. وما بقيت مشكلة منع الحمل همـا من هموم المراة اليومية، وما بقيت المراة تعيش على اعصابها الى ان يأتيها الميعاد وتعاني الامرين من كل تأخير يطرا عليه، فان سلوكها الجنسي سيتأثر من جراء ذلك لا محالة. ان مشكلة

---

(١٢) مقال في ذي بيبل ، ١٤ ـ ١٢ ـ ١٩٦٩ ، واخر في الاوبزرفر ، ١٥ ـ ٦ ـ ١٩٦٩ .

التوتر المزامن لميعاد الطمث قد تفاقمت بالنسبة الى المراة العصرية، وازدادت حدة من جراء النوراستينيا .

ان عدد النساء اللواتي يقدمن على الانتحار يفوق عدد الرجال الذين يضعون بيدهم حدا لايامهم، كما ان عدد النساء في المصحات العقلية ينيف على عدد الرجال. وكل عام يعاني المئات من الاطفال من سوء معاملة اهلهم العائشين على اعصابهم، وفي بعض الحالات تقدم نساء مصابات بالجنون على قتل اطفالهن بوحشية بعد ولادتهم مباشرة. اما الاكتئاب النفسي الذي تعاني منه المراة بعد الوضع فهو ظاهرة معترف بها رسميا، وثمة نساء يشكين من هذا الاكتئاب طيلة عام بأكمله. ان الاقلية الضئيلة من النساء اللواتي يعذبن اولادهن او يقتلن ازواجهن يتحولن الى موضوع مثير تطنب الصحف في الحديث عنه. اما الغالبية العظمى من النساء فهي تجر، يوما بعد يوم ، حياتها الغسقية في صمت، راجية القيام بواجبها على افضل نحو، ومتوقعة ان تكافأ على تضحياتها في يوم من الايام. ان المراة التي تكد وتعمل تنتظر بفارغ الصبر ان يشب اولادها عن الطوق، وان يشقوا طريقهم الى النجاح ليعوضوها عن عبوديتها. لكنها سرعان ما تدرك أنهم لن يفعلوا سوى ما يحلو لهم، فيغادرون البيت العائلي، ويتبنون عادات غريبة عجيبة، وينبذون اهلهم ويلفظونهم من حياتهم. اما المراة العاطلة عن العمل فتحاول، في سن متأخرة، ان تلحق عبثا بقطار العلم والاعمال المجدية. فأمي، بعد ان دفعتني باستبدادها وتذمرها المستمر الى مغادرة سقفها ـ امر أخفته عن معارفها طيلة سنوات حيث كانت تنقل لهم اخباري بانتظام في حين كانت تجهل كل شيء عما حل بي ـ حاولت ان تتعلم الرقص الكلاسيكي، بلا جدوى طبعا، ودرست المحاسبة فرسبت في امتحاناتها بانتظام، وحاولت الالتجاء الى الدين، ثم جربت التزلج على الثلج وتعلم الايطالية. والواقع انها كانت قد فقدت منذ زمن بعيد القدرة الكافية على التركيز كيما تتمكن من مطالعة رواية او

صحيفة. وكان كل نشاط تمارسه يأخذ طابع الهوس القهري، لكنها لم تكن تواظب عليه اكثر من شهر واحد. وكانت لا تطيق التلفزيون، ولا الاهتمام بترتيب البيت، ولا حياكة الصوف. ولم تكن تلعب الباصرة ، ربما من قبيل المظهرية البورجوازية . ولم تتعلق بكلب او ببغاء ، علما بان غيرها من النساء يجدن بعض المتعة في ذلك .

من نافل القول ان العازبة لا تنجو من هذا العذاب، بحكم ضغط الرأي العام الذي يرى في الزواج معيار النجاح النسائي.

ونظرا الى صعوبة الحياة الزوجية كنمط وجود، والى الصعوبة الاعظم لحياة العزوبية، فانه يتعين على النساء أن يتعلمن ان يعتبرن السعادة فتحا لا يؤخذ الا غلابا. وخير خدمة يمكن للمرأة ان تقدمها للمجتمع هي ان تكون سعيدة. وسعة نطاق التمرد واللامسؤولية اللذين ينبغي أن تدلل عليهما كيما تبلغ هذه السعادة هي المؤشر الاكيد الوحيد الى التحول الاجتماعي الذي يتوجب تحقيقه اذا كنا نريد ان يكون لوجود المرأة من معنى .

الفصل الثامن والعشرون

الحقد

ما كل الم يولد شعورا بالحقد. وهنالك اجماع على القول ان الجنسين يتحاربان باستمرار، لكن الحديث عن هذه الحرب لا يتعدى التنكيت والدعابة كما هي الحال عادة مع جميع المشكلات الخطيرة التي لا يتجرا الناس على مواجهتها. والمعركة شاملة، واعظم خطورة بما لا يقاس من المناوشات المنفردة التي تخوض الحركات النسوية غمارها ضد السلطة الذكورية. وسواء ادارت هذه المعركة تحت السقف العائلي ام خارج نطاقه، فانها تأخذ شكل مواجهة مستمرة، لا تحترم اي قاعدة، ولا تنتهي الا بالموت. ونحن الشهود الدائمون على هذه المواجهة، بيد اننا نادرا ما نعيها، حتى عندما نكون متورطين فيها. ولان القوة هي الى جانب الرجال فان تصرفهم اكثر لباقة من تصرف النساء. أنهم لا يدركون ان الصراع الذي يخوضونه ضد النساء هو صراع حتى الموت، صراع لا هوادة فيه، الا عندما يهزمون ويكتشفون هول الكارثة خلال دعوى الطلاق حيث تعلو عقائرهم المحتدة احتجاجا على مجتمع يدعون انه منظم لصالح النساء الجشعات والعديمات الذمة . بيد

ان المرأة تعرف ان انتصارها في هذه الحال انتصار باهظ الثمن.

يتجلى الحقد النسائي في اشكال شتى. لكن تبقى حفلات الاستقبال الاطار الانسب لتكشف هذا الحقد. ففي مجتمعنا نادرا ما يلتقي الناس في حفل عفوي. فللحفل على الدوام هدف: اما التعريف بقادم جديد، واما التنويه بأهمية حدث من الاحداث واما عقد علاقات جديدة. والرجال هم الذين يصطحبون النساء الى الاستقبالات حيث يكون دورهن ثانويا بطبيعة الحال. ذلك أن تلاحم الجماعة يقوم على العلاقات بين الرجال ، والنظام فيها يصونه احترام المراتب الاجتماعية. والمنتظر من النساء ان يحترمن بدورهن هذه المراتب، وان يدعمن، على نحو غير مكشوف، دور الشخصية الذي يؤديه الزوج. وكل امرأة تعرف هذا، ومع ذلك نراها تتعمد اجمالا العمل على تقويض البنية الاجتماعية للجماعة، بل على تدميرها، بالاستناد الى استراتيجيات متنوعة بقدر ما هي غامضة. وفي العادة تلجأ النساء، اللواتي لا تقيدهن علاقة جدية، الى اثارة المنافسة بين الرجال، بمغازلة هذا او ذاك على المكشوف. وقد يتراءى لنا ان النساء يتصرفن على هذا النحو بلا وعي او قصد. والواقع انهن لا يفعلن ذلك لغاية مقصودة دوما، بيد ان اسلوبهن يكلل بالنجاح في معظم الاحيان. فالمرأة قادرة على استغلال توتر العلاقات بين الرجال وعلى زيادة هذا التوتر تفاقما. وافضل سلاح تملكه في هذا المضمار هو استغلالالخيلاء الذكورية التي حدت برفيقها الى عرضها على زملائه، كيما يتباهى امامهم بالغزوة التي حققها عندما جعلها تسقط في شراك حبه. فقد توحي الى الحضور، من خلال حديثها، انه انسان فظ وجلف (فهو لا يهتم بجلب الشراب لها)، او انه بالعكس «ملاك» (اي ابله وغبي)، كما انها ستصفق بحرارة لكل فكاهة تستهدفه وتحط من قيمته. وان كانت لا تبالي به حقا، اهملته وتخلت عنه لتنشغل برجل آخر ، بأفضل اصدقائه في معظم الاحيان . اما النساء المتعلقات فعلا برجالهن، فانهن لا يلجأن الى هذه الاساليب الا بتأن

واعتدال. فهؤلاء النساء يعتمدن اسلحة خفيفة تسبب الموت البطيء باحداثها عددا لا يحصى من الجروح الصغيرة. فاذا ما روى الزوج طرفة، تنهدت زوجته وزعمت ان ما من شخص بين الحضور الا سبق له ان سمعها، او ان زيدا من الناس يرويها بطريقة افضل. ومهما حصل، فانها ترفض الضحك. واذا ما كان الزوج هو نديم الجلسة ومحورها، تظاهرت بالاعياء والتعب وطلبت منه ان يصطحبها الى البيت. هذا ان لم تتصنع السكر كيما تجعل من نفسها محط انظار الحضور. واذا ما ضحك الرجل وابتهج، همست في اذنه انه ثمل وانه جعل من نفسه اضحوكة. واذا ما قاوم هجماتها، ذكرته بانه هو الذي سيقود السيارة في طريق العودة، او اتهمته بانه يبصبص على جميع النساء الحاضرات. وتنجم هذه الحاجة الى التدمير عن ادراكها الغامض بانها لم توجد في هذا الحفل الا كذيل لزوجها . وهي لا تشعر بالانسجام في المجتمع. فقد علموها امرا واحدا : ان تعثر لنفسها على زوج. وحال انتهائها من انجاز هذه المهمة، لا تعود تهتم لا بتنمية عقلها ولا باتقان حتى فن المحادثة. وهي لا تعرف كيف تمرح وتلهو، بل تحتقر رفيقها لانه يفعل ذلك. وتقول بينها وبين نفسها انه كان سيضحك ويمرح اكثر بعد لولا وجودها الى جانبه، وتلك هي الحقيقة مع الاسف في كثير من الاحيان.

لقد شاهدت نساء يلجأن الى اساليب اكثر اتساما بالطابع المسرحي، تفترض وجود جمهور كيما تكون ناجعة وفعالة. فانا اعرف امراة كانت تحبس نفسها في المغسل، وتكسر كأسها الزجاجية، وترمي بنفسها فوق الشظايا وهي تصرخ الى ان يسمع رجل عويلها فيخلع الباب، ويعود بها الى الصالون وهي في حالة مزرية . وثمة امراة اخرى كانت تصيح وتصرخ الى ان يصفعها احد الحضور. عندئذ كانت تحاول ان ترمي بنفسها من اعلى السلم فيضطر جميع الرجال المتواجدين في الحفل الى الامساك بها ليمنعوها من تنفيذ مشروعها. وثمة امراة ثالثة كانت تتفاعل

بسرعة مشبوهة مع اصغر كمية كحول تتجرعها، فتقدم على خلع ثيابها فيما يناشدها رفيقها السيطرة على اعصابها ويتظاهر الاخرون بأنهم يشاهدون فعلا من افعال التحرر. ويشكل مثل هذا التصرف جزءا من استراتيجية اعم ترمي الى الايحاء بان ذكورة الزوج لا تشبع حاجات الزوجة.

ان الجهل الذي تتخبط في شباكه معظم النساء، وحياة الانزواء المفروضة عليهن، يجعلانهن عاجزات عن المشاركة في الحديث او النقاش مشاركة مجدية. وكثيرا ما يكون الحديث بين الزوجين استمرارا للمواجهة الدائرة بينهما. لذلك عندما تدعى الزوجات الى العشاء، فانهن يحولن مناقشة المشكلات الجدية الى شجار شخصي. هذا لا يعني ان الازواج لا يتدخلون في هذه المعركة. بل هم يتكلفون موقفا من التسامح المتعالي عندما تحاول زوجاتهم المشاركة في النقاش، فيدحضون ملاحظاتهن او يتجاهلونها، ويبالغون في ملاطفة بقية النساء فيمتدحون موهبتهن في الطبخ كما لو انهم لا يعرفون الى الشبع سبيلا في مطبخ زوجاتهن اللواتي هن، علاوة على ذلك، ساذجات كالاطفال، الخ. وبما ان ميزان القوة هو في صالحهم، لا في صالح النساء، فانهم لا يضطرون الى اللجوء الى العنف او الى البذاءة، ولا الى تبني مواقف معادية للمجتمع. وهذا يكفي لقسر المراة على الخروج عن طورها، فتقدم على التفوه بالحماقات او ارتكابها. فقد شاهدت طالبة من طالباتي تفقد اعصابها خلال اجتماع نقابي في الجامعة، وتقذف بمحتوى كأسها على راس الرئيس، مدركة بعد فوات الاوان انها لم تفلح الا في زيادة الوضع سوءا.

لكن بيت الزوجية يبقى المسرح الفعلي للحرب الدائرة رحاها بين الجنسين، على الرغم من الاعتداءات التي تقع احيانا في الخارج. ونظرا الى تفاوت القوى بين الجنسين، والى عجز المراة عن القيام باي عمل فعال، فانها تخفف عن نفسها بالكلام، ولو

سقطت اذا ما اقتضى الامر في السوقية المسرفة لانها، اسوة بهاملت، تفتقر الى القوة التي تسمح لها برفض الجور والاضطهاد. ولا تعبر العدائية الكلامية عن الحسد القضيبي لدى المراة كما يزعم الفرويديون. وانما هي النتيجة المحتومة للتكييف الذي حكم على المراة بالعجز. بيد ان تفاهة شكاويها، وتكرارها المستمر لمآخذ سطحية وهامشية بالنسبة الى مشكلتها الحقيقية التي تعجز عن التعبير عنها، يقودانها الى تصعيد عنفها باطراد والى الازدراء التام بمدلول الكلمات. فانتقاداتها وتهجماتها تغدو هدامة ولا تغتفر اكثر فاكثر، الى ان يأتي يوم تكتشف فيه، في حيرة وذهول، انها في طريقها الى تقويض دعائم بيتها بنفسها، وانها لا تستطيع ان تضع حدا لهذا التصرف. ويتنامى شعورها بالاثم، فيما تتلاشى قدرتها على الحسم في وضع يحكم عليها بالشيخوخة السابقة لاوانها ويحط من شخصيتها الى حد مسخها. فاذا بها بين الحين والآخر تنهار وتعترف بأنها لا تدري ماذا اصابها. فيقترح عليها زوجها ان تتناول قرصا مهدئا، فيطلق بكلماته هذه من جديد شرارة المعركة. فتتهمه بالغباء وبقسوة القلب، وبانه هو المسؤول ، ولو جزئيا، عن الحالة الزرية التي آلت اليها ، الخ .

تقبل المراة المتزوجة بأن تعيش بالوكالة، وتعتقد بأنها ستكون دعامة زوجها في جهوده النبيلة. بيد ان غيرة، غير معترف بها، تعتمل في نفسها وتنهشها مع الايام، فتشل قدرتها على فهم ما يسارها به حول طموحاته والصعوبات التي يصطدم بها . فتروح تسعى الى النيل منه، والتشكيك في حكمة قراراته، وتداب على استغلال خوفه من الفشل، الى ان يأتي يوم يرفض فيه مساررتها بمشاريعه. ولا تعود تسأله، الا من باب اللياقة، عما حصل معه في المكتب، كما انه لا يعود يصغي، الا بصورة شكلية، الى ما ترويه له بصدد برنامج عملها اليومي الرتيب. ثم يعدلان عن الخوض في هذا الموضوع. فهو لا يستحق اي اهتمام. ويعجز

الزوج عن ادراك الاحباط الذي تعيشه زوجته. فحياتها تبدو في نظره في منتهى اليسر والسهولة. ويرسخ لديها هي الاقتناع بلاجدوى حديثها معه عن مللها وضجرها. ويتحول الحوار بينهما الى شجار يصر كل طرف على ان تكون الكلمة الاخيرة فيه له. والواقع ان المراة تتعمد مناقضة زوجها بفعل قوة العادة. فلماذا يكون هو المصيب دوما؟ انني ما زلت اذكر تفاصيل خلاف حاد نشب بين والداي بصدد شجرة انتصبت امام دارنا ولم تنم نموا جيدا. وقد قرر والدي، بعد دراسة القضية من جميع جوانبها، انه يتعين اعطاء الشجرة فرصتها، لانها تأثرت سلبا من جراء اعمال البناء في بيتنا، ولانها قد تسترد قوتها وعافيتها في العام التالي. اما امي فكانت توارب وتتنصل من اتخاذ قرار نهائي. واصدر ابي امره بعدم قطع الشجرة. لكن امي انتزعت عنها قشرتها في اليوم التالي، فماتت الشجرة وتوجب قطعها. وقد تشكل لدى والدي، منذ بداية عهده بالزواج، اقتناع راسخ بأن حياته الزوجية لا يمكن ان تحتمل. لذلك كان يمضي معظم اوقاته في ناديه ولا يعود الى البيت الا للرقاد. ولم تكن امي تحتج على ذلك لان غياب والدي عن البيت كان يتيح لها فرصة الاستبداد بأولادها وتأليبهم عليه. بيد ان العديد من النساء يقيدن حرية ازواجهن من قبيل الغيرة فحسب. فزوجات العمال يفرضن رقابة شديدة على نفقات زوجهن الشخصية، ويضعن ايديهن على مرتبه فور رجوعه الى البيت. وتشكل المقامرة تحديا من بين التحديات النادرة التي تواجهها دولة الوفرة والعناية، والمرأة تحرمها بشدة، معززة ارتباط الرجل بالنظام. وهي تعارض كذلك التحرر عن طريق تعاطي الخمرة، لاسباب وجيهة احيانا، ولاعتبارات كاذبة في معظم الاحيان. فهي لا تنهال بأشد اللوم والعتاب الا على الرجل الذي لا يحتسي الخمرة الا لماما، وبالمقابل، ان كان المدمنون على الكحول يعنفون زوجاتهم ويسيئون معاملاتهن، فلانهم يضيقون ذرعا بتبرمهن، المعلن او المكتوم. والواقع

ان النساء ينكرن على ازواجهن حقهم في الترفيه عن انفسهم لان حياة الازواج في نظرهن تظل،مهما صعبت ، اقل قسوة وشظفا من حياتهن. وما دمن لا يرفهن هن عن انفسهن، فلماذا يعترفن للرجال بهذا الحق ؟

ومن اكثر اشكال المواجهة الزوجية شؤما وبشاعة استخدام الاولاد كسلاح وكساحة قتال. ومن نافل القول ان النساء لا يذهبن جميعهن الى حد تأليب اطفالهن قائلات :« ان اباكم تيس عجوز » كما كانت تفعل امي. بل يكون التكتيك الذي يلجأن اليه في العادة اكثر حذاقة وبراعة. فمن مصلحة الام ان يظل اولادها اطفالا صغارا الى اطول اجل ممكن كيلا يتنكروا لها ويستغنوا عن خدماتها. انها تؤكد للاب جازمة انه لا يفهمهم، وتحتج عندما يأخذهم بصحبته لمشاهدة مباراة في كرة القدم في يوم ممطر ، وتترقب عودتهم كلما خرجوا من البيت لانها غيرى من الحرية التي ينعمون بها والتي لم يقدر لها شخصيا التمتع بها، ولانها تريد ان تثبت لهم ان عطفها ورعايتها ضروريان. وفي الحالات القصوى تتعمد النساء استغلال اولادهن. فيجندن الابن للاطاحة بالاب. وهذا ما يحصل كثيرا لدى الاسر الفقيرة حيث تكرر الام القول وتعيده، بلا شفقة او رحمة، بأن الاب عاجز وعديم الجدارة. ويتبنى الابن تأويل امه لقسوة الاب وسوء معاملته لها، فيسعى الى خلعه وعزله تحت سقف بيته بالذات. وفي الحالات التي لا تتسم بمثل هذا التفاقم في العقدة الاوديبية، قد يتعرض الطفل لضربات الام التي تستهدف الاب من خلاله. فقد جثت امي ذات مرة فوق صدر اخي الصغير وراحت تنهال باللكمات على وجهه بحضور ابي الذي هددها بالضرب. وكانت تلك هي المرة الاولى التي اشاهد فيها ابي ينفعل امام التحدي. فشقيقي كان لا يزال في الثالثة .

وكثيرا ما تكون البرودة الجنسية الانثوية محاولة لمعاقبة الزوج، وان كانت النساء لا يعترفن بذلك. كما ان هجاس المرض،

وتضخيم اي توعك قد يلم بالمراة الى حد اعتباره ضربا من العجز والشلل، يشكلان بدورهما في كثير من الاحيان لوما مقنعا ليس له اساس عضوي. وقد يأخذ هذا اللوم شكلا اكثر حذقا اذا ما استمرت المخلوقة الضعيفة في تأدية واجباتها على الرغم من وهنها والمها. فيشعر الجميع بالذنب امام هذا العذاب، ويتفاقم هذا الشعور عند الزوج والاولاد بسبب اغتياظهم من اضطرارهم الى مشاهدة فصول هذا الاستشهاد اليومي. ويعتبر تأبي المراة عن ممارسة العلاقة الجنسية او تقنينها اياها عاملا اساسيا في التعبير عن الحقد النسوي. فحتى في الاوساط المثقفة من المجتمع الانكليزي، كما الحال لدى بعض زملائي على سبيل المثال، تنظر النساء الى العلاقات الجنسية على انها مكافأة تمنح للزوج او عزاء له عندما يتكبد فشلا او هزيمة . وتدعي المراة انها لا تجد اي متعة في هذه العلاقات، اما الزوج فيشعر بأنه بهيمي لممارسته حقوقه الزوجية ، كما يشعر في الوقت نفسه بالعرفان بالجميل لان زوجته سمحت له بهذه الممارسة. وكثيرا ما تكون هذه العلاقات هي الموضوع الحقيقي للنقاش حينما يدور الجدل بين الزوجين حول وسائل منع الحمل. فالمراة تدعي انها لا تحتمل اي وسيلة من وسائل منع الحمل، وانها لا تجد اي متعة في العلاقات الجنسية ما لم تمارس هذه العلاقات بأمل الانجاب، او ترغم زوجها على ممارسة الجماع المبتور. واذا حملت ادعت انه خانها وانه ليس سوى اناني حقير .

ولئن ادعت المراة ان لا غاية لها سوى ان تحفز الطموح لدى زوجها عندما تلفت انتباهه الى نمط الحياة المترف لزيد من الناس، فان هدفها الحقيقي هو اشعاره بعدم جدارته في معترك العمل. انها تدفعه دفعا نحو النوبة القلبية، وتعد نفسها لحياة ترمل طويلة، دون سابق قصد، لانها لم تفهم ولن تفهم في يوم من الايام طبيعة الدوافع التي حدت بها الى التعجيل في وفاة زوجها. وما سلوكها هذا في الحقيقة الا وجه اخر لغيرتها من

الحياة التي يعيشها زوجها خارج البيت. ولسوف تداب على مضايقته وتنكيد عيشه الى ان يتخلى عن عمل، هو عنه راض، لصالح عمل آخر ممل ومضجر وانما مجز يتيح لهما طراز حياة ارفع من ذاك الذي ينعم به فلان من الناس. وتمثل عوارض مرض روزامند (١)، التي اجادت جورج اليوت وصفها في زواج لايدغيت الفاشل، الشكل الاقصى لحالة الغيرة النسائية ازاء الحياة الذكورية ، هذه الغيرة التي تتمخض عن كلمات عتاب وتأنيب من نوع :« انك تحب هذا السترادیفاریوس » (٢) الحقير اكثر مني»• وقد اجاد تشارلز م. سولتز في **فستق العبيد** وصف النزعة التدميرية الانثوية من خلال شخصية لوسي فان بلت. ويتعين علينا ايضا ان نضيف الى هذه اللوحة شهادة سترندبرغ بصدد الصراع المميت بين الجنسين في **رقصة الموت،** وكذلك شهادة ابسن، غير المباشرة، في **هيدا غابلر وبيت الدمية.**

ان المعركة التي تدور في جو من النفاق والرياء ، وينزع فيها الطرفان الى الخداع والغدر، هي اشبه ما تكون باللعب. وقد وصف اريك بيرن بالفعل اكثر جوانب التكتيك النسائي سطحية وابتذالا في **الالعاب التي يلعبها الناس.** وكل امراة قرأت عرضه للالعاب الزوجية تستطيع ان تضيف من عندها وبلا صعوبة امثلة اخرى من هذه الممارسات . والحل البديل لهذه الحرب التي تخاض تحت ظاهر اللعب هو استقلال المراة وسؤددها الذاتي .

---

(١) بطلة رواية جورج اليوت : «ميدلمارش» .

(٢) نوع ثمين من الكمان ينسب الى صانعه . «م» .

الفصل التاسع والعشرون

التمـــرد

وجدت على مر الازمان نساء لديهن الاستعداد للتمرد على الدور الذي يفرضه عليهن المجتمـــع . وكان مـــن اشهرهـــن الساحرات، اي النســاء اللائي يعزفن عن العلاقـــات الانسانيـــة «السوية» ليعشن بصحبة حيوانات او اشخاص مقربين ، مستغلات معرفتهن بالنباتات الطبية وسذاجة الفلاحين . وكان ذلك يقترن احيانا بالسحر الاسود او الابيض او عبادة الشيطان. واذا ما قرأنا بانتباه وترو محاضر محاكمات الساحـرات ، تبين لنـــا ان بعض النساء قد لوحقن وقوضين لاسباب تتعلق فقط بنشاطات هدامة، لانهن كن يحرضن القرويين على شهر راية العصيان . وكـــان مـــن ضمن العقوبات «كرسي الاتهام» ، اي ارهاق المتهمة بالاستجواب، وكان ذلك شكلا بدائيا من المعالجة النفسية القمعية وتقابله اليوم تقنية الصدمة الكهربائية .

ان «كرسي الاتهام» ذاك مثال نموذجي على الصلف المذكر . ويتجلى رفض اخذ مآخذ النساء بعين الاعتبار في الكيفية التـــي يؤول بها المحافظون مبادراتهن الرامية الى تغيير اوضاعهن . فهم

لا يجدون لهذه المبادرات من تفسير سوى اتهامهن بحسدالقضيب والكبت والشذوذ . وكم ستغتني معرفتنا بتاريخ الحركة النسوية عندما نتعلم ان نقرأ بين السطور في محاكمات الساحرات والاشكال الاخرى لاضطهاد المراة . لقد انتسبت الكثيرات من النساء الهرطوقيات ، وعلى سبيل المثال عضوات «اسرة الحب» (١) ، الى شيع دينية لما كانت تقدمه لهن من هامش حرية اوسع . ولقد كان هناك بالتأكيد قسط من النزعة النسوية في تواطؤ العرّابات بغية خداع الازواج الاثرياء لصالح زوجاتهم او بهدف تسهيل الزنى والاجهاض . ولم تخضع النساء المثقفات على مر العصور للسيادة الذكرية الا على مضض. وفي سالف الازمان كما في ايامنا هذه، كانت تربيتهن، لا سيادة الذكور، هي التي توضع بوجه عام في قفص الاتهام .

ان شطرا لا يستهان به من الجنسية المثلية النسائية، وعلى الاخص اذا ما اقترنت بميول الى الاسترجال ، يمكن ان يعتبر تمردا على الدور المفروض على المراة، وهو الدور الذي لا يترك لها من خيار سوى السلبية والرياء والدسيسة ، كما يمكن ان يفسر على انه تعبير عن رفض الطابع الفظ والميكانيكي للشهوة الجنسية المذكرة. وتنم جميع اشكال الجنسية المثلية النسائية عن محاولة ايجاد حل بديل للعلاقات التقليدية بين الرجل والمراة، حتى وان انطوت هذه الاشكال على بنية هيمنة وسيطرة .وأن يكون السحاق الشكل الاكثر تواترا لتلك العلاقة البديلة، ففي ذلك دليل او شبه دليل على ان شبح الذكر لا يتسلط على تلك العلاقة. بيد ان فضول الجمهور البذيء وتعليقاته المهيمنة على هذا الشكل من العلاقة لا تسمح للجنسيات المثليات بأن يجعلن منه

(١) «اسرة الحب» شيعة دينية انكليزية ، كانت بدايتها الاولى في هولندا بزعامة هندريك نيكلاز . وكانت ترمي الى لم شعث الكائنات البشرية والتوحيد بينها على اساس تصوفي .

فعــلا سياسيا . وما ينجم عنه من تأثم واحساس بالذنب وعــار يحض السحاقيات على اخفاء افضلياتهن، او حتى على التمـــاس الاعذار والمبررات لها بنسبها الى نزوع فطري او الى خطأ فـــي التربية . وليس من المستبعد، بالفعل، ان يكون عجز المراة عــــن اداء الدور المفروض عليها تقليديا راجعا الى فشل عملية تكييفهـا وتدجينها. بيد ان ذلك لا يحول بينها وبين ان تختار بصحو فكــر الجنسية المثلية اختيارا عزيزا كريما ، رافضة من ناحية المبدأ كل احساس بالعار او الدونية . فالمراة التي تمارس الجنسية المثليـة تستطيع ان تجاهر بانه ما من حل آخر مقبول ، وان تفاخر بنمط حياتها. لكنها، لسوء الحظ، كثيرا ما يضلها ويعشي على بصيرتها نفس التصور الخادع عن «الحالة السوية» الذي يضرب غشــاوة على ابصار اولئك الذين ينتقدونها .

ان النسـاء اللائي اتيحت لهن الفرص لتحصيل تعليــم عــال واللائي بحوزتهن ما بحوزة الرجال من شهادات هن اللائي يعيـن احدّ الوعي القيود المضروبة على جنسهن . ففي مؤسسات التعليم العالي التي تنتهج سياسة الفصل وعدم الاختلاط الجنسي يسود جو غريب لتمرد اخرس . فأغلب النســاء المدرســات عزباوات وصلاتهن واهية بالجنس الآخر . وتشتبه الطالبات في غالب مــن الاحيان بنزوعهن الى الجنسية المثلية . ومــن المؤكـد ان قـــوة العلاقات التي تربط بينهن تحمل على الافتراض بوجـود تجــاذب وتعاطف . لكني اعتقد ان الاكراهات التي تفرضها اولئك النســوة على انفسهن في ميادين اخرى تستتبع ، في ما تستتبع ، الكـف الجنسي . فلقد رفعت ذات يوم الطالبات في معهــد جامعــي — حبست فيه لعام كامل من الزمن قبل ان اتمكن من الهرب منه — الى المديرة قائمة بشكاويهن وتظلماتهن بلغة لا تخلــو من فظاظـة في التعبير . وقد رفضت المديرة والاستاذات اخذ العريضة فــي اعتبارهن ، واحتججن فضلا عن ذلك بأنهن يفعلن كل ما بوسعهن لاسعادنا، وأعربن عن تألمهن بالتالي من اننا جرحنا مشاعرهن. وقد

يذهب الفكر بالمرء الى ان رفض استعمال منتجات التجميل والاغراء هو شكل من التمرد النسوي. وقد كانت بعض اولئك الاستاذات الموقرات يغالين في لامبالاتهن بمظهرهن الخارجي الى درجة غير مألوفة. كذلك كن يضربن عرض الحائط بآداب اللياقة. ولست انسى واحدة منهن كانت في منتهى السمنة، وما كانت تحجم مع ذلك عن التبختر في ثوب استحمام احمر فاقع، وعن اطلاق الغازات والتجشؤ على مائدة الطعام بحضور زميل لهن - ذكر - اصابه ذهول وشحوب ازاء ما راى. وقد شاهدتها بنفسي تسقط ارضا قطعة من الحلوى ثم تلتقطها وتعيدها الى صحنها وتتابع ازدرادها بكل طمأنينة . وبدلا من ان افترض ان هؤلاء المخلوقات البطوليات يشكين من اختلال توازن وراثي، اعتقد ان صوتهن الجهير وثقل مشيتهن هما رد فعل متعمد ومقصود ضد النعومة الانثوية. ومما كان يسهل لامتثاليتهن وجود نموذج مقولب في انكلترا للمراة الارستقراطية الريفية التي تمتطي صهوة الخيل وتمارس رياضة الصيد والطرد وتستعمل الادوات الزراعية مثلها مثل اي رجل. لكن القليلات من تلميذاتهن كن يقتدين بمثالهن، اذ كن في اكثريتهن ما زلن يغالبن نتائج البلوغ والمراهقة ويتطورن وفق المعايير التقليدية للانوثة، على الرغم من جهود استاذاتهن لحثهن على لعب الهوكي وعلى نيل علامات افضل من علامات الصبيان في نهاية السنة .

ان هذا الشكل الضمني واللاشعوري من التمرد النسائي قد فات اوانه وبات غير مجد . ولو قارنا بينه وبين تواتر الجنسية المثلية وتخنث الرجال في المؤسسات الجامعية المذكرة ، لامكننا تأويل هذا التواتر على انه رد فعل ضد النموذج المقولب للرجل الصلب والقوي العضلات. لكن ما دامت هذه المسالك غير معقلنة وغير منهجة ؛ فستبقى محض ظاهرات فردية ، بل ربما عوامل عصابية وغير ذات تأثير اجتماعي . على اننا نشهد لدى المثقفات، وهن الاوفر حظا وامتيازا من غيرهن ، بداية تعقيل وتنهيج . ولا

يسعني هنا ان اعيد رسم تاريخ المستنخبات . بيد ان اكثر من مناضلة معاصرة واحدة تتذكر ولا بد سيدة عجوزا فذة جاهدت عبثا لتزرع جرثومة التمرد في نفسها . واننا لنشاهد بين الحين والآخر على شاشة التلفزيون واحدة من اولئك السيدات المسنات وهي تتحدث عن ذكرياتها ، او نقرا نعيها في **النايمز** . وهن لا يذكرننا باستمرارية الحركة فحسب، بل كذلك بالبراعة التكتيكية وبالديناميية المرحة لاولئك النسوة اللائي كن يرتدين تنورات داخلية ومشدات خصور وقبعات . والحق ان التقدم منذ ذلك الزمن لم يكن احادي الشكل . فالموضة قد تنوعت تنوعا شديدا ، بدءا من الزي الغلامي الى الانوثة المفرطة، وعادت بطلات الروايات يتشحن باهاب الاثارة الجنسية والانوثة المتيمة بعد ان مر زمن كان نموذجهن فيه المراة المرحة الجريئة الصلبة العزيمة . وقد بدات الموجة الثانية من الحركة النسوية ـ التي اليها ينتمي هذا الكتاب ـ مع ابحاث بتي فريدان حول الردة الجنسية في فترة ما بعد الحرب، تلك الردة التي طردت النساء الاميركيات من المصانع لتعيدهن الى البيوت. ان السيدة فريدان مجازة بامتياز من «سميث كولدج» ، وقد نالت منحة دراسية لاجراء ابحاث في قسم علم النفس بجامعة بركلي. وهي امراة مشهورة بكفاءتها وبمزاياها الثقافية . وما اكتشفته اثناء السنوات الخمس التي استغرقها تاليف كتابها حفزها على تأسيس واحدة من اعظم المنظمات النسوية نفوذا في الولايات المتحدة الاميركية، اعني **المنظمة القومية للنساء** التي تنتسب اليها اكثر من ثلاثة ملايين عضوة والتي لها فروع في العديد من المدن . قد انفصلت في ابان ذلك عن زوجها الذي كانت قد اهدته كتابها . وحركتها هي الوحيدة التي تعترف بها السلطات السياسية ، وهي التي تقدم البرنامج وعضوات اللجان النسائية التي تشارك في شتى اعمال الكونغرس . وغني عن البيان ان ما تقترحه بتي فريدان لا يمت الى الثورة بصلة . وتقوم نظريتها على الاحباط الذي تعاني

منه المراة المثقفة التي تقع في فخ النظريات الفرويدية التي تزعم ان الفيزيولوجيا تعين مصير الانسان . فالجنسية في نظر بتي فريدان تعني الامومة. وهذا خلط يترك اثره ايضا على ما يبدو في سائر الحركات النسوية التي ، اذ ترفض دور المراة الجنسي التقليدي، تجد نفسها منقادة الى ان تعلي من شأن النشاطات غير الجنسية للمراة على حساب طاقتها الليبيدية — وهذا خطأ ستترتب عليه عواقب وخيمة . ان بتي فريدان تمثل نخبة النساء الاميركيات من الطبقة الوسطى ، وتريد الحصول على تكافؤ الفرص في ظل النظام القائم ، اي حرية النساء في ان تصيبهن قروح وامراض في شرايين القلب . وقد استأنفت الحملة في سبيل اقرار «قانون الحقوق المتساوية» — وكانت تلك الحملة قد بدات عام ١٩٢٣ — وفي سبيل الغاء القوانين التي تحظر الاجهاض. ومحاجتها لا تخلو من براعة وثقوب نظر. فهي تؤكد ان تحظير الاجهاض اعتداء مخالف للدستور على الحياة الخاصة ، ومساس بحرية التعبير ، الخ . واقتناعها راسخ بأن امراض ربات البيوت العصبية ستزول يوم تندمج النساء بالمجتمع ، ويغدو أفقهن هو افق الامة بالذات لا افق بيتهن (٢) . وقد افلحت في حمل صحيفة **نيويورك تايمز** على الالتزام بما عرف عنها من موضوعية وعدل بأن الغت التمييز بين الجنسين في اعلانات عروض الاستخدام . بيد ان ذلك لم يلغ التمييز بين الجنسين على صعيد الوقائع ، بل كانت النتيجة الوحيدة لذلك ان عددا اكبر من النساء قد اضعن وقتهن هباء في ترشيح انفسهن لوظائف ما كان لهن من امل البتة في شغلها . والحق ان تدابير من هذا النوع ستبقى محض تدابير شكلية ما دام المستخدمون الذكور يفضلون على المستخدمات حتى من قبل «ربات» العمل. وقد قاطعت « المنظمة القومية للنساء» كذلك منتجات شركة كولغيت — بالموليف احتجاجا

---

(٢) بتي فريدان : «الروحانية النسائية» ، نيويورك ١٩٦٣ .

على سياستها التمييزية في الاستخدام ، لكن دون ان تشن هجوما عاما على صناعة منتجات التجميل التي تلقى رواجا منقطع النظير ، اليوم اكثر من اي وقت سبق ، بفضل سياسة اعلانية مذلة المراة ـ علما بأن هذه المواد التجميلية عديمة الجدوى بالمرة سواء اغلا ثمنها ام رخص. كما اقتحمت «المنظمة القومية للنساء» بارا في فندق بلازا كان لا يقبل النساء الا في ساعات محددة وبصحبة رجل فحسب .

لم تتأخر العضوات الذكيات في «المنظمة القومية للنساء» عن ادراك محدودية اهدافهن وتكتيكهن . وقد كانت تي ـ غريس اتكنسون من ابرز الشخصيات التي تخرجت من صفوف تلك الحركة . وهي تقود اليوم الفئةالاكثر جذرية من النخبة النسوية، وتتزعم منظمة تدعو الى الغاء الادوار الجنسية، وهي منظمة مغلقة من داعيات يبذلن ما بوسعهن للترويج لفكرة مجتمع بلا زعيم ، متحرر من مواضعات الحب (رد فعل الضحية على الاغتصاب) ومن الحيازة الزوجية ، وحتى من الحمل الرحمي. ولغة هؤلاء الداعيات لا تخلو من تحجر دوغمائي، ولا بد ان تبدو مخيفة للمرأة العادية . فالرجل في انظارهن هو العدو، وما دام الرجال متشبثين بتصورهم عن دورهم بلا تعديل ، فان الحق حليفهن . ولكن ليس صحيحا مع ذلك انه لا بد ، للقيام بثورة ، من نظرية ثورية . فالنظرية التي تصمم بدالة النظام الاجتماعي القائم مهددة بعدم التلاؤم مع واقع وضع هو قيد التطور. ومن الخطر ادانة الجنسية بداعي التكتيك الثوري بحجة انها مزيفة وانها تفضي في الوقت الراهن الى العبودية . ان الجنسية هي مواجهة يمكن ان تتولد عنها قيم جديدة . والرجل عدو مثلما ان الفتى المحشو الدماغ بعقيدة معينة لانه يرتدي بزة عسكرية معينة عدو لفتى آخر يشابهه في جميع النواحي ، الا في البزة . افلا يمكن ان نحاول التوفيق بينهما بتجريدهما من بزتهما ؟

لقد رات معظم المجموعات الفتية من حركة التحرر النسوي

النور في قلب اليسار الجامعي . ففي **نيو ليفت ريفيو** (٣) نشرت جولييت متشيل في عدد تشرين الثاني – كانون الاول ١٩٦٦ بيانا هو، بلا مراء، اكثر بيانات الاشتراكية النسائية تلاحما وتماسك منطق . وقد امسى هذا البيان، منذ ذلك الحين، وفي اشكال شتى، اساسا للنظريات الاشتراكية في الموضوع ، وان كان يفتقر الى الفعالية التكتيكية . يرتكز بيان «النساء – الثورة الاطول امدا» الى مبادىء ماركس وبيبل وانجلز . وبخلاف سائر المنظرات ، لا تتبنى المؤلفة انتروبولوجيا انجلز المشكوك فيها ، بل تصر على تمحيص دقيق للوقائع القابلة لان يقام عليها البرهان . «ان ضعف النساء الجسماني لم يبعدهن عن العمل الانتاجي، بل على العكس ، فضعفهن الاجتماعي هو الذي قضى عليهن ، في الحالات موضوع الدرس، بأن يكن اولى ضحايا العبودية» .

ينجم عن ذلك ان التصنيع المتعاظم لا يضمن للمراة استخداما انتاجيا، اذ لم يكن ضعفها الجسماني هو الحائل بينها وبينه، وانما تطور الملكية الخاصة ، وعلى الاخص ملكية وسائل الانتاج، هو الذي قضى على النساء بوضعية استرقاقية يمثلن فيها وقت الفراغ بالوكالة . ويتحدد هذا الدور بالافتراض بأن الاسرة ابوية بالضرورة، وبتشويه الانجاب ومسخه الى محاكاة ساخرة للانتاج، وبتحريف الجنسية الى استغلال سادي. ان وظيفة المراة الوحيدة هي تكييف حياة الطفل مع الجماعة Socialisation . واذا كان يراد لوضع المراة ان يتغير ، فلا بد من اعادة النظر في هذه البنى الاربع : الانتاج ، التناسل ، الجنسية، التكييف الاجتماعي . ولعل واضعة البيان تحدس بنتائج نشاط النساء في الحركات الاشتراكية ، فتسعى الى دمج النسوية بالثورة البروليتارية ، مع علمها بأن ما من شيء ، في الجماعات السياسية او الانظمة الاشتراكية القائمة ، يشير الى ان مثل هذا

---

(٣) مجلة «اليسار الجديد» . «م» .

المقد سينحترم : « ليس المفروض بالاشتراكية ان تلغي الاسرة ، بل ان تنوع العلاقات المعترف بها اجتماعيا والمضغوطة اليوم بالقوة في ذلك الاطار المتصلب . ان ثمة حاجة الى كثرة من المؤسسات بحيث لا تكون الاسرة الا واحدا من مظاهرها الممكنة . ولا سبيل الى الغاء الاسرة بدون حل بديل. فمن الممكن ان يوجد ازواج بلا تساكن ، ومعاشرة دائمة مع اولاد، وعزاب يربون اطفالا، واطفال يدربهم على حياة الجماعة والدان بالتبني بدلا من الوالدين الطبيعيين ، ومشاعات قائمة على اساس اواصر قرابة موسعة، الخ . ان جميع انماط الحياة هذه قابلة لان تأخذ صفة رسمية ومشروعة ، وينبغي ان يترك اختيارها لحرية الافراد . ولن نكون الا واهمين لو حاولنا ان نحدد مسبقا كنه هذه المؤسسات، فتعييننا لما ينبغي ان يكون عليه المستقبل تفصيليا هو ضرب من المثالية ، بل – وهذا ادهى – ضرب من المثالية السكونية . بينما الاشتراكية صيرورة ، تطور . وكل تحديد للمستقبل هو تحديد تاريخي بأسوأ معاني الكلمة . والشكل الذي ستتلبسه الاشتراكية منوط بالشكل الذي ستكون عليه الراسمالية لحظة انهيارها ... ولن يكون انعتاق النساء في ظل الاشتراكية نتيجة للعقلانية، بل فتحا انسانيا عبر المسيرة الطويلة من الطبيعة الى الثقافة التي هي تعريف التاريخ والمجتمع» (٤) .

كانت ايفلين ريد قد حاولت في عام ١٩٥٤، بقدر اكبر بكثير من السذاجة ، ان تثبت في **نشرة حزب العمال الاشتراكي** ان نضال النساء ضد الاضطهاد هو مظهر من صراع الطبقات . وقد سعت الى ان تبرهن على ان التنافس الجنسي وتحول النساء الى موضوع هما محض نتيجة للراسمالية البورجوازية . وقد استحضرت صورة مجتمع بدائي ما كان فيه وجود لا للاستغلال

(٤) جولييت متشيل : «النساء – الثورة الاطول امدا»، في«نيو ليفت ريفيو»، تشرين الثاني – كانون الاول ١٩٦٦، ص ٣٦–٣٧ .

الجنسي ، ولا للملكية ، ولا للتنافس ، وما كانت فيه مواد التجميل سوى وسائل تثبت من الهوية . وقد رات في ميتولوجيا الانثى الخالدة دعاية متعمدة نظمها راسماليون عطاش الى المال في القرن التاسع عشر ، ورفعت الى الاوج في القرن العشرين. وارجح الظن ان الفكرة صحيحة، لكن نقطة ارتكازها الوحيدة هي اقتناع المؤلفة ، دونما دليل اثباتي، مما يخيب امل كل قارىء مهما حسن ظنه ، اللهم الا اذا كان خلوا من اي روح نقدية . وقد جمعت مقالاتها عام١٩٦٩ في كتاب بعنوان **مشكلات تحرر النساء: مقاربة ماركسية.** وقد جاء عرض الافكار فيه متمذهبا الى حد التزمت ، ومرفوقا بانتروبولوجيا عسفية ، وشاهدا على فاقة ثقافية تدعو للاسف ، بينما يتميز مقال جولييت متشيل بالمقابل بتماسك مرموق في العرض .

لم تكن النساء اللائي ناضلن في المجموعات الاشتراكية واثقات من ان تحرر الطبقة العاملة سيستتبع تحرر طبقتهن. فقد ابطل ستالين مفعول القوانين السوفياتية الاولى التي كانت تبيح الاجهاض والطلاق الفوري . وكانت مكافآت الامومة خيانة سافرة (٥) . وليست زيادة عدد النساء الطبيبات في الاتحاد السوفياتي سوى امتداد لاستخدامالنساء في قطاع الخدمات(٦). وبالمقابل، لا تتمتع النساء اللائي يستخدمن في البناء بأي تأهيل مهني ولا توضع تحت تصرفهن معدات آلية (٧) . اما في الصين فان تجنيد النساء في الجيش وحظر استخدام مواد التجميل وترهات الزينة والتأنق لم يحسننا بصورة من الصور وضعهن كخادمات للاسرة، على الرغم من الغاء أسوأ مظاهر نظامالمحظيات.

---

(٥) وليم رايش : «(الثورة الجنسية)»، نيويورك ١٩٦٩، ص ١٥٣-٢٦٩ .

(٦) ليونيل تايغر:«الرجال فيما بينهم» ، منشورات روبير لافون،ص.١١-١١١.

(٧) كيريل تدمارش : «(الحق في العمل الشاق)»، في «(التايمز)» ١٦، ٢، ١٩٦٧.

انظر ايضا «(النساء في الاقتصاد السوفياتي)»، ت. دودج، بلتيمور ١٩٦٦.

وفي صيف ١٩٦٧، اثناء المؤتمر القومي لـ « طلاب مجتمع ديمقراطي» ، حررت النساء بيانا يعبر عن مشاعرهن . وقد دعت سوزان سورثهايم ، التي وصفت الاجتماع في **الناشيونال غارديان**، الى فكرة تعاون بين المجموعات المذكرة والمؤنثة ، وارتأت انه من الواجب ان يدعى الرجال الى حضور اجتماعات النساء،على اساس الافتراض بأن المشكلة محصورة بتصور سيء للادوار الجنسية . وقد عكس البيان آراء النساء من اترابها ، وكانت النتيجة التي خلص اليها :

« ١ ـ ... يجب ان يعترف اخوتنا في **طلاب مجتمع ديموقراطي** بأن من واجبهم ان يجدوا حلا لمشكلات شوفينيتهم الذكرية في علاقاتهم الخاصة والاجتماعية والسياسية .

« ٢ ـ يتضح من اجتماع **طلاب مجتمع ديموقراطي** ذاك ان كفاءات النساء وامكانيات مشاركتهن لا تستثمر بما فيه الكفاية. اننا ندعو النساء الى المطالبة بمساهمة كاملة في جميع نواحي الحركة ، بدءا من لصق الطوابع الى شغل المناصب القيادية .

« ٣ ـ ينبغي ان يأخذ المسؤولون في اعتبارهم الديناميية التي تخلق **الزعامة** وان ينموا ويرعوا جميع الطاقات التي تقدمها النساء للحركة .

« ٤ ـ ينبغي على جميع الادارات الجامعية ان تعي ان قوانين الحرم الجامعي هي قوانين تمييزية ضد النساء وان تتخذ الاجراءات لحماية حقوقهن ...

« اننا ننشد تحرر الكائنات الانسانية قاطبة . والنضال في سبيل انعتاق النساء يجب ان يشكل جزءا من النضال العام في سبيل الحرية . اننا نعترف بما سيواجهه اخوتنا من صعوبة فيالتغلب على ردود افعالهم اللاارادية ذات الطابع الشوفيني ، واننا لعلى استعداد كنساء لان نتحمل مسؤولياتنا كاملة ولان نساعدهم على حل هذا التناقض .

« الحرية الان ! اننـــا نحبكم » (٨) .

وتشاء سخريـــة المصادفة ان تنشر **نيو لفت نوتس** فـــي عددهـــا التالـــي خطابا لفيدل كاسترو في اتحاديـــة نساء كوبـــا برزت فيه بمنتهى الوضوح نقاط الضعف في تلك السياسة . فبعد ان أقـــر بمساهمة النساء في النضال الثوري وشكرهن على حمل السلاح الى جانب الرجال ، راح يحثهن على الرجوع الى مهامهـــن البيتية . « من سيطبخ للولد العائد من المدرسة للغداء ؟ مـــن سيعتني بالرضيع وبالطفل الذي لـــم يبلـــغ السن المدرسية ؟ من سيحضّر طعام الرجل لدى اوبته من عمله ؟ من سيقوم بالغسيل وبالعنايـــة بالبيت ؟» (٩) .

في خريف ١٩٦٧ ، بات واضحـــا ان النساء يعدن النظر في وضعهن . فقد حررت اربع فتيات من « الاتحاد الطالبي للعمـــل السلمي» ، المنظمة الرئيسيـــة لليسار الكندي الجديد ، تقريرا جعلـــن عنوانه : **اخواتنا** ، **اخوتنا** ، **احباءنا** ... **اسمعوا** ، وكـــان منطلقهـــن فيه فكرة ماركس القائلة ان التقدم الاجتماعي قابـــل للقياس بوضع النساء الاجتماعي . وينم التقرير عـــن حيرة ازاء الاختلاف الفعلي بيـــن الجنسين . فواضعات التقرير يجهلن ما اذا كـــان الاجحاف يلحق بالنساء منذ الولادة وبحكم تكوينهـــن بالذات ، لكنهن عقدن الرجاء على تذليل هذه العقبة انطلاقـــا مـــن الايمان بصحة الفكرة الماركسية القائلة ان التقدم يكـــون بتخطي تلـــك التمييزات التي لا صلـــة لهـــا بالوظيفة الاجتماعيـــة . وقد أعدن توكيـــد النقاط الاربع في محاجّة جولييت متشيل ونظريتها عـــن الاصل الحضاري لوضع المراة . ومن جديد نجـــد انفسنـــا امام تعريف يطفح مرارة لدور النساء في حركات اليسار المتطرف،

---

(٨) نقلا عن «نحو حركة تحرر انثوية» بقلم بيفرلـــي جونز وجوديـــث براون، نيـــو انغلند فري برس ، ص ٢ .

(٩) نيو لفت نوتس ، آب ١٩٦٧ .

ذلك الدور الذي حدده ستوكلي كارمايكل : « ان موقف النساء الوحيد في التنظيم هو الخضوع التام » . وبالفعل، جاء في التقرير :

« ان بعض النساء في الحركة على استعداد للقيام بالثورة . نحن نفكر بأنفسنا . نقرا ، نكتب ، نناقش كيما ننتج التحليل والنظرية اللازمين لتلك المهمة . وسندنا في ذلك التجربة . واكثر ما يحفزنا احساسنا الاحباطي بأننا مستبعدات ، وهذا ما يقسرنا على اخذ زمام المبادرة ... »(١٠).

ان المرء لا يزداد الا اقتناعا بأن هذه النزعة الجذرية لا تعدو ان تكون في اذهانهن عملية ثقافية عندما يجد البيان متضمنا قائمة بالكتب التي تتوجب قراءتها ، وهي قائمة اولى من سلسلة ستكون لامتناهية الطول . وما دام الامر يتعلق بحركة جامعيين وجامعيات ، فلا عجب ان يكون مثل هذا النهج عديم الجدوى بالنسبة الى العدد الكبير من النساء اللائي لم يتعلمن قط كيف يتمثلن الافكار المجردة واللائي لا قيمة في نظرهن للمحاجة المنطقية لانهن لا يفهمنها ولا يملكن المقدرة على ممارستها . واكثر الجوانب قابلية للنقد في هذه الحركة التحررية الجامعية ادعاؤها بأنها تتولى قيادة بروليتاريا نسائية كثيرة العدد ، وتبنيها لبنى تنظيمية مستعارة من منظمات الرجال وغير موائمة للنساء . ناهيك عن ان المناضلات فيها لم يستوعبن كافي الاستيعاب ، على ما تشير الدلائل ، المدى الحقيقي لاستقطاب الرجل ـ المراة ، ولم يقران في **سوفييت ويكلي** ان اعضاء معهد الدولة للتربية افصحوا عن قلقهم من ان يؤدي نقص الثقافة التربوية لدى النساء الى نشوء جيل من الصبيان يفتقر الى الحس اللازم بالسلطة المذكرة (١١) .

---

(١٠) جودي بونشتاين ، بيغي مورتون ، لينا سينر ، ميرنا وود : اخواتنا، اخوتنا، احباءنا ... اسمعوا، نيوانغلند فري برس ، ص ٧ .

(١١) ـ سوفييت ويكلي (الاسبوعية السوفياتية) ،١٧ـ٥ـ١٩٦٩، ص ٥ .

ان هذه النزعة الاكاديميــة تكــاد ان تكـون صفة مميــزة لمعظــم مجموعات التحرر النسوي في الجامعات . ان تي ــ غريس اتكنسـون ، التي أسسـت مجموعــة نخبويــة باسم **نصيرات المراة**، تنشط ايضا مع منظمــة **الحقوق الانسانية للمرأة** ، وهي جمعيــة ترعى الابحاث التاريخيــة بصدد شرط المراة . ومــن المفيــد ان نتذكر ان بعض المستنخبات اللائي فارقن الحياة منذ زمــن بعيد كــنّ يمولن هــن ايضا مشاريع من هذا النوع ، ويوزعن منحــا دراسيــة على النســاء اللائي يرغبن في ان يصبحن مهندسات . ولمعظم المعاهــد الجامعيــة النسائيــة مؤسسات مساندة من ذلك النــوع ، وقد كانت مساهمتهــا في تحرر المرأة شبــه لاغية بوجه الاجمـــال .

اول هجوم على بيــان ١٩٦٧ جاء بقلم رجل ونشر فـــي **نيو لفت نوتس** في عدد كانون الاول . وقد اشار الى خطورة اسناد منصب قيادي الى امراة لا يتوفــر لهــا الاعداد الكافي ، لانهــا ستكــون والفشل في سباق ، ولن تــزداد بنتيجــة ذلــك الا شعورا بالنقص والدونيــة (١٢) . ناهيك عــن ان النسـاء لا يملكن، في رايه ، ان ينفصلــن عــن الرجال لانهــن بحاجــة اليهـــم . ودورهن ان يكنّ اكثر تواضعــا وتسامحــا ومحبة . وأعرب عن اعتقاده بأنه من الضروري اولا ان تحوز النسـاء تأهيــلا كافيا قبل ان يتطلعــن الى تحمل مسؤوليات قياديــة في الحركة ، وبأنــه في مستطاعهــن ان يحتفظ بأسمائهــن الاصلية بعد زواجهن. وبدات حملة احتجاج تتوالى من قبل النساء الوديعات في منظمة **طلاب مجتمع ديموقراطي** ، وانقلب الاحتجاج الى تهديد في المؤتمر القومي التالــي . وفي عــدد ١٠ حزيران ١٩٦٨ من **نيو لفت نوتس** نشرت ماريلــين ويب وصفــا لاذعــا لوضع النسـاء من اعضاء **طلاب مجتمع ديموقراطي** . وقــد أجــج صدق هــذا الوصف جــذوة

---

(١٢) رسالة بلا توقيع ،في « نيو لفت نوتس » ، كانون الاول ١٩٦٧.

الاستياء والسخط . ولم تدع كاتبة المقال الى انفصال وقطيعة، وانما الى مجهود من العمل الاضافي اثناء الوقت غير المحتكر في الضرب على الآلة الكاتبة وتوزيع النشرات والمصادمات مع رجال الشرطة والرعاية البيتية للرجل الثوري (١٣) . وقد اثار الهيجان النسوي في اجتماع ١٩٦٨ غضب الرجال . واخذت النساء يدركن انهن لن يفزن بالحرية بقتالهن في سبيل الآخرين . ورد عليهن الرجال بالحجج التقليدية ضد النساء المسيطرات ، وادركت النساء الطابع الماكر للاستقطاب ، فقر عزمهن على رسم استراتيجية جديدة .

اعدت عضوتان قديمتان في الحركات الجامعية تقريرا عن مثل تلك الاستراتيجية . وكانت صحيفتهن ، **صوت حركة تحرر النساء** ، قد بدات بالصدور ، كما كان بيانهن ، **نحو حركة تحرر نسوية** ، قد أذيع . وجاء اعتقال كارول توماس ، للمرة الثانية ، والحكم عليها بالحبس لفترة طويلة ، ليحيط شخصها بطابع درامي .

لقد بدات واضعة البيان بمهاجمة البيان السابق. فقد نددت بما انطوى عليه من روح امتثالية غثة ، وقارنت بينه وبين مواقف المجالس البلدية من معاملة السود . وقياسا على **القوة السوداء** التي كانت اول رد فعل ناجع ضد تشريع ابوي النزعة ، دعت الى **سلطة للنساء** تكون رسالتها الاولى تنمية ثقة النساء بأنفسهن وتطوير استراتيجية نسائية اصيلة. وقد لفتت بركلي جونز الانظار الى ان الطالبات العضوات في **طلاب مجتمع ديموقراطي** كن من صاحبات الامتيازات اللائي يجهلن ما القيود التي تضرب على النساء طردا مع تقدمهن على الطريق

---

(١٣) مارلين ويب : لنا عدو مشترك ، في « نيو لفت نوتس » ، ١٠ حزيران ١٩٦٨ .

الذي يقودهـن الى « الطفل والمطبخ » . ونوهت بحاجة النساء الى خوض معاركهن الخاصة لتسليط الضوء على المشكلات الحقيقية طبقا لمبدأ **طلاب مجتمع ديموقراطي** القائل : « المواجهة هي مصدر صحو الذهن السياسي » . اما النساء اللائي حالفهن النجاح في فرض انفسهن على حركات يهيمن عليها الرجال ، فما توصلن الى ذلك الا باستخدامهن مركزهن المتميز وبتضحيتهن بأنفسهن على مذبح القيم المذكرة . ولم يعد لهن من حق في الكلام باسم اخواتهن اكثر مما لرجل المال الاسود الحق في الكلام باسم اخوته في هارلم . ولكن حتى هؤلاء العزباوات ، اللائي ما زلن يحتفظن بدينامية نسبية ، مرتهنات المصير بالرجال ، مصدر الحظوة الاجتماعية ، الى حد اضحت معه حياتهن كابوسا لا يملكن لا صحو الفكر ولا عزة النفس لنبذه واطراحه . وقد رسمت الكاتبة ، بصفتها امراة متزوجة ، صورة بشعة لما ينتظرهن . ثم حددت تكتيكا سياسيا من تسع نقاط اضحى الايديولوجيا الاساسية للمجموعات الفتية في حركة التحرر النسوي .

« ١ ــ على النساء ان يرفضن الانتساب الى حركات اخرى غير حركاتهن . ولا يسعهن ان يعقدن الآمال على اعادة تنظيم بنية المجتمع قبل ان يعاد النظر في بنية العلاقات بين الجنسين . ومن المحتمل ان تكون اللامساواة في العلاقات البيتية مصدر الداء كله . فالرجال يقارفون القبائح ، ويتحملون بجبن شتى ضروب التشويه الروحي ، ثم يلوذون ببيتهم متوقعين ان تعاملهم زوجاتهم باعجاب واحترام ، وربما بحب . وفي هذه الشروط لن ينظر الرجال ابدا وجها لوجه الى هويتهم الحقيقية ومشكلاتهم الحقيقية ، ولا نحن كذلك ...

« ٢ ــ على النساء ، الواقعات في كثير من الاحيان تحت تأثير الخوف من القوة الجسدية ، ان يتعلمن كيف يحمين

انفسهـن ...

« ٣ ـ علينا ان نرغم وسائل الاعلام على التزام الواقعية ..

« ٤ ـ على النساء ان يتبادلن تجاربهـن الى ان يفهمـن ويحددن ويفضحـن على نحـو علني وسافر شتى تقنيات السيطرة التي يستعملهـا الرجال فـي الحياة الخاصة والحياة الاجتماعية. ومن الواجب ان تنشر تلك التقنيـات وتذاع الى ان تغدو معرفة مشتركة . ولا يجـوز من الان فصاعـدا ان تقف المراة مبلبلة ، محتارة ، ومنزوعـة السلاح حينمـا تناقش زوجها ...

« ٥ ـ ينبغي تنظيم مشارك يمكـن فيها للنساء ان يتحررن من اعبائهن ، مما يوفـر لهن الوقت للتفتح نفسيا ...

« ٦ ـ على النساء ان يتعلمن تاريخهن ، لأن لهن تاريخـا يسعهـن ان يتباهين به وكفيـلا بأن ينمي في بناتهـن عزة النفس ... فثمة نساء شجاعات قد حررننا من العبوديـة الكاملة واتحن لنـا امكانيـة الوصول الى وضع أحسن . ولا يجوز لنـا ان نسقط مجهودهن ، بل يجب ان نستلهمهن ، وان نمكنهـن من استئناف القتال فـي سبيل قضيتهن . ثمة سوق للادب النسوي، التاريخي او سـواه . فمن الواجب تغذيته ...

« ٧ ـ على النساء اللائي يتمتعن بكفاءة علميـة ان يقمـن بأبحاث حول الفروق الفعليـة فـي المواهب والملكات والامزجـة بيـن الجنسيـن ...

« ٨ ـ لقـد نحت المتطرفات جانبا ، وبازدراء ، مطلب الاجر المتساوي للعمل المتساوي ، لكـن من الواجب اعادة الاعتبار اليه لان اللامساواة وسيلة استعباد ...

« ٩ ـ في هذه اللائحة التي لا تزعم الكمال ، ينبغي ايـلاء اهتمـام خاص لقوانيـن الاجهاض » (١٤) .

من الممكـن ان نوجه الانتقاد الى جهل البند ٧ لان الابحاث

(١٤) جونز وبراون ، المصدر الانف الذكر ، ص ٢٠ ـ ٢٢ .

المشار اليها قائمة على قدم وساق منذ نحو خمسين عاما . اما البند ٢ فسهل التنفيذ ما دام في المستطاع شراء الاسلحة، وما دام فن الكاراتيه متضمنا في برامج مدارس تخريج المبتدئات . وبالمقابل ، تكمن الصعوبة في ابطال الحاجة الى اللجوء الى العنف ، اذ ان ذلك هو الامل الوحيد للكائن المتحضر . لكن لا يرد ذكر لذلك حتى يومنا هذا في استراتيجية الحركات النسوية .

القسم الثاني من **نحو حركة تحرر نسوية** حررته جوديث براون ، الباحثة المساعدة في الطب النفساني في جامعة فلوريدا. وقد وصفت بدورها وضع المراة من الطبقات الوسطى في **طلاب مجتمع ديموقراطي** ، وايدت الاطروحة القائلة أن الزواج هو بالنسبة الى المراة معادل الاندماج بالنسبة الى السود ، مستخدمة في ذلك المشابهة بين المراة والزنجي التي لاقت رواجا شعبيا وان تكن من الاساس خادعة . وقد اقترحت تأسيس مشارك نسائية خالصة للنساء الثوريات دون ان تدرك ان ذلك لا يختلف عن اديرة القرون الوسطى التي كانت تقدم للنساء مكانا لتفتح شخصيتهن الثقافية والاخلاقية ، ولكن من غير ان يمارسن اي تأثير او ضغط على النظام القائم . والعزوبة التي تدعو اليها كتكتيك تزيد في قوة هذه المشابهة . ولا تتبدل الموازاة بالدعوة الى الجنسية المثلية والاستمناء كحلين بديلين للاندماج . وينتهي البيان بندب لمصير كارول توماس دون ان يوضح هل استهدفت كامراة .ولم ترد اشارة الى التهمة التي استدعت اعتقالها . لكن من الممكن ان نعتبر ان لذلك بين النساء الثوريات قيمة ما .

« ليس محكوما علينا بالشلل السياسي لنبرر الخمول، وانما نحن طائفة مضطهَدة . علينا ، دونما تسويف ، ان ننشىء حركة نسائية ، لانه يتوجب علينا ان نكافح النظام القائم بطاقاتنا جميعا . علينا ان نحرر انفسنا كي نفلت من

قنوط وضعنا في الاسرة ، ومن رؤيتنا القدرية الخاصة بنا كملعونات من جملة ملعوني الارض ، وكي نمارس غضبنا الاجتماعي في كل مرة ينطفىء فيها نور . علينا ان نوحد جهودنا كي نحطم دمى ذلك النظام الاجتماعي القابلة للفناء اجتماعيا وعسكريا ، وان نهب وقوفا في وجه الكلاب المستكلبة التي تحكمنا في كل زمان ومكان » (١٥) .

لقد اكتشفت النساء ، الجادات في اثر انفسهن ، على حين غرة ترسانة اسلحة جديدة في كتاب ماسترز وجونسون الذي نشر في عام ١٩٦٦ تحت عنوان **الاستجابة الجنسية لدى الانسان.** وكانت ميتي آيلجرسون اول من اشار بحماسة الى النتائج التي تترتب على ذلك الكتاب بالنسبة الى تحرر المراة . وتبنت راي الرائدة الدانمركية عضوة في مجموعة نصيرات المراة : آن كودت. والاطروحة التي تعرضها في **أسطورة الرعشة المهبلية** والتي تقول ان النساء قد حكم عليهن ـ بنتيجة جهل فرويد ورايش السيكولوجي ـ بالبرودة الجنسية ولطخ سلوكهن الجنسي بالخزي والكذب، اطروحة صحيحة ولا غبار عليها قطعا . لكن الاستنتاجات التي تستخلصها من ذلك والتي تزعم ان الخطأ كان متعمدا ومقصودا بغية تدعيم تفوق الرجل ، وان المهبل لا دور له في لذة المراة الجنسية ، وان الرجال لا يصرون على الايلاج الا لانه لذيذ لقضيبهم (وهذه الحجة هي بمثابة رد نسوي على الانانية المذكرة) ،قابلة للنقاش ، وهذا اقل ما يمكن ان يقال فيها ! « ان الرجال يخشون ، اذا ما حل البظر محل المهبل كأساس للذة المراة ، ان يصبحوا فائضين عن الحاجة جنسيا ... » (١٦) .

ان المرء ليتساءل اي نوع من الرجال عاشرته آن كودت .

---

(١٥) المصدر نفسه ، ص ٢٧ .

(١٦) آن كودت : اسطورة الرعشة المهبلية ، نيو انغلند فري برس ، ص ٥ .

فمعظم الرجال يعرفون اهمية البظر ويشمئزون ويستكرهون ان يكونوا مجرد ادوات جنسية . والرجل الذي تتوقع منه المراة ان يكون في حالة انتصاب دائم ليس اكثر حرية من المراة التي يفترض فيها ان يستجيب مهبلها لرعشة كونية عند اول ايلاج لقضيب كذلك . وهاجس العنة الذي يتولد عن تلك الاساطير يعادل هاجس البرودة . وتدل افتراضات آن كودت على انها تدرك طبيعة التضليل الذي وقعت ضحيته ، ولكن دون ان تدرك طبيعة التضليل الذي يعاني منه الرجال . والاستنتاج الذي تخلص اليه غريب فعلا : « **السحاق** : فعلاوة على الاسباب التشريحية الصرف التي يمكن ان تحث النساء على طلب بنات جنسهن كشريكات جنسيات ، يخشى الرجال ان تطلب النساء عشرة النساء بغية تفتحهن انسانيا . والاقرار بواقع الرعشة البظرية يعني تسليط شبح الخطر على الجنسية الغيرية التأسيسية . فالمضطهِد يخشى دوما وابدا ان يتحد المضطهَدون ، وفي حالتنا الخاصة ، ان تفلت النساء من سيطرة الرجل السيكولوجية . وبدلا من ان يتصور الرجال انه يمكن ان تقوم في المستقبل علاقات حرة بين الافراد ، يأتي رد فعلهم خوفا مرضيا من احتمال انتقام نسائي ، كما تظهر ذلك قضية ف. سولاناس » (١٧) .

يتساءل المرء ، اذ يقرأ الجملة الاخيرة ، من اطلق النار على من . ففي معظم الحالات ، يتحقق التضامن الفئوي بين الرجال ويستمر دونما علاقة جنسية بين اعضاء الجماعة . فما الجنسية بقوة تلاحم . ولا تظهر الجماعات الجنسية المثلية في مجتمعنا الحالي تلاحما او تعاونا ، وان يكن من المتعذر علينا ان نتكهن بما ستكون عليه العلاقات الجنسية المثلية وبما ستؤول اليه في ظل وضع لا تقترن فيه بالشعور بالاثم وبخبث

(١٧) المصدر نفسه .

النيات . واخطر فرض يترتب على ذلك الطرح للامور هو القول بأن الخدر المهبلي لدى المراة الاميركية من الطبقات الوسطى في مطلع النصف الثاني من القرن العشرين هو صفة ثابتة دائمة من صفات المزاج الانثوي . ونظرية آن كودت تلزم النساء جميعا بمثل هذا الوضع وتحكم عليهن به . وما لم تجر تجارب في تاهيتي او في اي مكان آخر غريب عن ثقافتنا ومجتمعنا ـ هذا اذا كان ما يزال له من وجود ـ فلن نعرف الى اي حد يتعين ذلك الخدر ويتحدد تشريحيا . وطبقا لتجربتي الخاصة ، فان الرعشة البظرية المقرونة باثارة مهبلية أبعث على الرضى من رعشة تتأتى من اثارة البظر وحده . ومهما يكن من امر ، فان الرجل اكثر من مجرد اداة جنسية .

لقد كتبت نانسي مان تفنيدا لمقال آن كودت ، نشرته **نيو انغلند فري برس** . وقد حاولت ان تفسر انعدام الرعشة لدى المراة بالقول باننا لا نحسن سلوك السبيل الصحيح اليها ، ولا نتفهم الطبيعة الاساسية للظاهرة . وقد ارادت ، في الاستنتاج الذي خلصت اليه ، ان تبث الامل في نفوس النساء اللائي لا رغبة عندهن في اللجوء الى الاستمناء او في تعاطي السحاق . قالت: « انني لعلى يقين بأن معاناة الكثير من الناس في بلادنا من تجارب جنسية محبطة ليس مردها الى اتفاق الظروف والمصادفات . وانما العلة في الازدراء الذي تقابل به بوجه عام اللذة الانسانية المضحى بها على مذبح منطق الربح . فمن الجلي والاكيد ان الكائن البشري يملك امكانية التحكم باستجاباته الجنسية وتحمل مسؤوليتها . لكن من العبث الذي لا طائل فيه ان تلقي المراة التبعات والاخطاء على كاهل الرجل ، والعكس بالعكس ... فالجنسية والعمل والحب والاخلاقية والتضامن الجماعي ، وكل ما من شأنه ان يعود علينا بالارتياح العاطفي ، ملغوم ومستغل من قبل تنظيمنا الاجتماعي . هذا ما يجب علينا ان نكافحه. حينما لا نتفاهم مع شريك جنسي ، ففي وسعنا ان

نتركه . ولكن ماذا نستطيع ان نعمل اذا كان البلد بأسره يسيء استغلالنا ؟ » (١٨) .

ان هذا الاعتدال ، المتعارض مع الغبطة المتشفية التي تلقي بها آن كودت بقضيب الرجل الى سلة المهملات ، لم يحم نانسي مان من سخرية الصحفيات النسويات وشراستهن . فقد اتهمتها جولي باومفولد في **نيويورك** بالمطالبة بالقضيب(١٩) . وفي الواقع ، وبالرغم من الموقف الساخر الذي وقفته الصحافة، تدين حركات التحرر النسوي بشهرتها ودويها حتى يومنا هذا لوسائل الاتصال الجماهيري . وقد تمخضت شهية الصحافة الجامحة الى كل ما هو جديد عن المفارقة التالية : نشر اخبار المبادهات النسوية جنبا الى جنب مع الاعلانات عن مراهم التجميل ومزيلات روائح المهبل وسائر المنتجات المشابهة التي تلقى رواجا شديدا . وحركات التحرر النسوي مصدر جيد للمقالات المثيرة لما اشتهر عنها من فساد وضلال وانحطاط نسائي ، وللضجة التي ترافق ما قد يصدر عنها من حماقات .

لقد ذاع صيت تلك الحركات في صيف ١٩٦٨، لا لان النساء تنظمن ضمن مجموعة متلاحمة في نطاق اليسار الجديد فحسب ، وانما في المقام الاول لان فاليري سولاناس اطلقت النار على اندي وارهول (٢٠) . فاذا بأخبار **جمعية اقصاء الرجل** تتنازع على حين بغتة مع جريمة قتل روبرت كنيدي على احتلال الصفحة الاولى من الجرائد . لم يكن هناك ، باستثناء سلوك فاليري سولاناس نفسها ، ما يوحي بأن تلك الجمعية قد مارست نشاطا قط . وقد كان من السهولة بمكان وصفها

---

(١٨) نانسي مان : « Fucked - up in America »

(١٩) جولي باومفولد « You've come a longway , Baby » في « نيويورك » ، ٩ — ٦ — ١٩٦٩ .

(٢٠) من كبار فناني البوب آرت في اميركا .

«م»

بأنهـا استعرائيـة عصابيـة وشاذة ، كمـا كـان الحادث نفسه امرا مألوفـا في وسط وارهول ، ممـا كـــان يحتـم تحريف المعنى المقصود من وراء اطلاق النار عليه . ويقرأ الناس كتبه عادة حبا منهم للاثارة ، لكنهم لا يلقـون فيهـا سـوى حقائق منفـردة مستكرهة. وقد فهمت ، اكثر من اي طالبة جامعية اخرى، مشكلة الاستقطاب والهوة التي تفصل بين الرجل والمراة والتي تحول دون قيام علاقات سويـة بينهمـا اذ تحكـم عليهمـا بدياميس حرب لا مخرج منهـا . وكانت تدعـو الى انتهاج استراتيجيـة ممجوجة ومثيرة كيمـا تتمكـن النساء من استرداد حقوقهن كاملة ككائنات انسانية : استراتيجيـة ابادة الرجل . ولعل طاقـة تي ــ غريس اتكنسون الجامحـة وصلابتهـا الشرسـة في فضح رغبة الرجل في التشبث يتصور عـن الانثى الخالدة ، في الوقت نفسه الذي يصارع فيه بضراوة يائسة تثبيتـا لادعاءاته الناجمة عـن تمحوره حول القضيب ، هما اللتان قادتاهـا الـــى مقاطعـة **المنظمـة القومية للنساء** كي تؤسس حركـة اكثـر جذريـة ، وهذا فـي الوقت الذي كانت فيه الاصلاحيات يعطيـن شعاراتهـن طابعا اشد حـدة وهجوميـة . ومن الممكـن ايضـا ان نعزو اليهـا انشاء W.I.T.C.H. (اي « المؤامرة الجهنميـة الارهابيـة النسائيـة الدوليـة ») التـي كـان هدفهـا الدعايـة عن طريق الفضيحة. وقـد كان لتظاهرات احراق مشدات الصدور وتحطيـم نماذج مصغرة لمبنى **تشيز منهاتن بنك** واقتحام مخازن **بريد فير ماديسون سكوير غاردن**من قبل نساء متنكرات فيملابس ساحرات وممتطيات مقابض مكانس ، نجع كاف في ظل نظام قابل للتأثـــر والانجراح بطرائقه العنفيـة الخاصة ، ممـا ادى الى تدهور اسعار الاسهم في البورصـة بنسبة خمس نقاط . لكـن الخوف من **« القـوة البوليسية التكتيكية »** ومن اشكال القمع الاخـرى ارغـم اليـوم تلـك الحركـة الاعلانيـة على التخفي والعمل في السر .

تبنت حركات التحرر النسوي ، بعـد الضجة الاعلانيـــة

الساخرة التي احاطتها بها الصحافة ، موقف حذر وريبة من الصحافة ، ولكن لم يؤد ذلك الى تحسين صورتها في انظار الجمهور ولم يجنبها المثول في صحافة يوم الاحد ومجلات الاثارة . وفي الواقع ، ان غياب الاعلان اعلان رديء ، ولا سيما في ظل وضع اعتادت فيه النساء على قراءة الصحف قراءة سطحية للغاية يفوتهن معها القسم الاعظم من التهكم والاستهزاء . وقد كان الناس الذين يعون هذا التهكم الضمني يشعرون في كثير من الاحيان بقدر من التعاطف مع الضحايا اللواتي تسيء معاملتهن غاية الاساءة صحافة استغلالية. اما النساء فكن يجدن عزاء وسلوانا في معرفتهن بأن شيئا ما هو قيد الحدوث ، حتى ولو كانت طبيعة الحدث غير واضحة . وفي كل مرة تنشر فيها الصحف احتجاج امرأة على النظام الضريبي الذي يمنعها من مزاولة مهنتها بصفتها امرأة متزوجة او على الطغيان الجنسي والاكاذيب المرتبطة به ، يأتي رد الفعل واسع الابعاد وتمتد المساجلة على عدة اعداد . حسبنا ان نأخذ مثالا مقال فيفيان غورنيك في **فيلاج فويس** (٢١). ومقابل كل امرأة توجه رسالة الى هيئة التحرير ، توجد مئات من النساء اللائي لا يستطعن ذلك . وكل مرة يعرب فيها رجل عن تهكمه او خوفه ، يهب مئة رجل لدعم وجهة نظره . وليس لنا الا ان نأمل ان تقرر اعداد متزايدة من النساء عرض آرائهن في الصحافة بدلا من أن يسمحن للاخرين بالكتابة في موضوعهن . ومن الممكن ان يمتد هذا التأثير الى التلفزيون الذي لا تعرف حاجاته من شبع . ولا يهم ان يكن منتجو مواد التجميل هم الذين يمولون البرامج التلفزيونية النسوية . فهم بذلك انما يدفعون نفقات دفنهم . وعلى كل الاحوال ، ليس شتم

---

(٢١) فيفيان غورنيك : اللحظة الكبرى التالية في التاريخ هي لحظتهن، في « فيلاج فويس » ، ٢٧-١١-١٩٦٩ .

الصحفيين وتنحيتهم جانبا بوسيلة جيدة للدفاع . فالزجر هو سلاح المضطهِد ، لا سلاحنا .

ثمة حركات تحرر نسوي كثيرة اخرى في الولايات المتحدة تضم خريجات الجامعات وينوف عددها على خمس وعشرين ، لكنها منظمات محلية لا تهتم بغير شؤونها . ومنها جماعة **الجوارب الحمر** التي تأسست ردا على ما تقابل به نصيرات المراة من تهكم واستهزاء من قبل الرجال . وتسعى هذه الحركة الى توعية النساء من منظور ماركوزي . وهناك كذلك حركة ١٧ اوكتوبر التي من اعضائها آن كودت وشولاميت فايرستون . والخلية ٥٥ . والحركة البوسطنية للتحرر النسائي بزعامة آبي روكفلر التي القت محاضرة حضرتها خمسمئة امراة من اللواتي يتدربن على الكاراتيه . **ومؤتمر وحدة النساء** الذي لا يضم — للاسف — سوى خمسمئة عضوة . وما تزال الحركة النسوية تنقسم على نفسها الى نحل متعادية ، لكن يسعنا ان نرى في ذلك مؤشرا الى الدينامية كبديل عن القوة .

في بريطانيا ، تنشأ اليوم في عموم الضواحي البورجوازية بتحريض من ربات البيوت المثقفات ، وفي الجامعات ، حلقات **دراسية لتحرر المرأة** ، ولا تتميز هذه الروابط بتلاحم في الايديولوجيات ، كما تفتقر طرائقها واساليبها الى الخيال والفاعلية . وقد اصدرت **الحلقة الدراسية لتحرر المرأة في توفنل** بارك صحيفة باسم **شرو** Shrew ، وتوزيعها رديء للغاية . وقد اتصلت خمس مرات هاتفيا لاحصل على اعداد قديمة ، ولكن بلا جدوى ، فعدلت . ويوم تظاهر عدد من السيدات الجليلات اثناء انتخاب ملكة جمال العالم حاملات يافطات تقول : « نحن لسنا اشياء جنسية » ، وهو توكيد ما كان احد يماري في صوابيته في الظاهر ، فوجئن مروَّعات بمشهد طالبات جامعة **واروِيك** يغنين ويرقصن حول رجال الشرطة . وقد رجونهن العدول عن هذا الاستعراض ،

لتنافيه مع حسن التربيــة وصورة المرأة التي لحقها من الاصل ما لحقها من هوان ! وقـد اعرب العدد التالي من شرو عـــن الاسف لمسلك اولئك المتحمسات المتزمتات ، مفترضا بحسن نية انهــن من ربات بيوت كوفانتري ، ومن امهــات الاسر الكثيرة التعداد ، اي على وجه التحديد من اولئك النسوة اللائي تتنطح الحركـــــة لتحريرهن . وفي الواقع ، ان فرع كوفانتري هــو مــن الفروع النادرة التي تتردد عليهــا زوجات عمال ليشرحن وضعهن لفتيات لهن نصيبهن من الامتيازات ، وهذا مثال يحتذى من قبل غيرهن من صاحبات الامتيازات من النساء اللائي لــم يتعلمن بعــد كيف يطالبن بشيء آخر غير ذلــك التجريــد الذي يسمى بـ « تكافؤ الفــرص » (٢٢).

غير ان الحرية النسوية الجديدة ، رغم الفوضى والافكــار المغلوطــة ، ما تني في اتساع متزايــد . فالمسرح النسوي الجديد، الذي ترعاه ذوات **الجوارب الحمر** ، يملأ **فيلاج فميت** فينيويورك. وبالرغم من ان فكرة تعلم العنف المذكــر كضرب من التكتيـــــك الثوري او ممارســة العزوبة لا تغري سوى القليلات من النســـاء، تظاهرت الزوجات والامهات حول سجن **هدسون ستيت** معلنات عن عدم رغبتهــن في تقاضي نفقــة غذائية . وكمــا لاحظت غلوريـــا ستينم ، تم توسع حركــة التحرر بفعل العدوى اكثر منه بفعل التنظيــم (٢٣) . وهي اليوم اوسع نطاقا واكثر عمقا من التنظيم

(٢٢) تضم الحلقات الدراسيــة لتحرر المراة خمس مجموعات اليوم . وتنشر مجموعــة نوتنغهام صحيفــة باسم« المراة الاشتراكيــة » ، ومجموعـــــة بريستول صحيفــة اخرى باسم «كفى تعني كفى » . وقــد ضم مؤتمر انعقــد في اوكسفورد من ٢٨ شباط الى ١ اذار ١٩٧٠ زهاء ٥٠٠ مساهمة مـــع ٤٠٠ طفل و٥٠ رجـــلا .

(٢٣) غلوريا ستينم : «سياســة المدينة » ، في صحيفــة «نيويورك » ، ١٠ اذار ١٩٦٩ .

السري الذي تنشر منشوراته دار **نيوانغلند فري برس** ، بل حتى من تنظيم بتي فريدان النسائي . ففي مساجلة جامعية اتيحت لي الفرصة للكلام فيها مؤخرا ، سقط اقتراح مناهض للحركة النسوية مع أن غالبية الحضور والمصوتين كانوا من الذكور ، علما بأن الحركة النسوية كانت قد منيت قبل خمسة اعوام بالهزيمة في مساجلة حول الموضوع نفسه ، رغم ان الحجج كانت اقوى وابرع . وكنت قبل اسبوع قد تحدثت في مركز لتربية الراشدين في **تيسيد** ، امام جمهور مختلط ورزين . وقد عبرت نساء خجولات وعصبيات بحضور ازواجهن عن آرائهن في مواضيع تعتبر « هدامة » للغاية . وتمردت ممرضات ، واضربت مدرسات ، وصار للتنورات اطوال مختلفة ، ولم تعد النساء يقبلن على شراء مشدات الصدور ، وصرن يطالبن بالحق في الاجهاض ... وهذا العصيان ما ينى يشتد ساعدا ، وقد يتحول الى ثورة .

الجزء الخامس

الثورة

الفصل الثلاثون

الثـــورة

ليس رد الفعل هو الثورة . وحين يتبنى المضطهَدون طرائق المضطهِد ، وان استخدموها لصالحهم ، لا نستطيع الكلام عن ثورة . مثلما لا نستطيع ان نتكلم عنها حين تقلد النساء الرجال، والعكس بالعكس، ولا حتى حين تتراخى قبضة القوانين المناوئة للجنسية المثلية، وتتلاشى الفروق في اللباس، وتتقارب المسالك. ومحاولة رد الاستقطاب واختزاله على مستوى التشريع ليس لها من راجعية على سلطان الميتولوجيا الجنسية على العقول والقلوب. ان انعدام الجاذبية في وجه بربارة كاسل (١) المتغضن ودورها العاق ككلب حراسة في حكومة ويلسون قد حثا النساء على الانكفاء والانحباس في انوثتهن العاجزة اكثر مما كانا عامل تشجيع لهن على التماس امجاد ذكرية في مجتمع ذكري . اننا نعلم ان النساء من امثال بربارة كاسل لا يتصرفن على اساس من انهن بطلات جنسهن حينما يتربعن على سدة السلطة . وهن

---

(١) وزيرة العمل في حكومة هارولد ويلسون البريطانية العمالية. «م».

بصفتهن من ارباب العمل والمستخدمين لا يقصدن افـرادا مـن جنسهن ، حتى عندمـا لا يكـون هنـاك معيـار آخر للتمييز. كما انهن يتفاهمن مع الرجال اكثر من تفاهمهن مـع النساء لانهن معتادات على التحايل على قابليتهن للتأثر والانجراح ، وعلى عقدة ذنبهن، وعلى رغائبهن الخفية . هؤلاء النسوة هن بالنسبة الـى الرجل بمثابة «الزنجي الطيب» بالنسبة الى الرجل الابيض،نسوة يشذن عن المألوف ويعادلن الرجال في القيمة ، وهن في الوقـت نفسـه اصلح من غيرهن للزخرفة والديكـور ، وحيالهن يستسلم الرجـال .

ان محاولة النساء تغيير شرطهن بالتدرب على القتال واحد من اسطع الامثلة على الخلط بين ردة الفعـل او التمـرد وبيـن الثورة . فاليوم ، وقد غدت الحرب ، مثلها مثل الصناعة ، غيـر منوطة بالقوة الجسمانية ، لم يعد للقوة من معنى كوسيلة فعالـة فـي النضال الذي تخوض غمـاره النسـاء كي يصبحن كائنـات انسانية تتمتع بكامل استقلالها وحقوقها . وقـد امسى العنف، من الان فصاعدا ، لاانسانيا وعديم الجنس . وانمـا هـو قريـن الغنى، سواء افي شكل انتاج اسلحة معقدة ، ام فـي شكـل انفاق على جيوش جرارة وقوات شرطة ، ام في شكل بناء انظمـة دفاعية جبارة لا يمكن ان تقودنا ، بمجرد وجودها ، الا الى سديم الحرب بصورة شبه محتمة . ان الحرب اقرار بالهزيمة حيـال نزاع في المصالح . فبالحرب تسلم الناس زمامهـا لقرار القـدر مفترضة ان الفوز سيكون من نصيب المتفوق . ومن المؤكـد اننا نستطيع الاعتراض على ذلك بالقول ان قصب السبق سيكون مـن نصيب عديم الذمة والضمير . بيد ان التاريخ سيظل يكتشف فيه فضائل لا يتوفر نظيرها لخصمه . حسبنا ان نتذكر محـاولـة هوشنوت ادانة دور بريطانيا في سحق المانيا واصرار ونستـون تشرشل ، بعمى بصيرة اريب ماكر، على رفض الاعتراف بحتميـة ذلك المسار . والحرب لا تكسب ابدا ، كما يلاحظ ذلك بغموض

وابهام كل انكليزي يقارن بين وضعه المادي والوضع المادي لاوروبا المذنبة بالنازية . والنساء اللائي ينزعن الى الاخذ بموقف حربي في التماسهن التحرر والانعتاق يحكمن على انفسهن بتبني الانحراف الاخير للرجولة المتجردة من الطابع الانساني، العاجزة عن ان تجد لنفسها من مخرج غير تلك النهاية الذكرية بجوهرها: الانتحار .

تبرر **حركة التحرر النسوي البوسطنية** اهتمامها بالكاراتيه بحجة ان النساء يخفن افراديا من العدوان المادي، وانه لا بد ان يتحررن من هذا الخوف حتى يسعهن التصرف بثقة وطمأنينة. وصحيح ان الرجال يعمدون الى التهديد بالقوة المادية ، بطريقة مسرحية ، تكميما لافواه الشكسات من النساء . لكن هذا محض ابتزاز يسهل تلافيه . فقد عشت في مناسبات عدة مع رجال اشتهروا بفظاظتهم ، وكان اثنان منهم قد حكم عليهما بعقوبة حبس بتهمة الضرب واحداث جروح ، ولكنهم لم يهددوني قط جسمانيا، لانه كان من الواضح الذي لا يحتمل اللبس انني لن انصاع ابدا للغة التهديد . ان معظم النساء يأسر الباب‌هن العنف. منهن تتألف غالبية جمهور المعارك ، وتأثرهن لا حدود له بمشاهد العنف في الافلام . وهن اللواتي يصطنعن المشاجرات في الحانات والمراقص . ويندفع الرجال الى العنف لرغبة المرأة فيه . ومعظم المشاجرات منحطة للكرامة الانسانية وليس لها من هدف محدد. وبوجه عام ، لا يضرب الرجال الموضوع الحقيقي لغضبهم، بل ينتهي بهم الامر الى التعرض للضرب بفعل مازوخيتهم الذاتية. اما الرجل العنيف حقا فلا يمارس لا الكاراتيه ولا الملاكمة . وانما يستولي على قنينة او على قضيب من الحديد او على فأس ، ولا يتبارى مع الخصم ليقيس قوته بقوته . بل تراه يسبب له اكبر قدر من الاذى في اسرع وقت ممكن .

يوم تمتنع النساء عن الاعجاب والشغف بالمنتصرين في المواجهات العنيفة ، تبدأ الثورة الحقيقية . لماذا يعجبن بالرجل

البهيمي ؟ الا يجدر بهن ان يرين تحت قناع الادعاء والتبجج يأس والم الرجل الذي لم يترك له من خيار سوى أن يستعمل قبضتيه؟ ان الرجال ذوي المظهر القوي والبنية الخشنة هم الذين يستفزون على الدوام الى القتال من قبل رجال لا يتوفر فيهم هذا القدر الطافح من الرجولة وبهم حاجة الى توكيد ذواتهم . لماذا لا يفهمن ان تأليه الرجل القوي، سواء اكان محاربا ام مصارعا ام لاعب كرة قدم ام رياضيا استعراضيا، يقضي على الرجل بشرط قريب للغاية من شرطهن ؟ فلو اقترحت النساء حلا بديلا لدوامة العنف هذه ، لتوفرت للعالم فرص اكثر للبقاء على قيد الحياة، وبدرجة اقل من الالم . ولو رفضن حضور حفلات الملاكمة والمصارعة ، لما عادت مربحة ماليا . ولو تأكد العسكريون من انهم سينبذون من فراش النساء، كما كانت اقترحت ليسيستراتا (٢)، لما احاطت بالحرب تلك الهالة التي تحيط بها اليوم . ما نحن بحوريات ، واننا لنرفض ان نكون مكافأة المحارب . ومع ذلك نقرا في مجلات الذكور ان مومسات المدن الاميركية يهبن اجسادهن مجانا للفتيان الذين على وشك الاقلاع الى فيتنام .

ان انحراف الذكور نحو العنف هو العامل الاساسي في انحطاط المراة . فالقضيب يفهم على انه سلاح ، وفعله في المراة يعتبر هداما وضارا. ولن تخرج النساء من اسار عجزهن حتى وان اعطيت لهن بندقية واقتدرن ، نظير الرجال ، على اطلاق النار منها . وفي كل مرة اعطي فيها لهن سلاح لمعركة محددة ، سحب منهن ثانية ، وسقطن في مستنقع العجز من جديد . ينبغي اذن تبني المبدا المعاكس . فعلى النساء انسنة القضيب، بحيث لا يعود سلاحا من الفولاذ بل لحما. أن معظم النساء المتحررات يسخرن من اسطورة القضيب ومن الاهمية التي يعلقها الرجال

---

(٢) بطلة مسرحية ارسطوفانس المعروفة بالاسم نفسه وذات النزعة السلمية البارزة . «م» .

على رجولتهم ، ولكن دون ان يدركن كيف امكن الوصول الى هذا الضلال وما اثره عليهن هن انفسهن . لقد سئم الرجال وكلّوا من تحملهم وحدهم المسؤولية الجنسية ، وقد آن الاوان على ما يبدو لتحريرهم منها . لا أقصد انه ينبغي تبني السحاق على نطاق واسع، بل اعني انه من الواجب وضع حد للتركيز على التناسلية الذكرية وتوجيه الانظار نحو الجنسية الانسانية . ينبغي ان يستعيد عضو الجنس لدى المرأة حقوقه . ولنكرر القول بأن موقف المرأة من العنف لا يقبل انفصالا عن هذه المشكلة .

على الرغم من ان الكثيرات من النساء لا ينجذبن الى المنتصرين في المواجهات العنيفة ، وقد يجدن في انفسهن عطفا على القوي المقهور ، ولكنهن جميعهن يفضلن ، من وجهة نظر اجتماعية ، الغالبين على المغلوبين . لقد تشكت استاذة جامعية في محاضرة لها امام جمهور من الراشدين من ان رد فعل التفوق لدى الرجال يمنعهم من الخروج مع فتيات من مستوى ثقافي مماثل في المؤسسة الجامعية نفسها . ونظرا الى ان هؤلاء الفتيات يأبين بدورهن معاشرة رجال من مستوى ثقافي ادنى ، فقد امتنعن نهائيا معن الخروج . لكن اذا اختار الرجال ان يقاسموا نساء من مستوى ثقافي ادنى اوقات فراغهم ، فلماذا لا تحذو الفتيات حذوهم ؟ تقول النساء بازدراء ان الرجال لا يكونون مثقفين الا في ساعات العمل وحدها ، وانهم يفرّجون عن انفسهم بالثرثرة مع امراة بلهاء ولكن جميلة . ثم انهم يمثلون دور الاباء الذين يعرفون كل شيء حيال فتيات صغيرات يتظاهرن بانبهار انفاسهن من شدة الاعجاب. ان هذا الهزء لفي محله. ولكن صحيح ايضا ان المثقفات هن في غالب الاحيان صلفات، عدوانيات ، مستبدات ، طاغيات الحضور . انهن يغالين في شأن ثقافتهن، ويفقدن القدرة على التمتع بالتسلية البريئة . ولا ينشدن من الرجال الا ذاك الذي تعادل ثقافته ثقافتهن قيمة ومستوى . وهن بحاجة الى ان يتلافى احدهم قصورهن الذاتي

هذا ، ولا يبطىء الرجال في الانتباه لقوة هذه الرغبة. انالكثيرين من الرجال يسأمون بسرعة من ذوات الراس الفارغ من النساء، لكن نفورهم لاشد ايضا من المتحذلقات ،مدعيات الثقافة . فلماذا لا تروح النساء عن انفسهن بالتمتع بعشرة رجال دونهن في المستوى الثقافي ، بدلا من ان يتطلعن الى مصاحبة انداد لهن واقران ؟ المطلوب من النساء ان يتخلين عن حاجتهن الى **الاعجاب** بالرجل ، وان يقبلن بحبه . ان «صاحبة المخ» لا تجازف بخصي سائق شاحنة، مثلما قد تفعل مع ند مثقف ، لمجرد انه لم يظهر احتراما مسرفا لمعارفها الكتبية . ثم ان انعدام التبحر في العلم والمعرفة ليس معناه البلاهة ، وما اكثر ما تحتاج المراة النابغة الى المفعول التصحيحي لحكمة الناس العاديين . وفي أسر العمال، لا يتسم دور الاب بتلك السمة من التفوق التي يتحلى بها في الاوساط البورجوازية ، لان النساء يتفوقن في كثير من الاحيان في فن الكتابة ، ويتكفلن بالعلاقات مع الادارة (٣) . ولا يندر ان يتباهى الزوج العامل بأن له امراة «تفكر» . وبعد تسديد الضرائب ، قد لا تدخل اتعاب المراة تعديلا يذكر على وضع الزوجين المالي . فمدخول المهن الحرة في هذا البلد متدن للغاية بحيث لن تساور اي رجل حاجة الى الشعور بالمذلة ازاء كسب زوجته ، كائنة ما كانت شهاداتها . وخيرا تفعل النساء الاشتراكيات اللواتي يثرن الان الزوابع ضمن اطار جماعات منفصلة ، بعد ان كرسن جهودهن كافة لخدمة الثوريين

---

(٣) آنا مارتن : «المراة العاملة المتزوجة» ، منشورات «الاتحاد القومي لجمعيات النساء المستنخبات» ، تموز ١٩١١ : «تتمتع المراة ، لدى الاسر الفقيرة بوجه خاص ، بتفوق ثقافي ملموس على زوجها . والنضال المتواصل الذي يتوجب على هؤلاء النسوة ان يخضنه ذودا عن بيتهن ضد قوى النظام الصناعي ينمي تيقظهن وقدرتهن على التكيف بينما ينطفىء الرجال تحت وطاة عمل قاس ورتيب» .

البورجوازيين في الحركة ، لو وضعن كفاءتهن التي لم تلق منهم سوى الازدراء في خدمة الطبقة التي يفترض فيهن تمثيلها. وبوجه عام، يحكم على نجاح امراة من النساء بدرجة الارتقاء الاجتماعي الذي يعود عليها به زواجها . واعتقد انه من الطبيعي ان تكون اولى نتائج الثورة قلب هذا المعيار . وبديهي ان الاخلاص والصدق مع النفس ضرورة لا غنى عنها هنا . اما العجرفة فلن تكون الا مفجعة النتائج .

اذا كانت النساء يرغبن في تحسين اوضاعهن ، فعليهن ان يرفضن الزواج. فالعامل لا يمكن ان نطالبه بتوقيع عقد لمدى الحياة . ولو فعل لصار رب عمله في وضع يتيح له الا يقيم وزنا لجهوده الرامية الى الحصول على زيادات في الاجر وعلى شروط عمل افضل . وهذا بالفعل ما نلاحظه حيث يحوز رب العمل احتكارا . ولا يجوز ان يكون رب العمل هو وحده دون سواه صاحب الامر والنهي في منح الترقيات والعلاوات بطيبة قلبه وحدها . بل ينبغي ان يحافظ عماله على قدرتهم التفاوضية. ومن الممكن الاعتراض على ما تقدم بأن النساء لا يوقعن عقدا لمدى الحياة وذلك ما دام الطلاق ممكنا . لكن الطلاق ، في الوضع الراهن ، يفيد الرجل لا لان الرجال هم الذين اسسوه فحسب، بل كذلك لانه يناط بتملك ثروة او دخل مستقل . ويندر ان تتمتع النساء المتزوجات بأي منهما . يؤكد الرجال أن الزامية النفقة قد تلحق بهم فادح الضرر ماليا ، وهذا صحيح، لكنهم هم المسؤولون عن ذلك . فالنفقة ضرورية ما دامت الام هي التي يعهد اليها ، بوجه عام ، برعاية الاولاد . والمراة التي تربي اولادا بنفقة وبلا وجود الاب ليست اكثر حرية من ذي قبل . اضف الى ذلك انه لا معنى لتوقيع عقد لا يستطيع غير رب العمل فسخه. ومما يبعث على المزيد من المرارة التفكير بأن دخل المراة التي تعمل يخضع للضريبة بوصفه جزءا لا يتجزأ من دخل الزوج غير الملزم حتى باطلاعها على مقدار كسبه . واذا كان الاستقلال يلازم

بالضرورة الحرية ، فعلى النساء ان يمتنعن عن الزواج .

لماذا تتزوج الفتاة بوجه الاجمال ؟ قد يأتي الجواب : بداعي الحب . لكن الحب يمكن ان يوجد خارج الزواج . وفي الواقع، لم يكن له من وجود ، لحقبة مديدة من الزمن، الا خارج الزواج. وقد يتخذ الحب اشكالا كثيرة . فما الداعي لان يكون حصريا؟ اما الامان فهو وهم ، ولا سيما اذا كان المفروض فيه ان يحفظ سعادة اندماج الكائنين المتحابين الذي يبلغ اوجه لحظة الزواج . فحتى ان لم تقع كارثة في شكل زنى او انفصال ، فان الناس يتغيرون . ولن يبقى اي من الشريكين في نهاية الزواج على ما كان عليه في بدايته. اما اذا تزوجت المراة كي تعفي نفسها من العمل ، فانها تنال ما تستحقه . والمطلوب هو تحسين امكانيات الاستخدام ، لا الاستنكاف عنه . واذا تزوجت المراة رغبة منها في انجاب اطفال ، فخيرا تفعل لو فكرت بأن الاسرة المتوسطة لم تكن، حتى يومنا هذا، اطارا مناسبا جدا لتفتح شخصية الاولاد. ونظرا الى ان العالم ليس بحاجة ماسة الى الاطفال، فخيرا تفعل لو استفادت من وسائل منع الحمل بانتظار فرصة افضل . ثم ان الازدراء والقصور اللذين تشكو منهما المراة العزباء ، التي لا يحق لها ان توقع عقد رهن عقاري والتي غالبا ما تعتبر مستأجرة غير مرغوب فيها، لا يمكن لغير المراة العزباء ان تكافحهما . ولن ينتفي وجودهما بفضل قران يعقد بسائق الجبن . وحتى لو كان من الاصعب تربية طفل غير شرعي، وحتى لو كان التساكن الحبي قمينا بأن يجلب على المراة التعليقات المهينة وضروب الاضطهاد من جانب المواطنين المتمسكين بالتقاليد ، يبقى الزواج بهدف الافلات من هذه المحاذير غير ذي معنى .

من السهل ان نعلن بلهجة جازمة قاطعة ان المراة التي تريد التحرر ينبغي الا تتزوج ، لكن اذا كان معنى ذلك ان قضية النساء المتزوجات قضية خاسرة ، فان انعتاق النساء سيرجأ بحكم ذلك الى اجل غير مسمى . فالمراة المتزوجة التي لا اولاد لها تحتفظ

بقدرة تفاوضية معينة ، بشرط ان تحزم امرها على عدم الخوف من هجر زوجها اياها . والمناقشات بين المتزوجين تدور على اسس غير متساوية . وينتهي الامر بالزوجة الى ان تعاين ان حياتها ، لا حياة زوجها، هي التي تبدلت تبدلا جذريا . ويسلم الناس عادة بسلامة هذا الوضع . فقد رفضت وزارة الداخلية مؤخرا ، على سبيل المثال ، ان تأذن لامراة بالعيش في بلدها الاصلي لانها تزوجت هنديا ولان العادة جرت على ان تعتنق الزوجة تابعية زوجها (٤) . وكذلك هي الحال بالنسبة الى المدينة التي راى فيها النور ، والمدينة التي يعمل فيها ، ومنزله واصدقائه . وعدم تساوي الامتيازات في الزواج يجد تفسيره في عدم تساوي الروابط العاطفية، بالرغم من انه لا يعدو ان يكون وهما في كثير من الاحوال . اذ ان الكثيرين من الرجال يخافون قدر خوف نسائهم ان يهجروا وان ينبذوا كأزواج . وبوسع المراة التي لا تخشى ان تجبر على القيام بأود حياتها ان تصمد له وتعارضه . واكثر ما يتطلبه الامر برودة الاعصاب ورباطة الجاش . وكلما تعاظم استياء النساء، توجب أن يتزايد عدد منظمات التعاون بغية تسهيل الاستقلال الفردي. وليست الفائدة الأولى من هذه المنظمات تكوين جبهة سياسية ، وانما تنمية التضامن والتضافر الذي يمكن ان يكون ناجعا على نطاق ضيق للغاية . فالعودة الى بيت الماما قد تكون حلا كئيبا للغاية، لان الحياة في كنف الامهات صعبة في غالب الاحيان ، ولانهن محافظات وسئمات من مشكلات اولادهن ، وعلى استعداد دائم للانهيال على هؤلاء الاولاد باللوم والتقريع . وما تزال معظم النساء بحاجة الى غرفة خاصة بهن ، وهن لا يجدن اليها من سبيل الا خارج بيوتهن .

---

(٤) السيدة ماري شاترجي . وقد اخبرتها وزارة الداخلية : «نعتبر ان المرأة يجب ان تكون بوجه عام مستعدة للعيش في بلد زوجها» (التايمز، ٢٦-٢-١٩٧٠).

ان وضع الامهات ادعى الى القنوط من وضع سائر النساء، وكلما كان عدد اولادهن اكبر بدت جميع مخارج مشكلتهن مسدودة . بيد ان عددا من الامهات أفلحن في انتزاع حريتهن، مع اولادهن او بدونهم . فقد هجرت تيسا فاذرغيل زوجها، واخذت معها طفلها ، وكافحت لتجد شقة للسكن وعملا . وقد اصطدمت بصعاب كثيرة ، فقررت ان تؤسس منظمة لمساعدة النساء اللائي يواجهن المشكلة عينها . وقد اسمتها باسم Ginger bread . وكانت هناك منظمة مماثلة اخرى باسم Mothers in action . فكائنة ما كانت العراقيل الادارية، فمن الاسهل على الدوام تذليل الصعاب معا. ولا بد ان تنتهي الامور الى تأسيس صحيفة نسوية تتولى الاعلان عن اشباه تلك المنظمات وتجند لها العضوات . وسوف تتردد معظم النساء ، بسبب الاهمية التي يعلقنها على دورهن كامهات ، حيال فكرة هجر ازواجهن واولادهن، لكن لا مناص اصلا من اعادة نظر جذرية في الافكار المكتسبة . فالاولاد ، باديء ذي بدء ، لا يخصون الام ، وان يكن معظم القضاة يعطونها الافضلية في حال نشوب النزاع بصدد حضانة الاولاد . والاذى الذي يلحق بالاولاد الذين يترعرعون في جو تعيس ، وان بذلت الجهود لاخفاء الواقع عنهم ، اكبر من ذاك الذي قد ينزل بهم من جراء محاولة التكيف مع تغيير للنظام . وصعوبة تكيفهم مع مثل هذا التغيير دليل على الطابع اللااجتماعي لتعزيز الرباط السري، وانه لمن الاصلح والاسلم للاولاد، على المدى الطويل ، ان يكتشفوا ان امهم ليست عبدة لهم . ومهما يكن من امر ، فمن الافضل شرح الوضع لهم لانهم يعانون ، حين يتخوفون من تهديدات غامضة ، من قدر من الضيق والعذاب اكبر من ذاك الذي يعانون منه حين تواجههم الحقائق والوقائع . والمراة التي تعلم انها لو تركت زوجها فلن يكون في مستطاعها ان تنشيء اولادها الا تحت جنح البؤس والشقاء ، حتى وان تكن قادرة على كسب معاشها، لا بد أن تأخذ

قرارا حكيما وان تتغلب على الآراء المسبقة التي تبهظ بوطأتها على المراة التي تهجر زوجها . ففي الكثير من الاحوال ، يجد الزوج عزاء في الاحتفاظ بالاولاد ، ويعاملهم معاملة افضل، وبقدر اقل من القلق، مما قد تفعل المراة . وهو اقدر من المراة على دفع اجر مربية اطفال او حاضنة . والمراة المطلقة التي تجاهد في سبيل تربية اطفالها مهددة على الدوام بأن تضطر الى وضعهم لدى مرضعة، وهذا اسوأ الحلول اطلاقا . اما المراة التي تترك زوجها واطفالها فقد يسعها ان تسدد لهم نفقة فيما لو اتاح لها المجتمع الوسائل لذلك .

حتى تتحرر المراة المتزوجة فلا بد ان تفهم اولا وضعها، وان تناضل ضد الشعور بالذنب الذي يساورها حيال عجزها عن مواجهة وضع لا يطاق ، وان تمحص طبيعته . وعليها أن تطرح جانبا الاوصاف المغرضة المتحيزة التي تطوق بها عن توازنها واخلاقيتها وجنسها ، وان تصنع بنفسها حقيقة نفسها . عليها ان تكتشف هوية اعدائها في شخص الاطباء والاطباء النفسانيين والباحثين الاجتماعيين والمستشارين في شؤون الحياة الزوجية والكهنة والقيمين على الاخلاق . عليها ان تحلل سلوكها كمستهلكة، وحيلها وغشها مع نفسها ، وآلامها، وعواطفها الحقيقية تجاه اولادها، وماضيها ومستقبلها . واقوى سند يمكنها الاعتماد عليه في مثل هذا المشروع هو ذاك الذي تقدمه لها اترابها . ولا يجوز ان تسمح لزوجها بأن يضعها موضع هزء وسخرية ،او بأن يفحمها ويثبط عزيمتها بحججه، او ان تنخدع بمزاعمه عن براءته وبشهامة عروضه عن استعداده لان يأخذ بعين الاعتبار كل اقتراح «معقول» . وعليها اخيرا ان تستعيد ارادتها الخاصة واهدافها الخاصة والجراة على فرضها . وقد يستدعي ذلك اقتراحات او مطالب «غير معقولة» .

لا يمكن ان نجد التفسير الكامل لاضطهاد المراة، كما تدعي تي-غريس اتكنسون، في كون الرجال قد حلوا لغز الانجاب

البيولوجي. فهم ، في الواقع ، لم يحلوا لغز الابوة . فمعلوم ان الاب لازم ، لكن غير معلوم كيف السبيل الى التحقق من هويته، اللهم الا بطريقة سلبية . وقد عوضت النساء بملء ارادتهن عن اشكاليةالابوة هذه بتقديمهن بوفائهن ـ ربما بعد ان قسرهن على ذلك الحجر والمراقبة ـ ضمانة هوية الاب. اما وقد بات متعذرا اليوم حجر النساء، ففي مقدورنا ان نسحب تلك الضمانة وان نجعل الاسرة الابوية بحكم المستحيلة بدفاعنا عن ابوة الجماعة كلها: فالرجال جميعا آباء للاولاد جميعا . ولا يترتب على رفض ضمانة الابوة التخالط الجنسي بالضرورة ، وان بدا ان ذلك لا مفر منه في مرحلة اولى . فالعمل المؤقت الذي يسمح للسكرتيرة بأن تختار استخدامها يمكن ان يكون له مفعول ثوري وان يرغم الرجال على الاعتراف بمساهمتهن في تشغيل المشروع. كذلك فان رفض النساء قصر انفسهن على احادية الزواج المطلقة وعلى التمسك بحبل الاخلاص والتفاني نظير ما تفعل الكلبات، هذا الرفض قد يستوجب ان يقوم على اساس من تخالط جنسي فعلي .

ينبغي على النساء ايضا ان يرفضن دورهن كمستهلكات رئيسيات في الاقتصاد الرأسمالي . وبديهي انه من الرجعية الامتناع عن شراء ادوات التدبير المنزلي ، لان النتيجة الوحيدة لهذا الامتناع هي زيادة عمل المرأة والحجر عليها في البيت. لكن لو قبلت النساء بتقاسم آلة غاسلة مع عدد من العائلات دون ان تساورهن الحاجة الى اقتناء آخر طراز يخترع منها، لسددن ضربة قاصمة الى الصناعة . وبدلا من تأليب الاولاد على بعضهم بعضا، يمكن حثهم على تقاسم الدمى والالعاب التي تلقى في ركن منسي بمجرد ان يملوا منها . والاولاد، بخلاف ما يتصوره الاهل ، لا ينفرون من مثل ذلك التقاسم . واني لاذكر ان اهلي ضربوني لانني اعطيت لعبي لغيري وانا في الرابعة من العمر. ولا يحتاج الاولاد الى اللعب المرتفعة الثمن ، وفي وسع النساء ان

يتجاهلن الاعلان الذي يجهد لابتزاز الملايين منهن في كل عيد ميلاد . وفي مقدورهن ايضا أن يقاومن تضخم اسعار مساحيق الغسيل بمقاومتهن اغراء التغليف Emballage وبشرائهن فلتا منتجات غير ذائعة الشهرة تجاريا . كذلك يسعهن شراء المنتجات الغذائية من المنتج مباشرة فيما لو أتحدن فيما بينهن لتحاشي الوسيط . ثم انه من الممكن الحصول على علاوة في الكمية في حال التشارك في الشراء . وعلى النساء ان يتغلبن على نفورهن من شراء الملابس والادوات المستعملة . وليس ثمة ما يمنع تقاسم ملابس الاولاد الذين يكبرون . وما كان الاولاد انفسهم ليعلقوا على ذلك كبير اهمية لولا وقوعهم بدورهم ضحايا الاعلان. وكثيرة هي الاسر العمالية التي تتبادل عربات الاطفال . ومن مزايا هذا التعاون انه يحطم عزلة الاسرة الفردية . لكن ما اضعه نصب عيني في المقام الاول امكانية تجنيب النساء الدور الذي يلعبنه حاليا كضحايا للاعلان وكصانعات رئيسيات للتبذير .

سيشق على غالبية النساء الامتناع عن كل تأنق ، على الرغم من ان العديد من حركات التحرر النسوي تحثهن على التخلص من رثاث استرقاقي . والواقع ان الاستخدام الواعي والمتعمد لمواد التجميل بهدف ابراز المحاسن الطبيعية لا يتأتى عنه اي استلاب . بيد ان وظيفتها تصبح مشبوهة حين تتحول الى قناع غرضه اخفاء واقع يُرتأى بأنه قبيح ومنفر . فالنساء اللائي لا يجرؤن على الخروج بدون اهداباصطناعية يشكين من اضطرابات نفسية خطيرة . واغلى المنتجات ثمنا لا تختلف اختلافا جوهريا عن البخسة الثمن منها . ولا وجود لمرهم عجائبي يقدر فعلا على تجديد شباب الانسجة الهرمة . وتبقى الحمية والراحة افضل علاج جمالي ، ولا ينبغي استخدام وسائل التجميل الا على سبيل اللعب . وافضلها وارخصها ثمنا هي تلك التي تستخدم في الماكياج المسرحي . واحسن مادة لتجميل العيون تبقى الكحل. وبدلا من شراء خلاصة الفحم الباهظة الكلفة المباعة تحت اسم

اشهر الماركات الفرنسية ، تستطيع النساء ان يصنعن بأنفسهن عطورهن بواسطة كحول الكافور وخلاصة القرفة والبخور ومسحوق الخزامى (اللاوندة) وعشب البتشولي وماء الورد. وبدلا من اتباع الموضة، تستطيع النساء ان يسرحن شعورهن على النحو الذي يوافقهن وبحسب مزاجهن ، وان يتحاشين ان يفرضن على شعورهن تجعيدات لا تتماسك من تلقاء نفسها لانها مخالفة للطبيعة .

ان كفة هذه الميول قد بدات ترجح . فالفتيات لا يلجأن بقدر امهاتهن الى مصفف الشعر. وهن يزدرين الخياطة ، ويرتدين ما لهن رغبة في ارتدائه: من الملابس المسرفة في طابعها الرومانسي الى ملابس الرجال الرياضية . كذلك فقدن الاهتمام بفن الاكل والطبخ. فالغالبية الكبرى منهن قد اعتادت على التغذي بما يقع تحت اليد من انواع الطعام اثناء فترة الدراسة ، وارجح الظن انهن لن يخسرن من جديد هذا الاستقلال المكتسب، وتصاعد موجة الاغذية المركبة وتخفيض الكمية ينمان عن تغير في المواقف من الطعام ومن تتجير المنتجات الغذائية . وما تزال هذه السمات وقفا، الى اليوم، على اقلية ، لكنها اقلية اكثر تعدادا من مناضلات الحركة النسوية . والهدف المنشود من ورائها هو التحرر . ومن الممكن ان يقال ان لاعنف الهيبيين قد اخفق لان رجال الشرطة لم يترددوا في الرد على تقدماتهم من الزهور بضربات من هراواتهم ، لكن القضية قد طرحت على بساط البحث والجدال فيها لم يقفل بعد .

يبقى استبدال الاكراه بمبدا اللذة الوسيلة الرئيسية لتحرر النساء . وقد امسى الطهي والتأنق في اللباس واستعمال مواد التجميل وتنظيف البيت وغيرها من المشاغل اكراهات حل فيها القلق منذ امد بعيد محل لذة المشروع الناجح . ومع ذلك ، فان تلك النشاطات قابلة لان تكون ضربا من التسلية . فجوهر اللذة هو الفطرة والعفوية . وهذا معناه انه ينبغي اطراح المعايير

والضوابط واستبدالها بمبدأ تنظيم ذاتي . وسآخذ مثال العقاقير المسكنة . فالنساء يستهلكن بالاكراه كميات كبيرة منها لتخفيف توترهن العصبي واوجاعهن وقلقهن ، وينجم عن ذلك بالضرورة ظهور شكل محدد من التبعية والارتهان ، ويغدو من المستحيل تحديد ما اذا كان الدواء هو الذي يسبب ظهور الاعراض التي لم يُتناول الا بغية التخلص منها : فالانسان يصبح هنا سجين حلقة مفرغة . والمطلوب، في موضوع الطعام على سبيل المثال ، ان يكون في الامكان اعداد الطبق الذي لنا رغبة في اعداده والذي يرغب الناس جميعا في اكله ، وان نقدمه متى شئنا، بدلا من ان نفعل ذلك في اطار برنامج اسبوعي او نفرض على انفسنا في كل وجبة، وكعبء لا مناص منه، قائمة متنوعة من الاطباق الجديدة والصعبة التنفيذ . ومن المعترف به بوجه عام ان روتين الاعباء المنزلية ضرب من الحلقة المفرغة ، وان العمل يولد المزيد من العمل ، وهكذا دواليك . وللخروج من مثل هذه الدوامة ، لا بد ان تنصرف المراة الى عمل ذي طبيعة مغايرة تماما . ولا جدوى من فترات دورية من الحرية لانها تبقى جزءا لا يتجزأ من النظام. كما ان معظم التسويات والحلول الوسطى لن تخفف الا بصفة مؤقتة من التوتر العصبي . ولهذا السبب نفسه لا فائدة من ادراج عمل تم اختياره بحرية ضمن اطار الحلقة المفرغة ، لان الحافز والطاقة يكونان فاسدين من الاساس . وزبدة الكلام، ليس من حل آخر سوى تحطيم الحلقة المفرغة .

يعتقد بعضهم ان هذه القطيعة ستحطم ايضا مركز الحلقة، وستزج بالعالم في حالة من الفوضى . والحق ان الحرية تخيفنا، لكن هذا الخوف هو جزء من النظام ، ويساهم في استمرار الوضع القائم . واذا ما رفضت النساء قطبية المذكر والمؤنث ، فلا بد ان يقبلن بوجود المجازفة وامكانية الخطأ . والعزوف عن العبودية عزوف في الوقت نفسه عن ذلك الوهم المسمى بالامان. فالعالم لن يتغير بين ليلة وضحاها ، والتحرر لن يتم اذا لم تقبل

النساء افراديا بأن يظهرن في انظار القيمين على النظام القائم بمظهر المنبوذات ، الغريبات الاطوار ، الشاذات . وقد وجدت في الماضي نساء اظهرن من الشجاعة اكثر مما يطلب الينا اليوم ان نظهر، نساء جازفن بكل شيء ولم يكسبن الا القليل ، لكنهن صمدن . ان النساء اللائي يحتججن على وضعهن يعرضن انفسهن لسخرية الصحافة ولاحتقار الاخريات اللائي يكسبن الكثير من المال ويحافظن على انوثتهن . ولكنهن ، على كل حال، لا يحرقن كما في الماضي . ولا يجوز ان نتوقع ان تغدو النساء المصممات على التحرر متوازنات ، سعيدات ، مبدعات ، ومستعدات للتعاون بين عشية وضحاها . لكن الاعراض المخيفة لضياع الشخصية تتلاشى وتزول بوجه عام . وقد تستمر الحاجات والهواجس المصطنعة الوجود ، ولكن حقيقة طبيعتها تمسي معروفة وتتحملها اولئك النسوة بصحو فكر ، ولن يتجلى الموقف بكامل تعقيده الا متى وضع موضع مناقضة . وربما استولى على النساء الذعر ازاء السرعة التي ينسى بها رجال الشرطة الروادع الضميرية التي تنهي عن ضرب النساء، وازاء عنف الاهانات التي تنهال عليهن ، لكن ليس من شأن مثل هذه الاكتشافات الا ان تشد من عزائمهن وتعزز تصميمهن. ويكمن مفتاح استراتيجية التحرر في اظهار الموقف على حقيقته، وابسط طريقة لفعل ذلك هي معارضة الاحبار والخبراء بسفاهة اللغة والافعال ، وذلك عن طريق اللجوء الى «تهافت منطق النساء» المزعوم لتسليط باهر الاضواء على غرور الرجال وسخفهم وظلمهم . لقد كان سلاح المراة التقليدي الدائم لسانها ، كما كان التكتيك الثوري الرئيسي نشر المعلومات. ويتوجب على النساء ، اليوم كما في الامس ، أن يرفضن الرضوخ واللجوء الى الحيلة ، لانه لا سبيل الى خدمة الحقيقة بالمواربة والاخفاء . والنساء اللائي يتصورن انهن يحكمن العالم بالمكر والزلفى بلهاوات ليس الا. وما تكتيك كهذا الا تكتيك عبيد .

من العسير، في الطور الراهن، رسم معالم نظام جنسي

جديد . ونحن لا نحيا سوى مرة واحدة ، والمهم قبل كل شيء آخر العثور على الوسيلة القمينة بانقاذ هذه الحياة من ضروب العجز والقصور التي قيدتها بها حضارتنا . وعن طريق التجريب وحده يمكن فتح آفاق جديدة واكتشاف طريق للتطور ينطلق من الوضع القائم بصفته معطيته الاولى . والثورة النسائية هي بالضرورة ثورة موقفية . ولا يسعنا ان نزعم ان كل شيء سيجد حله يوم يفلح الاشتراكيون في الغاء الملكية الخاصة واقامة الملكية الجماعية لوسائل الانتاج . كما لا يسعنا ايضا الانتظار طويلا. وتحرر النساء ، اذا ما الغى الاسرة الابوية ، فسيلغي كذلك بنية ضرورية للدولة الاستبدادية . وانما يوم تختفي هذه الدولة تكون نظريات ماركس قد تحققت . لنبادر اذن الى العمل . وليوزع الرجال منشورات في المصانع التي صارت فيها البروليتاريا عبدة المشتريات بالتقسيط بدلا من ان تصير شيوعية . فوجود هذه العبودية يرتكز هو الاخر الى وظيفة المرأة الاستهلاكية في البيت. وتدل الاحصائيات على ان معظم المشتريات بالتقسيط تتم على ايدي اناس متزوجين . واذا ما شهرت النساء راية العصيان والتمرد، تبدل هذا الموقف . وتمثل النساء الطبقة التي ترزح تحت اكبر قدر من الاضطهاد ، طبقة من الشغيلات المربوطات بعقد لمدى الحياة بلا تعويض. وليس من الاسراف وصفهن بأنهن عبدات . وهن يمثلن البروليتاريا الحقيقية الوحيدة التي ما تزال على قيد البقاء، ويؤلفن في الوقت نفسه غالبية السكان. فلم لا يتمردن ؟ ان اضطهادهن ينتصب، عمليا ، حائلا دون اتحادهن في جماعة متلاحمة ، قادرة على التصدي لسادتهن . بيد ان الرجل ارتكب خطأ : فردا على تحريض ذي طابع اصلاحي وانساني مبهم ، قبل بالنساء في مضماري السياسة والمهن الحرة. ولقد كان على صواب من امرهم المحافظون الذين راوا في ذلك مساسا بحضارتنا ونهاية الدولة والزواج . ولقد آن الاوان لبدء عملية الهدم. ولا حاجة بنا الى الدخول في امتحان قوة . حسبنا

ان نرفض التعاون في بناء النظام الذي يضطهدنا . وفـي وسعنا ايضا ان نمارس التحريض حيثما واتتنا الفرصة ، وان نتظـاهـر ضد الحانات المحظر دخولها على النساء او ضد مسابقات الجمال، وان نشكل لجانا للاضراب،وان نقتحم وسائل الاتصال الجماهيري وان نفعل كل ما يعجبنا . وعلينـا قبل كل شيء ، لا ان نرفـض فعل بعض الاشياء،بل ان نرفض ان تساورنا الرغبة في فعلها .

ان التجربة تكلف غاليا، وغاليا جدا، ولا يسعنا جميعنـا ان نتزوج لنعرف حقيقة الامر . وعلى اخواتنا الاكبر سنـا منـا ان يطلعننا على ما اكتشفنه . علينا ان نتقاسم باستمـرار التجربـة المكتسبة ، وان نتحرز من اصدار احكام متسرعة مشوبـة بحـب الظهور او متأثرة بمعايير مذكرة . علينا ان نناضل ضد الميل الـى تكوين نخبة نسائية او مراتبيةهرمية من النمط المذكر في منظماتنا السياسية الخاصة بنا ، وان ندافع عن التعاون ومبـدا الاخـوة الامومي . وليس من الضروري ان تلجأ نصيرات المراة بغية تبريـر سياستنا الى اقامة البرهان على ان الامومة شكل ما قبل تاريخي لحياة الجماعة او على ان نظام الابوة انحراف رأسمالـي، اذ ان شكل الحياة الذي تتطلع انظارنا اليه يمكن ان يكـون جديدا كـل الجدة مثلما يمكن ان يكون سحيق القدم. ولسنا ملزمات بالاعتمـاد على انتروبولوجيا تحيط بها الشكوك والريب حتى نشرح للآخرين ما نريده ، وان يكن في مقدور النساء اللواتي يملن الى التبحر في الدراسة ان يقمن بأبحاث نافعة حول دور النساء التاريخي بغيـة توضيح مفاهيمنا بخصوص ما هو طبيعي وممكن في المضمـار النسائي . ان عددا متزايدا من النساء مستعد اليـوم لاصاخـة السمع . وقد آن الاوان ليبدان ايضا بالتعبير عن انفسهـن، ولو بتردد وتقلب، وليستمع العالم اليهن .

يبقى **فرح النضال** افضل معيار لصحـة الطريـق المنتهج، والثورة عيد المضطهَدين . ومن الممكن الا تجني منهـا المراة لأمـد طويل من الزمن من نفع سوى استعادتها كرامتها واهتدائهـا الـى

مبرر للحياة . وليس الفرح مرحا، وانما ينجم عن انفاق متعمد للطاقة في مشروع تم اختياره بملء الحرية وينعكس اثر أختياره عزة في النفس وثقة بها . ويستتبع الفرح التواصل والتعاون مع الاخريات ، على اساس من المتعة التي تتأتى من صحبتهن . وان تكونن متحررات من العجز والعوز وان تطأن الارض بحرية، فذلك هو حقكن الطبيعي . ومن حقكن الطبيعي ايضا ان تنفضن عنكن المعوقات والالتواءات كيما تتملكن جسدكن وتتمتعن بملء طاقاته وتقبلن به بدالة معاييره الطبيعية عن الجمال . ان يكون لكن شيء تريدن فعله، تتطلعن الى تحقيقه ، شيء حقيقي واصيل تصبون الى تقديمه ومنحه . ان تكونن متحررات من الشعور بالذنب ، من الخجل ، من انضباط النساء الذاتي الذي لا يكل ولا يمل. الا تعود بكن حاجة الى التصنع ، الى التكتم ، الى التزلف، الى المصانعة والمداهنة . ان تصبون الى التحلي بفضائل الرجال في الشهامة والكرم والشجاعة . وهذا شيء يتخطى من بعيد مطلب الاجر المتساوي مقابل العمل المتساوي . شيء لا بد ان تنجم عنه ثورة في شروط العمل. فليس لـ «تكافؤ الفرص» من معنى، اذ من الواضح السافر ان هذه الفرص يجب أن تتغير بتمامها، وان تتغير روح المراة بالذات كيما ترغب في الاستفادة من هذه الفرص بدلا من ان تخشاها وتهابها . واول اكتشاف ذي مغزى نصل اليه على درب حريتنا هو ان الرجال ليسوا احرارا، وانهم يستنتجون من ذلك انه لا ينبغي لاحد ان يكون حرا. ولسنا نملك ان نرد الا بشيء واحد : ان العبيد يسترقون سادتهم، ونحن بتحريرنا انفسنا سندلهم على الطريق التي يسعهم انتهاجها فيما لو ارادوا ان ينضوا عنهم ثوب عبوديتهم . ولسوف تحاول صاحبات الامتيازات من النساء ان تجندكن لمعركة الاصلاحات ، لكن الاصلاحات قد فات اوانها . فالمسار القديم يجب ان يمزق اربا اربا، لا ان يرمم ويجدد . ولسوف تحضكن بالمقابل نساء ملوعات على الثورة، مع ان اعباءكن الحالية كثيرة بما فيه الكفاية.

فماذا ستفعلن ؟

الفهرس

الجزء الثالث: الحب

الجزء الرابع : الكراهية

الجزء الخامس : الثورة

مؤلفات في قضايا المـرأة

صـــادرة عــن دار الطليعــة

- **المرأة عبر التاريخ :**
  تطور الوضع النسوي من بداية الحضارة الى يومنا هذا.
  مونيك بييتر

- **الثورة وتحرر المرأة** (طبعة ثانية)
  شيلا روبتهام

- **المرأة في التراث الاشتراكي** (طبعة ثانية)
  ماركس ، انغلز، بيبيل، لينين، زتكين، تروتسكي ، ستالين، ماو، كيم ايل سونغ .

- **محاضرات حول تحرر النساء**
  الكسندرا كولونتاي

- **المرأة الجديدة**
  الكسندرا كولونتاي

- **قضية النساء**
  جزيل حليمي، جرمين غرير، كيت ميليت، شولاميت فايرستون

- **المرأة المدجنة**
  جرمين غرير

- **المرأة اللبنانية** : واقعها وقضاياها
  نجلاء نصير بشور

- **المرأة والحركة النسائية في البحرين**
  احمد حميدان

٣٠٠٠ / ٨١ / ٨٦١

هذا الكتاب

□ المرأة المدجّنة ، أو المُشيّأة ، أو المخصية ، هي ذلك الكائن الأشوه الذي جُرِّد من كل ذاتية وصار موضوعاً لميتولوجيات شتى تطال الجسد والنفس والاعماق اللاشعورية معاً .

□ المرأة المدجّنة هي ذلك الكائن الذي رفعه المتصوفة والشعراء الى مرتبة المثال الافلاطوني ، وحطّه هؤلاء المتصوفة والشعراء أنفسهم الى منزلة التجسد الشيطاني .

□ المرأة المدجّنة هى ذلك الكائن الذي لا كينونة له ، والذي كل وظيفته في الوجود أن يملأ النموذج المقولب الذي حفرته له الايديولوجية الذكورية على امتداد آلاف السنين .

□ المرأة المدجّنة هي ذلك الكائن المازوخي الذي لا شأن له غير أن يهين ذاته بأبشع مما يهينه به الرجال ، وهي ذلك الكائن المجبول من أزواج من المتناقضات : أنثى بلا أنوثة ، أنانية بلا أنا ، جنسية بلا جنس ، وعمق بلا قاع .

□ أفما آن لهذا الكائن السالب أن يتبنى نفسه ويسترد سؤدده ويكوّن ذاته ؟

□ هذه هي الصرخة ـ السؤال التي يتفجر بها هذا الكتاب الذي قال عنه النقّاد انه البيان الأكثر واقعية وجذرية ، والأكثر صحواً وتفجراً بالعفوية لحركة تحرر المرأة .

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الثمن : ٢٤ ل.ل.
او ما يعادلها